



**DEVELOPMENT OF RELIGIOUS POETRY IN
ABBASID PERIOD FROM SECOND TO
FORTH CENTURY (A.H.)**

**ABSTRACT
THESIS**

SUBMITTED FOR THE DEGREE OF

**Doctor of Philosophy
in
Arabic Literature**

BY

SYED SUHAIL AHMAD

**UNDER THE SUPERVISION OF
DR. S.M. UMARI**

**DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH (INDIA)**

1999

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أفضل الأنبياء وأشرف المرسلين
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين!

بعد العصر العباسي الأول عهد ازدهار في تاريخ الأمة

الإسلامية، وازدهرت العلوم الإسلامية والعربية فيها وحصلت تصاريح الحضارات و
احتكاك النظريات المتضاربة حيث ترجمت العلوم الإغريقية القديمة إلى اللغة
العربية كما نقلت الثقافة الهندية والفارسية إليها.

وشهد التاريخ التفاعل صراعاً فكرياً بين الماثور المتوارث وبين الأجنبي
الرافد من الوجهات والآراء والتسعت آفاق الفكر العربي وتفاعلت الثقافة
العربية الإسلامية مع جزر لا يستهان به من الثقافة الإغريقية المنسولة، و
تعارضت مع فطرها الآخر وصارعة فمضت.

في خضم الأوضاع الجديدة شهدت العلوم الدينية واللغوية تطوراً

مطرداً وحركة ونشاطاً متلاحقاً، وأثبت الفكر العربي نضوجه ومرونته كما
أثبتت اللغة العربية سمعتها وجدارتها وحيويتها بأن تكون وعاء الثقافة
المتضاربة الآفاق وأن تغطي حاجة الأمة الحضارية في التعبير عن المفاهيم الفكرية
الحديثة التي صبتها روافد الحضارات الدافدة إلى تعامل الحضارة الإسلامية
والصراع الحضاري عادة يستمر طويلاً حتى تترجح كفة إحدى الحضارات
المتصارعة وتغلب الحضارة التي تتأسس على أقوى رصيد من التراث
الفكري والعلوم، لكن الحضارة الإغريقية والحضارات الأخرى استكانت وتحت

وأُنسجت المجال للحضارة الإسلامية لأن تتقدم إلى غاياتها البعيدة بخط ثابتة،
واستعارت الحضارة الإسلامية بدورها من الحضارات المرافدة واستفادت منها
مالادها والنسج معها في إطار مبادئها المرسومة .

كانت الحركة الترجمة ونقل الشفقات الأجنبية إلى العربية آثار بعيدة
المدى في تنظيم العلوم الإسلامية وصياغتها وتدوينها كما كان لها دور ملموس في
تطوير العلوم اللغة والأدب العربي .

نلاحظ أن النزعات الدينية تمثل دورها في تيار تحتي في الشجر العربي خلال
تلك الفترة وتنعكس فيه ملامح الفكر الديني الذي أسهمت في بناءه عوامل مختلفة
ومنها الفلسفة الاغريقية المنقولة .

بصادقنا أبا العتاهية بقصائده المليئة بمعاني الزهد وقلة المبالاة
بمظاهر الحياة الأرضية وقلة غناء عظام الدنيا .

يا الهي لا تعذبني غاي
مقر بالذي قد كان مني
ومالي حيلة إلا رجائي
وعفوي أن عفوت وحسن ظني

كما نجد الحكمة والموعظة تجسد الكلمات والعبارات والقوافي عند الامام الشافعي
في نقاء شفاف .

أفكر في نومي ألفى وصبري
أحمد همتي وأذم دهرى
وما قصرت في طلب ولكن
لرب الناس أمر فوق أمرى

ونلاحظ الحكمة والحماسة يكتلان في براعة وجمال عند أبي تمام الطائي .

تدبر معصم بالله منتقم
للم مرتقب في الله مرتغب

لم يغز قوما ولم ينهض إلى بلد إلا تقدمه جيش من العرب
 رمى بذلك الله برجسها ونهدمها ولورمى بك غير الله لم تصب
 وصان جانب آخر فريد من صفاء العاطفة وعمقها وأصاله مصدرها عند الإمام
 عبد الله بن المبارك .

يا عابد الحرمين لو أبصرنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
 من كان يخضب خده بدموعه فخورنا بدماءنا تتخضب
 وكذلك نرى في شعر المتنبي وإياه تفوق في شعر الحماسة والحرب ووصف الجهاد بين
 المسلمين والمروم .

صل الحذر الحمراء تعرف لدرنجا وتعلم أي السائين الغمام
 ومن طلب الفتح الجليل نأنا مغابحه البيض الخفاف الصوام
 ولست ملوكا هازما لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم
 هنيا لضرب الهام والمجد والعلی وراجيد والإسلام أنك سالم
 وتعد هذه النسخة من أعظم قصائد الحماسة في الشعر العربي .

خطة البحث :

إن هذا البحث المتواضع يحتمل على أربعة أبواب وينتهي إلى

الخطة المرحلة التي سرتما خلال البحث .

الباب الأول . يحتمل على فصلين عن الأوضاع السياسية ، والأوضاع الاجتماعية

في العصر العباسي .

الباب الثاني . عن الأوضاع الثقافية ويضمن فصولا ثلاثة ، في حركة الترجمة

والنقل والتصنيف، وتنظيم العلوم الإسلامية، وتطوير العلوم الأدبية واللغوية في العصر العباسي .

الباب الثالث. عن رواد الشعر الإسلامي مع أشعارهم الدينية .
الباب الرابع. يشمل فصلين عن دراسة شعر الزهد والنصوف وشعر الحماسة والجهاد في العصر العباسي .

ولقد وصل الباحث من خلال الدراسة الماضية إلى نتائج عديدة ستلخص في التالية .

كان العصر العباسي الأول عهداً ذهبياً في تاريخ الأمة الإسلامية ولكن العصر العباسي الثاني كانت فيه الأوضاع السياسية متدهورة حيث لم تعد للخلافة العباسية واستقلت مناطق العالم الإسلامي مما أنتج ضعفاً لعدم الاستقرار السياسي .
كان المجتمع في ذلك العصر يتألف من أربعة عناصر رئيسية هي العرب والفرس والمغاربة والأفراك وكانت السيادة المعهدة للعرب خرجت من أيديهم وبدأ العصر العجمي يزداد قوة يوماً بعد يوم، واختلط المجتمع العربي بالأسم الأجنبية وتفاعل معه وكان بينهما تأثير متبادل .

هناك في ذلك العصر انقسم المسلمون إلى شيعة وطوائف، أن تعرض المجتمع الإسلامي إلى التفتك والتنازع ولم يخذ النزاع بينهم طموح العصر العباسي بل تطوراً أطواراً مختلفة .

كانت هناك أربع ثقافات في العصر العباسي وهي الثقافة الفارسية و الهندية والعربية والبيزنطية وامتزجت هذه الثقافات بعضها ببعض فتجنت

عنها النهضة العلمية تتمثل في ثلاثة جوانب، وهي حركة الترجمة والنقل تنقسم إلى ثلاثة أدوار، الأول من خلافة المنصور إلى وفاة هارون الرشيد وهي الطبقة الأولى من المترجمين منهم عبد الله بن المتفيع ويحيى بن البطريق. والثاني من ولاية المأمون إلى سنة ٢٠٠ هـ وهي الطبقة الثانية منهم يوحنا بن البطريق وحجاج بن مطر، والثالث من سنة ٢٠٠ هـ إلى منتصف القرن الرابع ومن ترجم هذه الطبقة متى بن يونس و سنان بن ثابت ويحيى بن عدي وغيرهم. وكانت هذه التراجم كلها من ما أثريته الحكمة الذي أسسه الرشيد ورعاه المأمون، وكذلك كانت حركة التصنيف قد تطورت وأخذت طريقها نحو الدقة وحسن الترتيب. وتنظمت أيضا العلوم الإسلامية في هذا العصر الذهبي كلهم كال تفسير والحديث والفقه والتاريخ بل وضعت المناهج للكتابة الصحيحة نحو هذه العلوم.

إن هذا العصر يمتاز عن غيره بتطور العلوم الأدبية واللغوية، والسعة دائرة المعارف وتشعبت أغراض اللغة وشعر كل ذي فضل في تدوين العلوم ومراسيها. وكذلك رواد سنن شعر الدين كالأبي العنانية وأبي نواس وعبد الله بن المبارك والمثنوي وغيرهم كانت أشعارهم في هذا المجال مملوءة بشعر الزهد والخماسة وحمية الجهاد.

لقد وصل الباحث إلى أن الشعر الديني في العصر العباسي لم يبلغ إلى الكمال بل كان يتوقف على طبقة مخصوصة كالزهاد والعلماء والمحدثين كما ذكرنا في الباب الرابع - وليس من الشعراء المعروفين إلا قليل منهم، قد نظروا هذا القسم من الشعر، وإنا نأثر شعر الخماسة والجهاد على المجتمع.

وهكذا نرى هذا العصر الذهبي يكن في ضيقه نماذج رائعة
من الفكر الديني والحماسة الإيمانية والآراء الأصيلة التي تمثل المستوى الفكري
في ذلك العهد.

وقد حاولت التوضيح في إكمال هذه المهمة. والله الحمد رب السموات
 ورب الأرض رب العالمين.



تطور الشعر الديني في العصر العباسي

من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري

رسالة لنيل شهادة الدكتوراة في اللغة العربية

إعداد

سيد سهيل احمد

تحت إشراف

الدكتور محمد صلاح الدين العمري

قسم اللغة العربية وآدابها

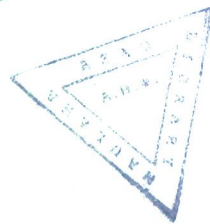
جامعة عليكرة الإسلامية عليكرة

المسند - ١٩٩٩م



T5615

T. 5615





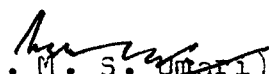
Phones } External : 409062
 } Internal : 222

DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH—202 002

Dated...9.10.1999.....

TO WHOM IT MAY CONCERN

This is to Certify that Mr.S.Suhail Ahmad
Enrolment No. X-7516 has completed his Ph.D.
work entitled "TATAWWUR AL-SHĪR AL-DĪNĪ FI AL-
ASR AL-ABBĀSĪ MIN AL-QARN AL-THĀNĪ ILA-AL-QARN
AL-RABĒ AL-HĪJRĪ" under my supervision. This
is an original contribution and entirely of his
own. It is now forwarded for submission for
the award of Ph.D. degree in Arabic.


(Dr. M. S. Umar)
Supervisor,

الإهداء

إلى أُمِّي رَحِمَهَا اللَّهُ وَأَجْزَلَ مَثَوْبَتِهَا رَحَلَتْ عَنَا وَأَنَا
أَحِبُّوهُ، وَكَانَ أَكْبَرَ أَمْنِيَّتِهَا أَنْ اتَّقِفَ بِالْثَقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَ
الْعَرَبِيَّةِ وَأَقُومَ بِوَاجِبِي نَحْوَ رِسَالَتِهَا.
وإِلَى أَبِي - حَفْظِهِ اللَّهُ - الَّذِي تَحْمِلُ الْمَتَاعِبَ
وَالْمَصَاعِبَ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَّتِي وَدِرَاسَتِي.
رَبِّ ارْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا.

المحتويات

مقدمة

الباب الاول

٩—٢

الاضاع السياسية

٥٦—١٠

خلفاء العصر العباسى

٧٥—٥٧

الاضاع الاجتماعية

الباب الثانى

٨٦—٧٧

الاضاع الثقافية

٩٣—٨٧

حركة الترجمة والتصنيف

١٠٧—٩٤

تنظيم العلوم الإسلامية

١٢٣—١٠٨

تطور العلوم الادبية واللغوية

الباب الثالث

١٧٠—١٢٥

رواد الشعر الإسلامى

الباب الرابع

١٨٦—١٧٣

شعر الزهد والتصوف

٢١٥—١٨٧

شعر الحماسة والجهاد

٢١٨—٢١٦

الخاتمة

٢٢٥—٢١٩

فهرس المصادر و المراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أفضل الأنبياء

وأشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين !

بعد العصر العباسي الأول عهد ازدهار في تاريخ الأمة الإسلامية

دونت العلوم الإسلامية والعربية فيها، وحصلت تصارخ الحضارات و

احتكاك النظريات المتضاربة حيث ترجمت العلوم الإغريقية القديمة

إلى اللغة العربية كما نقلت الثقافة الهندية والفارسية إليها.

وشهد التاريخ صراعا فكريا بين الماثور المتقارث وبين الأجنبي الوافد

من الوجهات والآراء واتسعت آفاق الفكر العربي وتفاعلت الثقافة

العربية الإسلامية مع جز لا يستهان به من الثقافة الإغريقية المنقولة

وتعارضت مع شطرها الآخر وصارعت فقهية.

في خضم الأوضاع الجديدة شهدت العلوم الدينية واللغوية

تطورا مطردا وحركة ونشاطا متلاحقا. وأثبت الفكر العربي لفضوجه

ومرونته كما أثبتت اللغة العربية سعتها وجدارتها وحيويتها بأن تكون

وعاء الثقافة المتضاربة الآفاق وأن تغطي حاجة الأمة الحضارية في

التعبير عن المفاهيم الفكرية الحديثة التي صبتها روافد الحضارات الوافدة

إلى معادل الحضارة الإسلامية، والصراع الحضارى عادة ليستمر طويلا حتى تترجح كفة إحدى الحضارات المتصارعة وتغلب الحضارة التي تتأسس على أقوى رصيد من التراث الفكرى والعلوم، لكن الحضارة الإغريقية و الحضارات الأخرى استكانت وتفتحت وأفسحت المجال للحضارة الإسلامية لأن تتقدم إلى أغاياتها البعيدة بخط ثابتة، واستعارت الحضارة الإسلامية بدورها من الحضارات العائدة واستفادت منها ما لائمهوا والفسح معها في إطار مبادئها المرسومة.

كانت لحركة الترجمة ونقل الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية آثار بعيدة المدى في تنظيم العلوم الإسلامية وصياغتها وتدوينها كما كان لها دور ملموس في تطور العلوم اللغوية والأدب العربي.

نلاحظ أن النزعات الدينية تمثل دورها في تيار تحتي في الفكر العربي خلال تلك الفترة وتنعكس فيه ملامح الفكر الديني الذي أسهمت في بناءه عوامل مختلفة ومنها الفلسفة الإغريقية المنقولة.

يصادفنا أبو العاصية بقصائده المليئة بمعاني الزهد وقلة المبالة بمظاهر الحياة الأرضية وقلة غناء حطام الدنيا، كما نجد الحكمة و الموعظة تتجسد الكلمات والعبارات والقوافي عند الإمام الشافعي في نقاء وشفافية

أُنكر في نوبى ألفى وصبرى	وأحمد همتى وأذم دهرى
وما قصرت في طلب ولكن	لرب الناس أمر فوق أمرى

ونلاحظ الحكمة والحساسية يكتملان في براعة وجمال عند أبي تمام، وهناك جانب آخر فريد من صفاء العاطفة وعمقها وإصالة مصدرها عند الإمام عبد الله بن المبارك

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه نخورنا بدماءنا تتخضب

وهكذا نرى هذا العصر الذهبي يكن في ضيقه نماذج رائعة من الفكر الديني والحساسية الإيمانية والآراء الأصيلة التي تمثل المستوى الفكري في ذلك العهد.

أما بعد ! فهذه أطروحة حاول فيها الباحث أن يبرز جميع هذه المراحل ريق وقفات تأمل مع كل الجوانب المهمة من هذا الموضوع في إطار الفرصة المتاحة والمصادر المتواجدة في مكتبات شمالى الهند ولم يدخر وسعا في الرجوع إلى جميع المظان والخص فيها، فعسى أن يقبل سعيه وتغتنر زلته نظرا إلى أضالة موارده.

وقد حاولتني التوفيق في إكمال هذه المهمة ولله الحمد.

خطة البحث:

إن هذا البحث المتواضع يحتوي على أربعة أبواب، وفيما يلي الخطة الموجزة التي سرتما خلال البحث.

1. الباب الأول يحتوي على فصلين: عن الأوضاع السياسية في العصر العباسي والأوضاع الاجتماعية.

الباب الثاني عن الأوضاع الثقافية ويضمن فصولا ثلاثة في حركة

الترجمة والنقل والتصنيف، وتنظيم العلوم الإسلامية، والعلوم الأدبية
واللغوية وتطورها أيضا.

الباب الثالث عن رواد الفكر الإسلامي وأشعارهم الدينية.
الباب الرابع. يحتوي على فصلين. عن دراسة شعر الزهد والنسب،
وشعر الحماسة والجهاد في العصر العباسي.

الإعتراف والتقدير.

يمر الباحث خلال التحضير بأزمات ومشاكل لا يقدرها
إلا الذين اجتازوا هذه المراحل، ويحتم على العاجب وعرفان الجميل أن أسجل
إمتناني وتقديري لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد راشد الندوي رئيس قسم
اللغة العربية سابقا ومشرقي الأول الذي شملني بلطفه وعنايته كما أعبر
عن مشاعر الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور محمد صلاح الدين العمري الذي
أشرف على هذا البحث وأغادني وسددني وأرشدني إلى انجاية الطاف.

إنني مدين بالشكر الذي أسداه الأستاذ الدكتور كميل احمد القاسمي
رئيس قسم اللغة العربية، كما أعترف بالجميل للأستاذ الدكتور عبد الباري رئيس
قسم اللغة العربية سابقا وأشكر جميع اساتيد القسم الذين بذلوا انفسهم
وتواجيبها عنهم السديدة.

لقد كان لخالين فضيلة الاستاد سيد محمد الرابع الحسني الندوي
عميد ندوة العلماء والاستاذ واضح رشيد الحسني الندوي رئيس التحرير
مجلة الرائد حفظهما الله وتولاها دور كبير في رفع المعنويات الباحث

وتوجيهه وتشجيعه في القيام بهذا العمل فجزاهم الله خيراً على هذا.
 وأشكر شقيقي الأكبر السيد عرفان عامر الندوي، فقد تولّى
 مسؤولية تربيتي وتوجيهي وكان خير أخ في أداء واجبه نحو اخوانه الصغار
 فجزاه الله أحسن وأوفى ما يجزي المحسنون، كما أشكر الأخ عبد الماجد الندوي
 وسرور عالم وتوفيق أحمد، حبيب الرحمن، احسان الله، عليج أحمد جالسي وقصير عزيز حميد أحمد
 وأيضاً كبير أحمد خان رئيس مكتبة مجمع اللغة العربية والزمللاء الآخرين على حسن
 تعاونهم وتعاليتهم خلال هذه الفترة الممتدة على عدة سنوات .
 وبالله التوفيق والسداد

السيد سمير أحمد



١٤-١٥-٩٩

الباب الأول

الأوضاع السياسية والاجتماعية في العصر العباسي

الفصل الأول

الأوضاع السياسية

الفصل الثاني

الأوضاع الاجتماعية

تعرض هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة
التي نشبت ضد بني أمية، وهي ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح
الاجتماعي، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرفق على نحو ما هو
معروف عن جماعة الفقهاء وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد
أن يحو سلطان الأمويين محوياً على نحو ما كان يريد ابن الزبير
والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب. وقد شمر
هؤلاء الثائرون السلاح في وجوههم مراراً، كانت تتعرض فيها
وولتهم للخطر أياً تعرض غير أنهم استطاعوا دائماً أن يكبوا
جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بجراً من الدمار، متخذين من
القضاء على كل ثائر وأضراره كلالاً لكل من يحاول الثورة على
نظامهم السياسية والاجتماعية.

وقد انتهت ثورات ابن الزبير وابن الأشعث ويزيد بن
المهلب بمجرد الفتك بهم وبأضرارهم، أما ثورة الخوارج، وشملها
ثورة الشيعة فظلت تشتعل من حين إلى حين في العراق وجنوبه
ومشاليه وماوراءه من الشرق، وكانوا كلما قوضوا على ثورة و
قتلوا منها معتلة عظيمة صبت ثورة ثانية وكلفتهم ثورات
الخوارج خاصة جهوداً هائلة، إذ كانوا لا يستسيئون أبداً،

وكان قد استقر في نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة
وينبغي أن يعود إليها بحيث يتحقق المساواة بين أفرادها بحيث
يعم العدل الذي لا تستقيم حياة الناس بدونه وقد مضوا يجاهدون
الأمويين جهاداً عنيفاً، لا يصانعون فيه ولا يراهنون، بل يشهرون
سيوفهم بأذنين أرواحهم في سبيل عقيدتهم، وكلما هُزمت منهم
طائفة امتشقت الحسام طائفة أخرى، فقد باعوا أنفسهم للمو
دينه الخفيف يقاتلون في سبيله فيقتلون من خالفوا الطريق
السوي في رأيهم ويقتلون راضين.

ميل الموالي إلى بني هاشم

تأقت نفوس الموالي من الفرس إلى التخلص
من الحكم الأمويين لما ارتكبه من وسائل العنف في قمع ثورات العلويين
ومالوا إلى نصره بني هاشم. ولا سيما بعد مقتل زيد بن علي وابنه يحيى،
فإن هؤلاء الموالي اعتقدوا أن اعتناقهم الإسلام لم يسو بينهم
وبين العرب.

ولا غرو فإن المسلمين من غير العرب قد الحقوا بعد اعتناقهم
الإسلام ببعض القبائل العربية ليكونوا موالى لتلك القبائل. و
نظر العرب الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء
الموالي نظرة الإحتقار، لإمتنانهم طبقات العمال الذين لنشاء منهم

هؤلاء المعوالي (١)

وهذا يفسر لنا أسباب تعلق الفرس بالعلويين ميلهم إليهم.
أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهية التي أضربها
هؤلاء الفرس لعصر بن الخطاب ^ع ثاني الخلفاء الراشدين، ومقوض
دعائم الإمبراطورية الفارسية، وإن هذه النزعة وإن تسمت
بستار الدين، فإن يقوت الباطل لثقتهم سرها وسرايها. هذا
من جهة ومن جهة أخرى، فإن الحسين وهو أصغر ولد فاطمة
بنت النبي صلى الله عليه وسلم وعلي ابن عمه، قد قالوا إنه تزوج من شهربانو
ابنة يزدجرد آخر ملوك آل ساسان. ومن هنا أصبح الأئمة من حزب
الشيعة "الاثنا عشرية وطائفة السبعية أو الإسماعيلية" لا يمثلون حق
النبوة فقط بل يمثلون الملك أيضاً، لأنهم من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم
وآل ساسان معاً. (٢)

ومن ذلك تولدت هذه النظرية السياسية وهي عقيدة سياسية
غير متنازع فيها عند الفرس، وهي أن العلويين وحدهم يملكون حق
حمل التاج، وذلك بصفته المزدوجة، لكونهم وارئ آل ساسان
من جهة أمهم شهربانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس والأئمة رؤساء
هذا الدين حقاً.

(١) تاريخ الإسلام ١٤/٢ عن إبراهيم

(٢) المصدر السابق ١٥/٢

وذلك لعل كثرة الثورات والفتن التي أثارها هؤلاء الموالي من الفرس الذين ساعدوا آل بيت ضد الأمويين.

يمكن اعتبار عهد مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ) آخر خلفاء الأمويين، بدء سقوط الدولة الأموية وانتهيارها والمهيد لقيام الدولة العباسية. ففي ذلك العهد ثبتت الثورات ضد الحكم الأموي في أنحاء الشام ودبت الفوضى في العراق. وكانت أعظم الفتن في العراق فتنة الخوارج بزعامة الضحاک بن قيس الذي سار إلى الموصل، يسعى للوصول إلى الخلافة، ورغى أنه قتل، فإن الدولة الأموية أصبحت قارب قوسين أو أدنى من الانهيار. ولم يكد مروان أن ينتهي من قتال الخوارج حتى بلغه نبأ ظهور العباسيين في خراسان التي تقع شرق بلاد فارس، وساعد هؤلاء على الظهور، فساد أحوال الشام والعراق والنقسام القبايل اليمنية والمضربة على بعضها، وانتقلت الحالة من سئ إلى أسوأ حين ولي أمور الدولة خلفا من أصحاب السيرة السيئة^(١).

ولكن العامل الهام الذي أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعفها في عصر مروان بشكل جلي، ما كان من انقسام المسلمين إلى عرب وموال وهم المسلمون من غير العرب، وعداء الموالي لتلك الدولة وقياهم ضدها لحرمانهم من الحقوق التي تمتع بها العرب. وصارت الحركة التي قام بها العباسيون لنيل الخلافة، ماهي إلا

حركة المعالي ضد العرب لأن العباسيين اعتمدوا على المعالي باعتبارهم
 حزبا كبيرا ساد على الحكم الأموي.

بدأت تطلع الدولة العباسية تظهر، منذ أن بدأ أبو مسلم
 الخراساني سنة ١١٢٩هـ - قبل سقوط الدولة الأموية بثلاثة سنوات - ينشر
 الدعوة للعباسيين في خراسان وتداعت الدولة حين عقد في الحجاز في
 أواخر العصر الأموي مؤتمر ضم أقطاب آل هاشم من العلويين والعباسيين
 وتناشوا في الرسائل التي تؤدى إلى القضاء على الخلافة الأموية بعد
 أن اشتد البلاء بالمسلمين على خلفائهم ونظروا فيمن يرشح للخلافة،
 إذا نجحت مساعيهم، فتوقع اختيارهم على أحد الحاضرين وهو محمد العريضي
 بالنفس الزكية، ولكن الخلافة لم تسد فيما بعد إلى هذا العلوي، بل
 أسدت إلى رجل من العباسيين هو أبو العباس. ولم يعد العلويون
 بعد وصول العباسيين إلى الخلافة عن المطالبة بدعواهم وظلوا يناضلون
 ويكافحون ابتغاء الوصول إليها واضطهدهم العباسيون كما اضطهدهم
 العلويون من قبل.

وكان ذلك التحول من الأمويين إلى العباسيين والقضاء على
 محاولات العلويين في إقامة خلافة علوية، راجعاً إلى جهود أبي مسلم
 الخراساني الذي وجد في الحالة السيئة، فأذكى نيران الفتن ضد الأمويين
 وكللت جهوده في هذا السبيل بالنجاح بمساعدة المعالي الذين تدفقوا
 من كل جانب على خراسان وانضموا إلى دعاة العباسيين والتف حول

أبي مسلم الخراساني مائة ألف من الموالي، وتمكن من بذر بذور الشقاق بين أنصار بن أمية النازلين في خراسان، واستطاع أن يربط عدة أشهر بظاهر مدينة مرو عاصمة خراسان، وأن يستميل اليمنية أعداء الأمويين في ذلك الإقليم (١).

وكانت الدعوة إلى انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين سرية في بادئ الأمر ثم انتقلت إلى خراسان وظلت الدعوة سرية لا يعلنها إلى النقباء من شيعتهم حتى وقع في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بن أمية كتاب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني يأمره فيه بتشديد الرقابة على من يتكلم العربية في خراسان، لأن وجود العرب في خراسان في نظره سواء كانوا يمنية أو عصرية من شأنه أن يؤدي إلى فشل الدعوة العباسية ونضجه بالتفكيك بكل من يتجهده بالعمل ضد الدعوة العباسية، فأدى هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم وسجنه في حران شمال الشام وقتل مسهوما في النهاية، فتولى الدعوة العباسية أبو سلمة الخلال، ولما علم إبراهيم أنه لا نجاة له، ولي عهد أخاه أبا العباس عبد الله بن محمد، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة. ولما قتل إبراهيم سار رسوله إلى الحميرة وسلم وصيته إلى أبي العباس، فتوجه هذا إلى الكوفة، وبعه كبار بني هاشم من ولد العباس، وفيهم

(١) التاريخ الإسلامي العام ٣٢١ علي إبراهيم حسن

أخوه أبو جعفر المنصور وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد ومحمد بن عبد الله بن علي (١) وبيع العباسيون على يد أبي العباس (السفاح فيما بعد) وفي أواخر سنة ١٣٢ هـ رفع العلم الأسود على حصون دمشق، وكان ارتفاعه يعني سقوط الدولة الأموية وزوالها نهائياً.

بعد ذلك حلت الهزيمة بيزيد بن عمر بن هبيرة قائد الأعربيين بظاهر الكوفة وأرغم على السير إلى واسط، فجار أبو سلمة ونزل بجذره بمدينة الكوفة وانتقلت جميع مشي العباسيين عقب ذلك من خراسان إلى العراق وتمكنت من أن تأخذ مدنها الكبرى مدينة تلوع مدينة، ووجد مروان نفسه بجميشه على نهر الزاب، وكان جيشه منقسماً على نفسه في حين كان الموالي أحداؤه متحدين، فدارت الدائرة على مروان، وقد عهد أبو العباس إلى أخيه عبد الله بن علي بمقاتلة الخليفة الأموي مروان بن محمد، فتبعه عبد الله حتى أوصله إلى نهر الزاب الصغير بالعراق وحمل وأغرق كثيراً من أصحابه، من بينهم نحو ثلثمائة من بني أمية، وسار مروان منهزماً إلى الموصل وعبر الفرات فاضطره عبد الله إلى الهرب إلى فلسطين والأردن ثم فر إلى مصر حيث تعقبته جنود العباسيين في قرية بوعير من أعمال الفيوم وحمل مروان ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ (٢) وأخذ رأسه وأرسل إلى السفاح

(١) تاريخ الإسلام ١٩/٢
 (٢) مروج الذهب ١٤٩/٢ علي بن الحسين المسعودي

في الكوفة، بذلك انتصر حكم الأمويين وقامت على إنقاضهم دولة
العباسيين التي حكمت العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون وهي على
الجملة تعد عصر الذهب للإسلام . قال صاحب الفخرى : إن هذه الدولة
من كبار الدول ، سادت العالم سياسة مزوجة بالدين والملاذ ، فكان
أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تدنيا ، والباقيون يطيعونها رغبة
أو رغبة ، ثم مكثت فيها الخلافة والملاذ حدود ستائة سنة ، إلا أنها
كانت دولة كثيرة المحاسن جملة الكارم ، أسواق العلوم فيها مائنة
وبضائع الآداب فيها نافعة وشعائر الدين فيها عظيمة والخيرات فيها
وارة ، والدنيا عامرة والحرمات مرعية والثغور محصنة ومازالنا على
ذلك حتى كانت أواخرها ، فانتشر الخبر واضطرب الأمر وانتقلت
الدولة .^(١)

(١) الفخرى . ١٤٠

(٢) المصدر نفسه . ١٥٠

خلفاء العصر العباسي

حكمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون، من سنة ١٣٢هـ وهي السنة التي ولي فيها أبو العباس السفاح الخلافة، إلى أن زالت هذه الدولة من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦م - ١٢٥١م.

١- ألب العباس السفاح. (١٣٢م - ١٣٦م)

كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وكان أبوه محمد أول من اضطلع بنشر الدعوة العباسية (١) في أواخر العصر الأموي حتى مات سنة ١٢٥م، وكان قد أوصى بالإمامة من بعده لإبنه إبراهيم.

كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية وظلت بقرا للخلفاء حتى اعتلى السفاح العرش، فانتخب الأنبار عاصمة لدولته، وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات في الشمال الشرقي للعراق، وأصبحت هذه المدينة بقرا للخلافة العباسية مدة قصيرة من الزمن. (١٣٢ - ١٤٥م).

واستقر المنصور الخليفة العباسي الثاني في الأنبار إلى أن أسس مدينة بغداد ١٤٥م، ومنذ ذلك الحين أخذت المدينة ثقل أمتها شيئاً فشيئاً.

كانت مهمة أبي العباس بإعتباره أول خلفاء الدولة العباسية مهمة شاقة إذا كان عليه أن يثبت أقدام العباسيين في الخلافة ويوطد أركانهم ليكون الأمر خالصاً لهم، ومن ثم سار على سياسة الثأر والإنتقام من الأعداء في غير هوادة، فقد حمل على القضاة نكاحاً بني أمية، ووقعت تبعاً لذلك مذابح عديدة ذهب ضحيتها كثير الأمويين حتى اضطر الكثير منهم إلى التنازل والهجرة وتغلب أبو العباس على حياتهم بالمكر والخديعة، إذ أعلن صفحه العام عنهم وأمنهم على حياتهم فاختدع الأمويون وظهروا نكاحينهم وإذا ذاك القرض عليهم وحبسهم شر قتلة^(١)

ولم يكتف أبو العباس بالقضاء على الأحياء من بني أمية، بل عمد بعد ذلك إلى الأصوات منهم، فأمر بالتحصيل بجثثهم وإحراقها. فنبتش قبر معاوية بن أبي سفيان، وقبر ابنه يزيد وقبر عبد الملك بن مروان كما ضربت جثة هشام بن عبد الملك بالسياط وذرى في الهواء، إلا أن الفاح أصر ألا تمس جثة عمر بن عبد العزيز بسوءٍ إعتراخاً منه بفضلته وجيل صفاته. ولم يكتف الفاح أيضاً بالقضاء على أعدائه الأمويين الذين يصح أن يلتصق له العذر فيما فعل معهم، بل إنه لم يترك فضل الذين ساعدوه في إقامة الدولة العباسية، فغدر بهم، ولم يحترم اليهود والمراشيق التي كان يعطيها لأعدائه ولأنصاره على السواء. وقد قرض الفاح معظم عمره في محاربة قواد العرب الذين

ناصر و ابن أمية وقضى على أعقاب الأمويين حتى إنه لم يفلت منهم إلا
عبد الرحمن الداخل الذي أسس الدولة الأموية ببلاد الأندلس، وكذلك
وجه السفاح هتمه إلى الفتنة بين والده وساعده على تأسيس دولته
فقتل أباسلمة الخلال الذي كان من أهم العوامل التي ساعدت في تأسيس
الدولة العباسية، وهم يقتل أبي مسلم الخراساني لولا عا جلسته منيته، كما
قتل ابن هبيرة أحمد قمراد حروان بن محمد الأموي بعد أن أعطاه الأمان.
وعلى الرغم من أنه كان كريما وقورا سديا للرأي (١) كغير
الحياة عن الأخلاق، يقول السيوطي « وكان السفاح أسخى الناس ما وعد
عدة فآخرها عن وقتها، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها » (٢) وكان يشجع
الأدب والغناء ويجزل العطاء على الشعراء والمغنين.
حكم السفاح أربع سنوات وتسعة أشهر ومات بالجدي
في مدينة الأنبار التي اتخذها قاعدة لخلافته ودفن فيها في شهر ذي الحجة
سنة ١٣٦ هـ.

٢ - أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥١ هـ)

عقد السفاح قبل موته لأخيه أبي جعفر المنصور
الخليفة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين، وبيع بالخلافة سنة
١٣٦ هـ. وهو يعدّ المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، فهو الذي

(١) العالم الإسلامي ٥٦/٢ عمر رضا كحالة

(٢) تاريخ الخلفاء ٢٥١ السيوطي

أصلها وضبط المملكة ورتب القواعد وأمام الناموس (١)
 غدر المنصور بكثير من كبار أنصاره وبعض أمراءه في سبيل
 الإحتفاظ بملكه وصار ذلك من سمات العباسيين الواضحة في طوال
 مدة حكمهم للعالم الإسلامي. تولى الخلافة ولم تكن قد توطدت وعامتها
 ولم يكن يخاف عليها من الدول البائدة دولة الأمويين لأنه لم يبق لهم
 بقية يخاف منها، وإرتأى أن الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:
 الأولى منافسة عمه عبد الله بن علي له في الأمر لما كان له من نباهة الذكر
 في بن العباس ولأنه كان يريد أمر جيوش الدولة من أهل خراسان و
 أهل الشام والجزيرة والموصل.

والثانية من عظمة أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة، فإنه كان
 يرى له من الصولة وشدة التمكن في حياة أخيه ما لم يكن يرى معه
 لهم أمراً ولا حكماً، ومثل المنصور في علو نفسه لا يرضيه أن يكون له
 في الأمر شريك ذو سلطة وسلطان مثل أبي مسلم.

والثالثة. وهي خوفه من بن عمه آل علي بن أبي طالب الذين لا يزال
 لهم في قلوب الناس مكان مكين، فكان المنصور يتخوف أن يخرج عليه
 طالب بالخلافة. (٢)

عزم المنصور أن يضرب أعداءه، فيستريح منهم جميعاً، فأرسل

(١) تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي الأول" ص ٣٣ شوقي ضيف

(٢) العالم الإسلامي . ٥٧/٢

عيسى بن موسى إلى عبد الله بن علي بيعة المنصور وعبد الله غاز، فالضرف بمن معه من الجيوش، وقد بايع نفسه حتى بلغ حران فلم علم المنصور بذلك، استحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد الله، وبعد ومائت حصلت بين الفريقين انهزمت جماعة عبد الله وغر إلى البصرة، ثم أمر المنصور بحبسه وحبس من كان معه، واستمر في محبسه حتى مات سنة ١٤٧ هـ.

ولما استراح المنصور من عبد الله على يد أبي مسلم وجه همنه إلى خصمه الثاني أبي مسلم الخراساني لأنه أصبح صاحب الشكوة والسلطان في الدولة، فصمم على الفتك به وما زال يترقب الفرص حتى تم له ما أراد وقتك بأبي مسلم الخراساني.

ومن الأحداث الخطيرة التي وقعت في عهد المنصور، خلع عيسى بن موسى بن محمد العباسي من ولاية العهد عندما أوصى السفاح بأن تكون الخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر ومن بعده لعيسى بن موسى، وأخذ البيعة للمهدي بن المنصور بعد اختلاف قليل.

ظهرت في عهد المنصور عدة نحل دينية، من أشهرها حركة "الرواندية" و المعتنقات المستمدة من الإنكار الفلسفية القديمة التي نشرها الفرس ودعاهم إليها دعاة ظهوروا على أثر مقتل أبي مسلم الخراساني أمثال: "سباز" و"اسحاق" و اساذ سيس.

بدأ ظهور حركة البرواندية في قرية رواند قرب أصفهان وقلدوا الفرس الذين كانوا يتقدسون ملوكهم ويعتبرونهم آلهة. ويعتقدون أن الروح التي

كانت في عيسى بن مريم قد حلت في علي بن أبي طالب ثم في الأئمة حتى وصلت إلى إبراهيم بن محمد ويعتقدون أيضا في تأليفهم ويستحلون من حرم الله وما لبثوا أن عبدوا الخليفة المنصور إلا أن المنصور عد ذلك خروجاً على الدين وحاربهم بنفسه وحارب النصارى عليهم، على الرغم من تأليفهم له وحسن عدا كبيراً منهم (١) وكان ظهورها نتيجة غلبة العنصر العجمي على العنصر العربي، واضطربت تلك الخل بصبغة دينية وسياسية أيضاً.

لذلك يمكن القول، أنه كما ظهرت في أواخر عصر الخلفاء الراشدين و
عصر الأمويين بعض المذاهب الدينية كالشيعة والموارج وغيرها، ظهرت
كذلك في العصر العباسي نحل دينية ترجع إلى أصل فارسي قديم.
من الأحوال الخالدة التي يحرص الفاتحون على اتقانها، تأسيس
المدن لتتخذ عاصمة للأقاليم المفتوحة والعناية بأمرها وتوسيع نطاقها بمرور
الزمن.

بنى الخليفة المنصور سنة ٨٤٥ م مدينة بغداد، وبدأ مشروعه الضخم بالبحث
عن موضع يصلح للإقامة عاصمته الجديدة، فدلوه على موضع قريب من مدينة بارسا
الواقعة جنوب الموصل، أثناء المنصور في هذا المكان يوماً وليلة، واستقر رأيه
على أن يتخذ ذلك الموضع لبناء مدينة الجديدة وسببت العاصمة الجديدة باسم
مدينة السلام «بغداد» (٢) ووضع المنصور أول لبنة بيده: بسم الله

والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم قال:
ابنوا على بركة الله، واحتفل بوضع الحجر الأساسي إحتفالا شائعا، شهدته
الأمرار والوزراء والأعيان والعلماء.

ومن بعد المنصور تمت بغداد نموا عظيما وشيدت فيها مباني والنشأت حدائق
واستحال العمران من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، واشتهرت هذه المدينة
في التاريخ والأدب والقصص في العصور الوسطى، وازدهرت فيها الفنون
المختلفة، وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي، ومما عنها
المرحون إناها: جنة الأرض ومدينة السلام ومقبة الإسلام (١).

حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات: الأولى
في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، والثانية في عهد معاوية بن سفيان، والثالثة
في عهد سليمان بن عبد الملك، وتحولت الحرب النظامية بين الأمويين و
البيزنطيين إلى غارات تخريبية وتدمير في عهد العباسيين والبيزنطيين بدوا
يشقون غاراتهم على أراضي الدولة العباسية، وذلك في عهد أبي جعفر المنصور
فغزا قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية بعض أراضي الشام سنة
١٣٧هـ، واستولى على ملطية في آسيا الصغرى غير أن العباسيين تمكنوا
من استردادها في السنة التالية، وأقاموا فيها حامية كبيرة من جندهم،
وفي السنة ١٥٥هـ طلب الإمبراطور قسطنطين الصلح مع العباسيين
على أن يؤدي لهم جزية سنوية.

توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ على مقربة من مكة وروى الطبري^(١) في سبب موته، قال بعضهم: كان بدأ وجعه الذي مات فيه حرأصابه من ركوبه في المهاجر، وهو ذاهب إلى الحج، وعمره نحو ٦٣ سنة وترك الدولة ثابتة مستقرة وطيدة الأركان.

كان المنصور من عظماء الملوك وحرماًتهم وعقلاً لهم وعلماً لهم، وذو الأراء الصائبة منهم، والتدبيرات السديدة وقوراً شديداً الوفاً حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالاً لما يكون من عبث أو مزاح، فإذا بسن ثيابه خرج إلى المجلس العام تغير لونه واحمرت عيناه وانقلبت جميع أوصافه^(٢) واشتهر المنصور في بلاطه فلم يعرف عنه ميل إلى اللغو والعبث وقد عرف بالثبات عند الشدائد. ولا شك أن هذه الصفة كانت من الصفات التي كفلت له النجاح إذا صادفته إحدى الصعوبات.

والمنصور من أموى خلفاء الإسلام، أعاد إلى الأذهان حكم عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان، فقد كان ذا شخصية ممتازة ووجه سياسته نحو المصلحة العامة والحرص على ما فيه تقدم العباسيين في الإدارة والحرب والثقافة والعلم.

٣- المهدي بن المنصور (١٥١ - ١٦٩ هـ)

هو محمد بن عبد الله المنصور وابنه ولد بالحجيمة.

سنة ١٢٧٤هـ، ونشأ في بيت الخلافة، وعن أبوه المنصور بتثقيفه، فمال إلى العلم والأدب.

تولى المهدي الملك بعد وفاة أبيه سنة ١٢٥٨هـ، والخلافة قد توطلت، لم تشهد هذه الدولة الواسعة خلالها حروباً أو فتناً بالنسبة لما وقع من قبل وساعد على ذلك أنه كان سالماً لا يميل إلى الشدة والعنف، فأمر بإطلاق من كان في سجن المنصور إلا من كان متهماً بقتل أو كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد، وبعبارة أخرى أطلق الذين كان جرمهم سياسياً، أما الرأب الجنائيات والمحجوسون لتحقيق مدينة، فإنهم ظلوا في حبسهم (١).

وقد بدأ المهدي عهده بسلسلة من ضرب الإصلاح، واستعان في ذلك بما تركه له أبوه من بيت مال عام يكفي الدولة إحدى عشرة سنة كاملة، كما وفق إلى القضاء على الزنادقة وغيرهم من الخوارج عليه وعلى الدين. وقد ذكر المؤرخون، أنه رد الأموال التي صادرها أبوه إلى أهلها وأطلق العلويين الذين حبسهم أبوه وعفا عنهم وأرأوا عليهم الأرزاق (٢). من الظواهر الخطيرة التي أملت المهدي، ظهور الحركات الدينية التي كادت تنزعزع خلافته، من أهمها حركة المقتضية بزعامة القنق الخراساني وحركة الزندقة.

فاد الحركة الأولى رجل مولود في خراسان موطن النحل والتقاليد الفارسية

وكان أعور دسم الخلقه ، ونادى بأن الله خلق آدم فقول في صورته ثم في صورة فوح ، وهكذا حتى أبي سلم الخراساني ثم تحول إلى هاشم القنع ، وبايعه خلق كثير كما فوا يسجدون له ، وكان يعتقد أن أباسلم أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم على أن حركة هذا الرجل لم يطل أمدا وانتهت بقتله سنة ١٧١ م (١) .

وكانت أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً ، هذه الثورات التي أذكي نيرانها الزنادقة الذين تبعد تعالى بهم عن الإسلام وعقائده وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات ، وتبحث بالآداب الجنسية والزوجية المرعية ، وتعرض الحياة السياسية والدينية للخطر .

وكانت العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل سيئة ، ولكن الشقة بين الطرفين بعيدة لم تكنها من المقاتلة بل اكتفيا بمعاودة أحدهما الآخر .

وأما العلاقات بين المهدي وبين ملك الروم فكانت سيئة أيضا ، فلم تكن الغارات من الطرفين تنقطع ، بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الغارات من ملك الروم ، وكانت الحروب برّاً وبحراً . (٢)

وغزا المسلمون في عهد المهدي الهند ، فغنصوا حتى ألوا بآربد ففتحوها عنوة وأقاموا بها غاصا بهم أراضي مات بسببها نحو ألف ، ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلا من فارس « بحر حران »

ويظهر أن هذه الغزوة ليست إلا اغارة لا عملاً يقصد به توسيع المملكة.
 إهتم المهدي إهتماماً بالغاً بالفنون وخاصة فن العمارة، فقد أقيم
 مدينة الرضاة وبنى مسجد الرضاة ووسع المسجد النبوي وحمله وزينه
 بالفسيفساء وكسا الكعبة بعد أن نزع الكسوة القديمة عنها وزاد في
 مسجد البصرة وبنى محطات ومنازل على جوانب الطرق التي يسلكها الحجاج، وعلامات
 على طول طريق الحج ليهدى بها المسافرون.

ومنذ عهد المهدي، بدأت ظاهرة جديدة لم توجد من قبل في الدولة
 العباسية، فقد أحبب الخليفة المهدي على سماع الغناء ولم تكن هذه الظاهرة
 الجديدة في تارخ الدولة العباسية مقصورة على الخلفاء، بل تعدتهم إلى
 الأوساط الأخرى حتى اصطبح تارخ بغداد خاصة وتارخ الدولة العباسية
 بوجه عام بمظاهر الشرف والأبهة.

كان المهدي من خلفاء الذين أحبهم الشعب، فقد أجزل العطاء
 للعلماء والشعراء وذوى الحاجة حتى قيل إنه صرف جميع ما خلفه المنصور
 وكان من خلق المهدي الحيار والعفو والجود والحلم، ولم يكن يشرب النبيذ، و
 إنما أجازته لجلسائه وسماحه، وكان يتأثر بالقرآن، كما أصف بالعدل وحبس
 للنظام بنفسه وبين يديه القضاة. وقد بلغ من حبه للعدل وسيله إلى رد
 المظالم لأصحابها.

٤ - الهادى (١٦٩ - ١٧٠ م)

إرتقى موسى الهادى عرش الخلافة بعد أبيه المهدي، وكان قد قضى أكثر أيامه قبل إعتلاء العرش في بلاد المشرق، واستمرت خلافته سنة واحدة، وفي عهده كانت الخلافة ضعيفة، فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين وعلى المتصلين بالخليفة من الشراء وغيرهم، وكذلك بدأ نساء القصر يتدخلن في شؤون السياسة، وبدأت حياة القصر تتعقد، وظهرت وسائل البلاط حتى قيل إن الهادى قتل بسبب وسائل بعض الجوارى.

كان للمهدي جارية، الخيزران، التي أنجبت له ولديه اللذين وليا الخلافة العباسية من بعده هما: الهادى وهارون الرشيد، وكان لهذه الجارية الكلمة النافذة في بغداد تأمر وتنهي كيفما شئت، حتى كان الناس يتوافدون على دارها ويلجأون إليها، كان الهادى شديد الغيرة على النساء، كره ذلك ونهى أمه عن فعله، ظل العداوة منذ ذلك الحين بين الهادى وأم الخيزران على أشده إلى يوم وفاته، وتردد على صفحات التاريخ أن موت الهادى بعد مرضه كان بتدبير أمه.

أراد الهادى أن تكون الخلافة لابنه جعفر دون أخيه هارون، ولكن الهادى مات ١٧٠ م دون أن تتم رغبته. وهنا نلاحظ عدم وجود نظام لعراثة العرش، مما أدى إلى الفوضى وعدم الاستقرار.

أنتطع من الدولة العباسية بعض دويلات إثر حوادث معينة، و
هذه الدويلات كانت تابعة للعباسيين، وكانت جزءاً من دولتهم ثم استقلت
عنهم. وبذلك انتابها تيار التجزؤ.

وفي عهده خرج عليه بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن، ولما انتهى
الخبر إلى المهدي أمر محمد بن سليمان أن يسير لمحاربة الحسين فلقبه و
هزبه في «فخ» وهو واد في طريق مكة، حيث قتل الحسين بعد أن أبلى أحسن
البلاء ومات معه بعض أهل بيته، وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث
قتل «لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأجمع من فخ» (١).

وافلت من الموقعة رجالان لهما تاريخ جليل، وهما ادريس بن عبد الله
بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي أظهر حقه في الخلافة والتف حول
البربر وبائعوه، وهو مؤسس الدولة المعروفة باسم «دولة الإدريسة»
بالمغرب الأقصى والثاني أخوه يحيى بن عبد الله الذي ذهب إلى بلاد الديلم.

ورث المهدي عن أبيه كراهية للزنادقة وعمل على استئصال شأنهم
وقد قام بوصية أبيه بالأل يفتر عن التكنيل بهذه الطائفة وتطهير البلاد
عن رجسهم وفسادهم، فلم يأل جهراً في الضرب على أيدي الزنادقة
والخوارج الذين ثأروا في بلاد الجزيرة، وقتل من ظفر به منهم.

ولم تطل خلافة المهدي، فقد توفي ببغداد سنة ١٧٠هـ، بعد أن

ظل في الخلافة سنة وثمانين وعشرين يوماً، يقول ابن طاطا: واليلة

التي مات فيها هي ليلة مات فيها خليفة وجلس خليفة وولد خليفة، فالفليفة الذي
مات فيها هو الهادي والذي جلس فيها على سرير الخلافة هو هارون الرشيد، والذي
ولد هو المأمون (١).

٥- هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)

يعتبر الرشيد أشهر خلفاء بني العباس ماطبة، وبعد
الشخصية الثانية البارزة في العصر العباسي بعد المنصور، وفي عهده بلغت بغداد
درجة لم تصل إليها من قبل، فقد أصبحت مركز التجارة، وكعبة رجال العلم والأدب.
واشتهر اسم الرشيد في الغرب، لما كان بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة من
العلامات السياسية وأواصر الود.

أصبح عصر الرشيد عصرًا فارسيًا من حيث نظم الحكم وظاهرة الحياة الاقتصادية
والاجتماعية، وكان كل شيء فارسي محبوبًا مرغوبًا فيه، فاحتفى بالأعياد الفارسية القديمة
كالنيروز، وصار الطعام والشراب واللباس فارسيًا وأمر الجيش صاروا كلهم من
الفرس، وتولى الوزارة رجال من الفرس هم البرامكة.

وفي عصر الرشيد قام الخوارج بغتفة تزعمها الخارج الوليد بن طريف
الشاري، وتبعه عدد كبير بلغ ثلاثين ألفًا. فقد رمى الوليد الخليفة هارون بالظلم
والجور، فبعث الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني حين برز طريف لقتال جند يزيد،
واشدت شوكرته، واشهر أكثر من مرة على جند هارون وقتل والي نصيبين وأذربيجان،

وعاش فيها مساداً، (١) ثم عاد إلى الجزيرة حتى وصل إلى حلوان ولكنه هزم وقتل على يد يزيد.

تابع العلويون ثوراتهم في عهد الرشيد كما ثاروا من قبل في عهد المنصور والهادي استمال الرشيد قلوب بني طالب بشي من الإحسان فرفع الحجر على من كان منهم ببغداد ولكن لم يمض إلا زمن يسير حتى خرج عليه يحيى بن عبد الله فذهب إلى بلاد الديلم فاشتدت شوكته بما وقوى أمره. ولا علم الرشيد بذلك ندب إلى قتله الفضل بن يحيى بن خالد، فلم يكن يحيى إلا أن أجاب إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً، ولكنه ما لبث أن نقضه وحبس يحيى وظل في حبسه حتى مات.

وأما إدريس بن عبد الله أخو يحيى، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢هـ. ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى، حيث انتف حوله البربر، وقد حجز الرشيد عن إخضاعه بحمد السيف فارس إلى رجا بالمكرو الدهار، ولا وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب تقرب من إدريس حتى صار من خواصه. ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧هـ.

وفي إفريقية استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتي ١٧٨ و ١٨١م فأرسل إليهم الرشيد جيشاً بقيادة هرثمة بن أعين، فهزمهم ولكن هذا القائد ما لبث أن تخلى عن القيادة وعاد إلى المشرق، ثم قامت هذه البلاد "دولة الأغابة" على يد إبراهيم بن الأغلب، الذي ولي هذه من قبل الرشيد لتأديب البربر. إذا ما أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية في بغداد، ولم يصح للعباسيين سوى السيادة الاسمية على هذه الدولة واتخذت مدينة القيروان الواقعة في الجنوب

الغربي من تونس الحالية الحاضرة لها، وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون سنة ٢٩٧ م على بلاد المغرب. (١)

كانت بلاد خراسان التي وليها علي بن عيسى بن ماهان. مصدر الفتن و
القتال في عهد هارون الرشيد، فقد سار هذا الوالي على سياسة تنطوي على الظلم
والعسف واغتصاب الأموال من الأهالي. وأرسل كبار رجال خراسان إلى الرشيد
يشكرون إليه من تصرفات هذا الوالي، فخرج إليه الرشيد بجيشه ولكن الوالي
قابله بهدايا ثمينة، فعاد الرشيد، واستمر هذا الوالي في ظلمه وجبروته، حتى
انتهى الحال بقيام ثورة عنيفة ضده في خراسان، هجم الأهالي خلالها على قصره
واستولوا على ما فيه، ولا بلغ الرشيد ذلك، أرسل إليه القائد هرقمة بن
أعين، فقبض عليه هو وأتباعه وصادر أموالهم. وبعث بهم إلى الرشيد، و
هدأت الفتنة في خراسان واستقرت الأحوال.

البرامكة. بعد خالد بن برمك من شاركوا في بناء الدولة العباسية عتبه
السلطان وزيره ثم ولده المنصور على طبرستان فتح الموصل، وكان حسن التدبير
يصرف الأمور بحكمة وروية.

وظهر من بعده يحيى بن برمك الذي تولى في زمن المهدي تربية
ابنه هارون^(٢)، وقويت الصلة بين هارون ويحيى، حتى كان الرشيد يناديه و
هو خليفة «يا أباي» وتولى الوزارة في عهد الرشيد، واستعان في تصريف
شئون الدولة بأبنائه الأربعة: الفضل، وجعفر، وصالح، وموسى، وإن

(١) التاريخ الإسلامي العام

كانت مكانة الفضل وجعفر ومقدرتهما الإدارية قد نأقت مكانة ومقدرة محمد موسى.

وفي عهد جعفر بن يحيى قبض البرامكة على أمور الحكم، وصار بيدهم الدخل والخروج بذلك سيطرت الأسرة البرمكية على الدولة العباسية سياسيا واقتصاديا وإداريا وأدبيا، وأصبحت مقعد العلماء والشعراء والأدباء، وتجمعت الوفود على أبوابهم أكثر من وقوفهم على باب الخليفة، لما عرفت عنهم من الجود والكرم والحاسة في النهوض بالعلوم وترقية المعارف^(١).

فيل إن استبداد البرامكة بالملك وجعلهم الأمراء استمال الناس إليهم مما أوجر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم، وساعد اشغال نار العداوة والبغضاء سعاية الفضل بن الربيع وكراصة زبيدة أم الأمين للبرامكة على أن أنهم عامل أفاض المرءون في القول عن أخصيته في حدوث نكبة البرامكة ما قيل عن وجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين العباسية أخته الرشيد، ويمكن القول أن مثل هذه الحادثة لا يمكن أن تؤدي إلى الفشل بالأسرة كلها ومنع الشعراء من رثائهم ومصادر أموالها. فقد كان السبب الرئيسي في نكبة البرامكة هو نفوذهم الذي بالغوه في الدولة، وتحدث عنه الشعراء والكتاب، فقد كان نفوذهم غير محدود واستشار بالأمر إلى درجة أخافت الخليفة، ولذا أعرض عنهم الرشيد وحسب في معاملتهم^(٢) وتبعهم

بالتشريد والتفتيش، نقض عليهم بعد العز ونصرة الأيام وتشردوا بعد اجتماع
الشمل وعظمة الملك.

في عهد الرشيد برأت ظاهرة التجزؤ وهي محاولة بعض الولايات الخاضعة
للدولة العباسية الإستقلال بالسلطة والنفوذ عن بغداد. وكانت دولة
الرشيد كما يقول ابن طباطبا: من أحسن الدول وأكثرها وقاراً وروفاً وخيراً
وأوسعها رقعة مملكة، جبي الرشيد معظم الدنيا، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء
والشعراء والفقهاء والقضاة والكتاب والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد^(١) وكان
يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة.

بلغت بغداد في عهده درجة عالية من الحضارة والعمران، فبنيت فيها القصور
الشاهقة، وزادت موارد ثروتها، وكانت تصل إليها التجارة من أقصى البلدان
وكانت الخزائن تفيض بالأنوال التي كانت تجبي من الضرائب حتى بلغت ما يقرب
من اثنين وسبعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية كانت تؤخذ مما تنتجه
الأرض من الحبوب، حتى إن الرشيد كان يقول وينظر إلى السحابة المارة: إذهبي
حيث شئت يا تين غراجه. وإن أيام الرشيد كانت - كما يقول السيوطي - كلها
أيام خير كأنها في حسنها أعمر أسيراً^(٢)

عهد الرشيد بالخلافة لأبنائه الأئمين ثم الأمون ثم المؤمن وكتب بذلك صحيفة وعلقت
في الكعبة. ثم في هارون بعد مرض في أثناء خروجه إلى خراسان لقتال رافع بن الليث
وذلك في جمادى الآخرة سنة ١٩٢ هـ، ودفن بها ولم تنقل جثته إلى بغداد.

٤- الأمين (١٩٣- ١٩٨٨هـ)

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠هـ وهي السنة التي ولى فيها أبوه الرشيد الخلافة.

كان عهد الأمين مليئاً بالفتن والإضطرابات، وفي الوقت الذي قامت هذه الفتنة بينه وبين أخيه المأمون. ظل الأمين خليفة بالإسم دون الفعل مدة خمس سنوات لأن سلطته لم تكن تامة على جميع الأقاليم الدولة الإسلامية. ووقع منذ اعتلائه العرش، الخلاف بينه وبين أخيه المأمون، ووجدت الدولة نفسها أمام فتنة داخلية صدرت وحدة الخلافة، وكشفت عن دور من أدوار النزاع بين العرب والفرس.

بدأ النزاع بين الأخوين حين حاول الأمين خلع المأمون عن الخلافة فقد أمر بأن يدعى لإبنه موسى^(١) كما يلي الخلافة قبل المأمون والمؤمن. ولما بلغ ذلك المأمون طلع صلبه بأخيه، فبعث الأمين رسلاً تطلب إلى المأمون الرجوع إلى بغداد وأن يقدم موسى على نفسه في الخلافة، ولكن المأمون رفض العودة إلى بغداد أو تقديم موسى على نفسه، فبايع الأمين لولده ونهى عن ذكر المأمون والمؤمن على المنابر، وأحضر الوثائق الرسمية التي كتبها الرشيد وأودعها الكعبة بترتيب ولاية العهد من بعده ومن قبلها.

ولا تخرجت الأمور بين الأمين والمأمون على هذا النحو، فبعد المأمون إلى قائد به هزيمة بن أعين وظاهر بن الحسين، وعهد الأمين إلى قائده علي بن عيسى ودارت الحرب بينهما، فانتصر جيش المأمون في وقعة الرى وقتل علي بن عيسى وهزمت

جيش الأتراك التي كان قد وجهها إلى خراسان وأخذت البيعة للمأمون في ذلك
الإقليم. ثم حاصر حرثة بن أمين الجانب الشرقي من بغداد وظاهر بن الحسين الجانب الغربي
منها، فاستولى ظاهر بن الحسين على بعض أحياء مدينة بغداد وعلى أسواق الكرخ
وقصر الخلد (١).

ورغم ذلك لم يقدر الأتراك الظروف السيئة التي أحاطت به وبدولته،
فقد استمر في عبثه ولجهوه، واعتمد قواده في الوقت الذي صمم فيه ظاهر على فتح
بغداد حيث قتل وأرسلت رأسه إلى المأمون الذي حزن لقتل أخيه، ولم يعمر الأتراك
طويلاً، فقد قتل بعد أن جلس على عرش الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر
 وخمسة أيام وذلك في سنة ١٩٨ هـ، وكان في الثامنة والعشرين من عمره.

روى السيوطي عن اسحق الموصلي قال: اجتمعت في الأتراك خصائل لم تكن في
غيره: كان أحسن الناس وجهاً وأسخاهم، وأشرف الخلفاء أباً وأماً، حسن الأدب
عالماً بالشعر، لكن غلب عليه الهوى واللعب. وكان يحس سخائه بالمال بخيل
بالطعام جداً، وكان يجيد الشعر يميل إلى اللهو واللعب والتبذير وبني مجالس للشعر (٢).

٧ - المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ)

عصر المأمون من العصور الإسلامية الزاهرة، ولم يكن المأمون
شخصية سياسية بقدر ما هو شخصية أدبية. فقد شجع النهضة العلمية وحرية الفكر
ودفع حركة النقل والترجمة إلى الأمام، ولكنه كسياسي أجهل تحت سيطرة الفرس

الذي بن نصره في نزاعه مع أخيه الحسين .

بويج المأمون بالخلافة وهو في الرمي ، وظل بخراسان حتى قدم بغداد في منتصف شهر صفر سنة ٢٠٤ هـ .

مال المأمون أول الأمر إلى العلويين واتخذ شعارهم . وصاهر عليا الرضا وولاه عهده . وأنزل العلويين منازل العز والكرام وظل على ذلك حتى غزم على المسير إلى بغداد وأراد المأمون نقل الخلافة إلى أبي علي وأن يجعلها في رجل يصلح لها لتبرأ منه فاعتبر أحوال أعيان البيت العباسي والبيت العلوي فلم ير فيها أصلي ولا أفضل ولا أروع من علي بن موسى الرضا ، فعهد إليه بذلك كتاباً بخطه وأكرمه الرضا بذلك فامتنع ، ثم أجاب ووضح خطه في ظاهر كتاب المأمون . فلما سمع العباسيون ببغداد ما فعل المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي أنكروا ذلك وخلعوا المأمون من الخلافة غضباً من فعله وبايعوا عهده إبراهيم بن المهدي ، في أيام كانت الفتن ومنازع الحرب بالغة مبلغها ، فلما بلغ المأمون ذلك ورأس إنكار الناس ببغداد لما فعله ، كتب إلى أبي العباس يقول لهم : إن الذي أنكروا مني من أمر علي بن موسى ، قد زال وأن الرجل مات . فاجابوه أغلظ جواباً ، ثم سار المأمون إلى بغداد فوصلها ، وقد هرب إبراهيم بن المهدي ، وظل إبراهيم مختفياً ثماني سنوات ثم شفع فيه لدى المأمون وعاد إلى الظهور ، فلما دخل المأمون البلدة تلقاه العباسيون وكلموه في ترك لباس الخضر والعود إلى السواد فاجابهم إلى ذلك بعد أن أمرهم بلبس الخضر (١)

وخرج على المأمون محمد بن جعفر الصادق بمكة ولبوع بالخلافة وسهوه
أكبر المؤمنين، فأرسل المأمون إليه عسكرياً فكانت الغلبة له وظفر به المأمون و
عذابه. وخرج على المأمون أيضاً نصر بن شبث، وكان عربياً شريفاً يصل إلى محمد بن
نعمان مثل الأمين غضب، ولا سيما لما رأى العنصر العربي قد انحط شأنه وصار عظم
العداوة والأضرار من غيرهم، فأظهر الخروج على السلطان وتغلب على ما جاوره
من البلاد التي كان يسكنها وهي يكسوم شمالى حلب، واجتمع عليه خلق كثير من
الأعراب وأهل الطبع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي.

ولما علم المأمون بذلك أرسل طاهر بن الحسين إلى محاربة نصر بن شبث و
يدعوه إلى الطاعة وترك الخلاف فلم يجب، فتقدم إليه طاهر ولقيه بنواحي
يكسوم فاقترلا هناك قتالاً عظيماً، كان النصر حليف نصر مما قوى أمره فكثرت
جمعه، ثم كتب طاهر إلى ابنه عبد الله وأمره أن يسير إلى محاربة نصر، فضيق عليه
حتى مال إلى طلب الأمان، فكتب له المأمون كتاباً، أمان، بوجه بنصر إلى المأمون (١)
أرسل المأمون إلى محاربة بابك قواداً فخاربه وقتلوا جميعاً كثيراً من كان
معه، وأوصى المأمون أخاه العنصم حين أدركته المنية أن يحارب بابك ويكسر
شوكته.

كان عصر المأمون من أزهى عصور العلم في الدولة العباسية، لميل المأمون
نفسه إلى تحصيل العلم والمعارف ونشر المعارفة بين أفراد الأمة الإسلامية، و
قد تجلّى ذلك في إيراد «بيت الحكمة» في بغداد الذي وضع أساسه الرشيد بالكتب

في مختلف العلوم والفنون ، مما جلبه من بلاد الهند والروم والفرس وغيرها حتى أصبح أشهر جامعة علمية ، تحوى داراً للكتب يجتمع فيه العلماء للترجمة والتأليف والدرس . وكان المأمون مثقفاً ثقافة فارسية . لأن أمه كانت فارسية ، وكان يميل إلى حرية الفكر والبحث مما دفعه إلى إيجاد " مجالس المناظرة " حتى يتمكن عن طريقها من إزالة الخلاف بين العلماء فيما يدعون به من آراء علمية .^(١)

اشتغل الناس في عهد المأمون بعلوم الدين والحديث وظهر المجتهدون الذين يحاولون تفسير ما هو محل الاختلاف ، واجتهد المأمون في بحث مسألة القرآن وخلقها ، وعقد لهذا الغرض مجالس للمناظرة ، يناقش فيها في حضرة العلماء والقضاة والمحدثين وكثير الجدل والنقاش في هذه المسألة ، وظهر في عهده جماعة من كبار العلماء على رأسهم ابن الهزول وابن سيار والمجاط وغيرهم من رؤساء الاعتزال ، وهؤلاء تعصبوا في بحث مسألة خلق القرآن ليصلوا هل هو قديم أو حادث ، وليثبتوا أن ما وصل إليه المأمون من أن القرآن مخلوق هو الصحيح ، وتناولوا بالبحث صفات المسجاة ^{تعالى} ووصلوا إليها وصلوا إليه أن الله لا يرى جبهة يوم القيامة .^(٢)

ونحن المأمون بالبلاد نهضة علمية جدير بالتقدير والإعجاب ، فقد إهتم بحركة الترجمة من اللغات الأخرى وخاصة اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية . وقويت تلك الحركة بفضل تشجيعه للعلم وبما بذله من الأموال الضخمة في هذا السبيل . وأرسل لذلك البعث إلى القسطنطينية لنقل ما فيها من الكتب إلى العربية . ورحل كثير من العلماء إلى بلاد الدولة البيزنطية

ومن بينهم حنين بن إسحق، ما حضروا الكتب الفريدة في الهندسة والموسيقى والطب، وبعث المأمون في طلب كتاب أرسطاطاليس في الفلسفة على وجه السرعة، وسمن مهران بن العطار في عصر المأمون في الترجمة إلى العربية: بختيشوع، والحجاج بن مطر وثابت بن قرة، ووجد بين العرب أنفسهم كثير من العلماء ألفوا كتباً هامة في العلوم الفلسفية، وعلى رأسهم، الكندي، وهذا في تأليفه هذا أرسطو، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح ما فيها من النقط الغامضة.

توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ في شمال مدينة طوس بالحلي، وذبح في أثنائه لفتح القسطنطينية، وهو في الثامنة والأربعين من عمره، بعد حياة حافلة بجلال الأعمال، فقد كان أديباً، عالماً، شجع العلم وحرب الأدباء، وأعزق عليهم الهبات حتى عد عصره من عصور الأدب الزاهرة في الإسلام.

١ - المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ)

بدرج أبو إسحق محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ هـ وهو في غزوة الأخيرة لبلاد الروم، ورفض الجند أن يقدموا له الطاعة في مبدأ الأمر وأرادوا تولية العباس بن المأمون، ولكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لرصيته أبيه فحذا الجيش حذوه بعد ذلك.

سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون، في حمل الناس على القول بخلق القرآن نقداً لآله المأمون قبل وفاته بقوله: "يا أبا إسحق ادن مني واقطع بما ترى وخذ بسيرة"

أخذه في القرآن، وزاد على ذلك أن الحق الأذى بكل من يعترف بغير ذلك من العلماء وأهل الرأي، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه (١) وأصبح كل عالم أو فاضل هذا لأن يضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأى المعتزلة في القول بخلق القرآن.

خرج على المعتصم محمد بن الناعم بن عمر بن علي بن الحسين، وكان قد علم أن الخليفة يضره الشر ورحل عن الكوفة إلى خراسان حيث انضم إليه خلق كثير، وحارب جيوش الخليفة في عدة مواقع إلا أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان قبض عليه وأرسله إلى المعتصم فحبسه في سائر حتى مات.

وفي عهده ظهرت بجلاء خطورة الحركة التي قادها منذ عهد المأمون، بآب الخزي الذي اعتصم بالآمال المجهلية الشمالية الشرقية، فقد ادعى بآب أن روح جاريان قد حلت فيه، وجاريان كان زعيماً نسب إليه أتباعه صفات الأكرهية، وزاد بآب على ذلك أن نشر ببادي الإباحية وأخذ في العبث والفساد وجنى إلى الرعيشة والفوضى وكلها من تعاليم المجوس، ولكن المعتصم دنع كل قوات الدولة للقضاء على بآب، و عهد بآب إلى الإغشين قائد الخليفة الذي حاصره مدة طويلة في مكانه، فقبض عليه وسبق إلى سائر، حيث لاقاه المعتصم هو ومن حل معه من الأسرى، تسلى بآب أشنع قتلة وطيف برأسه في الأوطار ليكون عظة لمن يحاول أن يقوم بمثل حركته (٢) وغز المعتصم عمورية وسبب هذه الغزوة أن ملك الروم خرج إلى بلاد المسلمين

(١) كان لتسديد ابن حنبل أحد كبار المحدثين برأيه في القرآن، وقوله إنه كلام الله، فلا هو قديم ولا

مخلوق، أكبر الأثر في علو شأنه بين الناس واحترام العلماء والمحدثين له. واضطر المعتصم بعد أن

كان قد أمر بحبسه أن يفرج عنه وليسترضيه للرأي العام -

فنهب حصناً من حصونهم يقال له "بطوة" ومثل من به من الرجل وسبي الذرية والنساء
ويقال يرثه كان في جملة السبي امرأة هاشمية، نسبت وهي تقول: واعتصماه، فبلغ
المعظم ما فعله ملك الروم بالمسلمين فاستعظمه وكبر عليه وبلغه ما قالت الهاشمية
نقال: وهو في مجلسه، لبيلك لبيلك، ونحضر من ساعته وصاح في قصر الرجل
الرجل، ثم ركب راحته وأمر العساكر بالتجهز، فسار بجيش مجزر، نظف ببعض
الروم فسأله عن أحسن مدغم وأعظمها وأعزها عندهم، فقال له الروم: إن غورية
هي عين بلادهم فتوجه المعظم إليها وحاصرها، ثم فتحها ودخل إليها وقتل وسبي وأسروا
وبالغ في ذلك حتى هدم غورية (١)

إعتمد المعظم لأول مرة في تاريخ العباسيين اعتماداً كلياً على الأتراك، بعد
أن كان اعتماد من سبقه من الخلفاء على الفرس، ولا يجب في ذلك إذ كانت أمه تركية؛
فأسقط العرب من ديوان العطاء وأهل العنصر العربي والفارسي معاً، وأسند إلى الأتراك
مناصب الدولة، وكان المعظم يرى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش
قوي فاستكثر من الأتراك، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق في بلاد ماوراء النهر، فلاحم
حراسة قصره وأسند إليهم أعلى المناصب، ومثلهم الولايات الكبيرة، وآثرهم على الفرس
والعرب في كل شيء.

أخذ هؤلاء الأتراك الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم، يندمجون في
طبقات الأُمراء المثقفين: فتعلموا العربية ووقفوا على أحكام القرآن ودنوا بالإسلام
ودرسوا العلوم والآداب وكان كل من يصل منهم إلى مرتبة خاصة من التهذيب و

التشقيف يتولى المنصب الذي يتناسب مع كفايته ومواهبه، ومن ثم تمكن كثير منهم من الوصول إلى أعلى المراتب، فاندمجوا في سلك البلاط وتقلدوا ولاية الإمارات، وعظم نفوذهم واشتد حتى أصبح في أيديهم تولية الخليفة وعزله أو حبسه ونفيه أو قتله^(١) وكانت نتيجة إهمال المعتمد للعرب واستعانة بالأتراك وإزالة العطاء لهم دون غيرهم، أن دب في نفوس العرب دبيب الغيرة والحسد، وحمام بحيف القائد العربي بشورة على قواد الترك الذين آسأوا وعاملوا العرب على غرم على التخلص من المعتمد نفسه. وثار العرب على المعتمد في بلاد الشام كما أثار الأكراد الفتنه ضد في الموصل ولكن هذه الثورات بأت بالفشل في مهدها، على أن المعتمد بعد أن تمكن من إخماد قواد العرب والفرس تدريجاً وأسقطهم من ديار العطاء ووقع في أيدي الأتراك^(٢) وهؤلاء كانت الرغبة في انتزاع السلطة من الخليفة قد تغلبت على أنفسهم. وبعد عهد خلافة المعتمد خلافة الراحل من بعده، فترة انتقال إلى الحكم الأتراك الفعلي في بغداد، وسultan الخلفاء الإسمي منذ وفاة الراحل والضح بجلاء في العصر العباسي الثاني خطر اعتماد العباسيين على الأتراك.

توفي المعتمد في ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ، وهو نفس الشهر الذي مات فيه الإمبراطور البيزنطي، ثيو فليس "عدوه القديم". والمعتمد من شخصيات العباسيين الجليلة تتمثل فيه روح الجندية، فقد كان من أبرز صفاته: الصراحة وحب البساطة. وظهرت قدرته الحربية في قضاؤه على الخرمية، و على من بار والإغشين، وعلى البيزنطيين وتغلبت عليه الصفة الحربية حتى اشتهر بها.

٩- الوثائق بالام (٢٢٧- ٢٢٢٢)

ولي أبو جعفر هارون الوثائق بالام بعد أبيه الحظم، وكانت أمه رومية، وشارك أباه في ميوله وآرائه الفلسفية وزاد عليه. وكانت تشوب إدارته مظاهر الضعف أحيانا والإستبداد أخرى، فقد أشد على كتاب الدواوين عين تبين له تفشي الرشوة والفساد بينهم.

وفي عهده استمرت الحروب بين العباسيين والبيزنطيين وسببها وجود جماعة من النصارى المتخفين في آسيا الصغرى لا يرون عبادة الصور فكانوا لذلك محل الإضطهاد الحكومة البيزنطية، وهؤلاء ماتوا مع جند العباسيين ضد الروم، وانتهى الأمر بهزيمة الإمبراطور البيزنطي ميثيل الرابع هزيمة شائنة في عهد المتوكل الذي خلف الوثائق على عرش الخلافة^(١).

غلا الوثائق في نشر آرائه الدينية الخاصة بمسألة خلق القرآن، جرياً على السياسة التي سار عليها أبوه، فأثار غمطاً أهل بغداد مما دعاهم إلى التآمر على حياته وعلى حكمته. وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساطنين الذين أنكروا القول بخلق القرآن، وحلوا على الوثائق حملة شعواء ودعوا إلى عزله والتف حولهم كثير من أنصاره.

وعقب ذلك قبض على أحمد بن نصر وأعمانه وسبقوا إلى الوثائق في ساحة قاعدة الخلافة حيث ضرب عنق أحمد بن نصر.

كان الوثائق يعطف على أهل بيته ويفقد أحوال الرعاية، أفرد في قصره مكاناً للمناظرة والمجدل، ولذا أطلق عليه «المأمون الأصغر»، وشغف بالوقوف

على آراء العلماء ونجح في عصره "المكذبي" فيلسوف العرب، وحسين بن اسحق في الطب^ص كتاب المسائل الطبيعية^ص واليعقوبي والبلاذري وأبو حنيفة الدينوري وهم من فطاحل الورعين وكان الواقفي يتقن فن الغناء والموسيقى إتناثا لم يسبقه إليه خليفة أو ابن خليفة وقد وضع بعض الأصوات والإنغام الجديدة^(١).

حكيم الواقفي الدولة العباسية أقل من ست سنين، ولم يول عصره أحداً وسئل في مرض الموت أن يوصي بالخلافة لولده فلم يقبل، وقال: لا أتحمل أمركم حياً وميتاً، وتوفي سنة ٢٣٢هـ، بعد أن أثار غواهر الأهالي، لتقصده بهذه البركة الدينية. وتوغل العصر التركي في الإدارة الحكومية وكان ذلك من أقوى عوامل انحطاط الدولة العباسية^ص طحاخي الثانية.

عصر سيطرة الأتراك. كان الخليفة في هذه الفترة من العصر العباسي الثاني، كالأسير في يد الأتراك إن شاء أبقوه أو خلعه أو قتلوه ولذلك كان الخلفاء العباسيون ضعافاً ليس لهم نفوذ ولا سلطان، ويتوقف بقاؤهم في الخلافة على مقدار رضا الأتراك عنهم وكانت عهد الخلفاء في تلك الفترة عهد الفتن وتلاطم واضطرابات.

وقد ترك النساء يتدخلن في أمور الدولة ويصرن شئونها، وكانوا يرجعون إلى أمهاتهن ويأخذون بأرائهن، ومن نساء العصر العباسي الثاني، من كانت لهن السطوة على أولادهن من الخلفاء حتى كن يشرفن على شئون الدولة ويشركن في تدبير أمور الحكم، وكان لهن أكبر الأثر في سير الحوادث في بغداد.

(٢٣٢ - ٢٤٧ هـ)

١ - المتوكل على الله

تولى الخلافة بعد أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ، كان المتوكل

شديد الكره لآل علي لأن جماعة اشتبهوا ببغض علي، فكانوا يحملون المتوكل على التهمة بجمع^(١)

ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر بهدم قبر الحسين بن علي بكر بلا، وهدم ما حوله من

المازل والدور ليمنع الناس من إتيانه.

وفي سنة ٢٣٨ هـ، أغار الروم على مصر من جهة دمياط، وكان أمير مصر قد أمر

هابيها أن يحضروا إليه بالفسطاط، فلما جاورهم الروم براكبهم لم يجدوا بها حامية،

فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيرا من نساء المسلمين وأهل

الزينة وأخذوا ما وصلت إليه أيديهم من المغاني ثم عادوا إلى بلادهم.

وفي عهده خرجت الروم حتى ما لبوا أن أمدا ما شتهوا عدة قرى وأسروا عددا

عظيما من الأهليين ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم.

وجبه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم فغزا الصائفة وافتتح صهلبة في سنة ٢٤٤ هـ.

ويظهر أن المتوكل كان يروم نقل الخلافة إلى الشام، ويجعل العرب عمادها وأعوانها

تبرما بالترك وكثرة ما أحدثوا في الدولة من فوضى وإفساد للشؤون العامة، حتى

ضاقت بهم أهالي العراق ولم ينح الخلفاء من شرهم.

ومن الآفات الطبيعية التي وقعت في عهد المتوكل صوب عاصفة شديدة على

بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من مدن العراق، فاحترق الزرع والماشية، وانقطعت المواد

الغذائية عن الأسواق في بغداد وغيرها، فانتشرت المجاعة وهلك كثير من الناس.

كان يميل إلى أهل السنة ويعمل على نصرتهم، وضرب بالسياط رجلاً سب
أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم. وقد بدأ حكمه بنهي الناس عن القول بخلق القرآن
الذي شغل الدولة العباسية في عهد المأمون والمعتصم والواثق. ذكر المسعودي أن
المعتكف أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم
والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيعة المحدثين بالتحديث وإظهار السنة
والجماعة^(١)، وكتب بذلك إلى الأوصار الإسلامية، وكان لعله هذا أثر حسن في نفوس المسلمين
فأولوه إحترامهم وبالفوا في تعظيمه وإثناء عليه، حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة:
أبو بكر الصديق يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز في رده الظالم، والمعتكف في إحياء السنة^(٢).
ولم تكن قلوب كبار الأتراك مطمئنة إلى المعتكف واستعانوا بإبنه المنتصر، فدخلوا
القصر وسبواهم مسلولة، والمعتكف قد أخذ منه الشراب، فابتدره أحداهم بغربة وثني
عليه بأخرى كانت القاضية، وكان قتله سنة ٢٤٧ هـ. وكانت الحادثة أول ثمره لتقس
المعتصم.

١١- المنتصر بالله. (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ)

بويح للمنتصر بالخلافة في الليلة التي قتل فيها أبوه المعتكف
وبقتل المعتكف زادت الأتراك قوة في الدولة على قوتهم لأن أيديهم امتدت إلى
حياة الخلفاء، فانشبوا أظفارهم بذلك في جرح الدولة.
كان المنتصر بخلاف أبيه يحسن إلى العلويين فأزال عنهم ما كانوا فيه من

الخوف و سيج لهم بزيادة قبر الحسينؑ

وعلى الرغم من أن المنتصر كان يحطف على الأتراك قبل قتل أبيه، لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول: "هؤلاء قتلة الخلفاء" ففكروا بدورهم في قتله، وانغروا بطييب ابن طيفور واعطوه ثلاثين ألف دينار. فمات مسهوماً في ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤١هـ. وقيل لما ولي الخلافة أخذت نفسه قوبخه وقرعته على عمله حتى استقيم ذلك بدينه وأزل نفسه فحمضها ت.

١٢- المستعين بالله (٢٤١ - ٢٥٢هـ)

ولامات المنتصر اجتمع الأمراء وأكابر الماليد وتشاروا فيمن يولونه الخلافة بعده، واجتمعوا رأيهم على تولية أحمد بن محمد المعتصم، وبايعوه ولقب "المستعين بالله". لأن العباسيين لم يؤمنوا بجانب الأتراك فعملوا على تولية الخلافة من يطمئنون إليه من أمراء البيت العباسي، فلم يولوا أحداً من أولاد المتوكل، حتى لا يثار منهم لقتل أبيه المتوكل وسم أخيه المنتصر (١)

خرج على المستعين يحيى بن عمر بن الحسين بالكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها، فأرسل المستعين إلى محاربته محمد بن عبد الله بن طاهر فخاربه وبعد وبعثت دارت بين الطرفين قتل يحيى، وأرسل رأسه إلى المستعين بسامرا وانتهزم جنده. وخرج عليه الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بنو احي طبرستان، وقد نجح الحسن في تكوين دولة تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقطع من بلد بن العباس أو آل طاهر طرفاً عظيماً تحميهم عبال طبرستان والديلم (٢)

يقول صاحب الفخرى: «واعلم أن المستعين كان مستضعفا في رأيه وعقله وتدريبه، وكانت أيامه كثيرة الفتن وحوادثه شديدة الاضطراب»^(١) ولما رأى الأتراك تنكر المستعين لهم خلعه وابعوا ابن عمه المعتز بن المتوكل، ولم يكف الأتراك بعزل المستعين ونفيه إلى واسط، بل قتلوه.

١٣- المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ)

بويح المعتز محمد بن المتوكل بالخلافة بعد أن خلع الأتراك المستعين، لأن أمر تنصيب الخليفة وخلعه كان بيد الأتراك. قال صاحب الفخرى: إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاءوا خلعه وإن شاءوا قتلوه^(٢). وليس أدل على مدى تغلغل الأتراك في أمور الدولة وتسلمتهم على حياة الخلفاء أنفسهم، من هذه العبارة، لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خراجه وأحضروا النخبين ومالوا لهم: انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة، وكان بالجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلاته فقالوا كم تقول إنه يعيش وكم يملك؟ قال مهما أراد الأتراك فلم يبق بالجلس إلا من ضحك.

وفي عهده ظهر يعقوب بن الليث الصغار واستولى على فارس وجمع جموعا كثيرة ولم يقدر المعتز على مقاومتهم. وأخيرا ثار الأتراك على المعتز وطلبوا

منه مالا خاعذرا ليعلم وقال ليس في الخزان شيئا ، ما تفقوا على خلعه وقتله
وتم لهم ما أرادوا .

١٤ - المهتدي بالمال (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ)

بعد وفاة العترة ، ولي المهتدي بن الواثق الخلافة ، وكان
من أحسن الخلفاء سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة ، وكان يقتضيه لعمري بن عبد العزيز
ويقول : « إنني استحي أن يكون في بني أمية مثله ، ولا يكون مثله في بني العباس » (١)
وكان يجلس للمظالم ، فيحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم . وكان كثيره من الخلفاء
الذين جاؤا بعد المتوكل الكعوبية في يد الأتراك .

وتغير الجند في زمن المهتدي على قوادهم الذين قطعوا ضياعا كثيرة ولم يلتفتوا
إلى إصلاحها ، فخربت وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به
حاجة الجند ، وكانت هذه الشكوى بدأ انقلاب جديد لوجودت خليفة قويا ينتفع بها (٢)
نعم ! لقد أصبح الخليفة العباسي في ذلك العصر الكعوبية في أيدي هؤلاء الجند
الذين كانوا تحت إمرة موسى بن بغا ، ولكن المهتدي اتخذ من هذا الضعف قوة لأخذ
النار . وكيف يتأثر لنفسه ولا جيش يحميه ؟ لقد لجأ إلى الحيلة والدهاء وحاول
أن يستميل إليه "باكباك" أحد قواد الجيش ، فطلب إليه أن يقدم بقتل موسى
بن بغا ، على أن يؤمره على الجيش من بعده . ولكن باكباك لم يثق بالخليفة و
وعوده ، وسار إلى موسى وعرض عليه الكتاب ، وانفعا منها بينهما على أن يسير

(١) التاريخ الإسلامي العام . ٤٢٤

(٢) العالم الإسلامي . ٢٦١ / ٢

بأكبار إلى المهدي مظاهرا بالإخلاص له حتى يدبر قتله (١).

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة على أثر قتله بعض اللواتي
نثاروا عليه، ثم أسروه وقلعوه ولم يكتفوا بذلك بل عذبوه حتى مات في رجب
سنة ٢٥٤ هـ. وقد وصف السعدي الخليفة المهدي .. «أمر بالمعروف ونهى عن المنكر
وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع
ويخطب الناس ويؤم بهم، فتقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على
الطريق الواضحة، فاستطاعوا خلافة وسموا أيامه وعلموا الحيلة حتى قتلوه (٢)»
١٥- المعتد على الله - (٢٥٤ - ٢٧٩ هـ)

هو المعتد، فقد اعتلى العرش على أيدي الأتراك الذين
أخرجوه من «الجوسق» الذي حبسه في المهدي، وكان كما يقول السيوطي - أول
خليفة قهر وحجر عليه ووكّل به (٣).
وكان المعتد مستضعفا، وكان أخوه الموفق طامحة الناصر الغالب على
أمره. ولا غرو فقد شغل أخوه الموفق يده عن مباشرة أمور الدولة، حتى
أصبح يسلب الإرادة، وكانت دولته دولة مجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق
كالشريكين في الخلافة: للمعتد الخطبة والسكة والتسبي بأمرة المؤمنين، ولأخيه
طامة الأمر والنهي، وقيادة العساكر، وحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور وترتيب

الوزراء والأمراء، وكان المعتد مشغولاً عن ذلك بلذاته. ^(١) ويقول السيوطي «والمعتد
المعتد في الله والذات واشتغل عن الرعية، فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة» ^(٢)
ولما ولي المعتد الخلافة صانع الأثران وخاصة ما تدفع موسى بن بغا وبغاي في إكرامه
فأرسله في سنة ٢٥٩م لقتال صاحب الزنج وشيعه إلى خارج مدينة سامرا وخلع عليه.
وقد وقع في عهده الخليفة المعتد أحداث صامتة كان لها أثر كبير في تاريخ الدولة
العباسية: أهمها ثورة الزنج واختفاء الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الإثنا
عشرية وتأسيس طائفة الإسماعيلية التي تنسب إلى اسماعيل بن جعفر الصادق.
لانت أيام المعتد أيام محن وخطوب، ذكر ابن الأثير: أن الحرب اشتعلت في أوائل سنة
٢٧٨م، بين أصحاب وصف الخادم والبربر وغيرهم وأنه قتل جماعة كبيرة من الفريقين ^(٣)
وفي هذه السنة توفي أبو أحمد الموفق بعد أن أعياه النقرس الذي ألم به وهو بلاد الجبل
ووصل إلى داره فمات. ولما توفي الموفق اجتمع القواد من الأثران وبايعوا أبا العباس
بن الموفق بعد الفوضى بن المعتد. ولقبوه «المعتد بالله» وتحولت إليه سلطة أبيه
فضعف أمر الخليفة المعتد فمات بعد أشهر فجأة حتى نواته الإشاعات بأنه سم. و
تدبى في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة كانت عهد فتن واضطرابات، على الرغم من ازدهار
عصره بطائفة من العلماء الأعلام: كالبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه
ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصري المشهور والقاضي بكار.

١٦- المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ)

ولى المعتضد الخلافة بعد وفاة عمه سنة ٢٧٩هـ. وقد أحسن المعتضد إلى آل علي وأخذ يشيد بفضله ويذم الأمويين، على أن بعض خاصته نصح له بأن يعدل عن هذه السياسة حتى لا يمهّد السبيل إلى رعاياه بالإنتفاضات ضد العلويين فتضيع هيبة العباسيين ويخرج الأمر من أيديهم.

وقد أقر المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب في الوزارة. وفي عهده خرج عمرو بن الليث الصغار أحد زعماء الصفارية واستولى على كثير من بلاد الفرس، كما ظهر في عهده القرامطة في الكوفة على يرحمّان قرط، وفي البحرين على يد أبي سعيد الجنابي وظهر ابن عوشب في بلاد اليمن حيث نشر الدعوة للمهدى، وأبو عبد الله الشيعي الذي نشر الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب، وكاظهر نصر بن أحمد الساماني مؤسس الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر (١).

وفي عهده انتعشت الخلافة العباسية وأحيما مدارس من أطلال الخلافة حتى أصبحت قوية مهيبة تخشاهم الدول، وكانت أيامه - كما يقول السيوطي - طيبة كثيرة الأمن والرخاء وكان قد أسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم من الرعية، كما كان ليسى السفاح الثاني لأنه جدد ملك بني عباس (٢).

وكان المعتضد وافر العقل شديد الوطأة قليل الرحمة. وكان عفيفا، مهيأ عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خروا منه -

(١) التاريخ الإسلامي العام . ٤٣٠

(٢) تاريخ الخلفاء . ٢٥٢

مات المعتضد والعهد من قبله مئة طبيعية بعكس الخلفاء الذين مات بهم الأتراك
وقد آلت الخلافة من بعد إلى ابنه أبي محمد الذي تلقب المكتفي بالله.

١٧- المكتفي بالله - (٢٨٩-٢٩٥هـ)

اعتلى المكتفي عرش الخلافة العباسية. وفي عهده انتكست البلاد
بعد أن أخذت تتعشش في عهد أبي أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد، فقد بدأت المناقشات
بين ذوي النفوذ من الدولة، فكان أحدهم يكيد للآخر شر كيد حتى يورده المهالك
من غير نظر في ذلك إلى تقضييه مصلحة الأمة. وزادت ظاهراً قسماً أجزاء من
أراضي الدولة العباسية فقد أصبح السامانيون أصحاب النفوذ المطلق في فارس
وقناتم شر القرامطة عدل بغداد والبصرة، وفي سوريا واليمن برعامة زكرويه
وألقوا العرب والغزخ في ملوب الأهليين. وذكر المؤرخون: أنهم هاجموا قواعل
الحجاج في عودتهم من مكة وقتلوا منهم عشرين ألفاً، ثم أزال نفوذ قرامطة
الشمال بقتله زكرويه سنة ٢٩٤هـ.

كان المكتفي حسن السيرة محبوباً عند الرعية. سار سيرة جميلة فأحبه الناس و
دعوا له، ولكنه كان مبذراً كثيراً البذل، وأنه هدم المظالم التي اتخذها أبوه لتنفذ
صيرها مساجد. ومن شأن المكتفي المسجد الجامع بالرحبة والتاج بالدار الشاطئية ببغداد.
ولم يعمر المكتفي في الخلافة فمات في شهر ذي الحجة سنة ٢٩٥هـ.

١٨- المقنن - (٢٩٥-٣٢٠هـ)

في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وهو العصر لم يكن في

أيدي العباسيين إلا العراق والجزيرة، ولم يكن الأمر في هذه البقاع بأيدي الخلفاء، بل كان السلطان للمتغلبين من القواد والكبراء، وحدث سنة ٢٣٢٤هـ. لقب أمير الأمراء بلقب به الخليفة الأمير المتغلب على دار الخلافة، حتى استولى بنو بويه على بغداد سنة ٢٣٣٤هـ. وبقى سلطانهم بها إلى سنة ٤٤٧هـ. (١)

ازداد ضعف الخليفة العباسي منذ أوائل القرن الرابع الهجري لزيادة شوكة القواد من الأتراك، وتفاقم خطر الدول المستقلة، فقد ازدادت شوكة علي بن بويه في فارس، وأصبحت الري وأصبهان وبلاد الجبل في يد أخيه الحسن بن بويه، كما استقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومصر، أما مصر والشام فقد استقل بهما محمد بن طنج. واستقل بخراسان نصر بن أحمد الساماني، ولم تكن الحالة في المغرب أحسن منها في الشرق. فقد أعلن عبد الرحمن الثالث الأموي بالأندلس (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) نفسه خليفة، وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله. أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافت في ذلك الوقت. العباسية في بغداد، والفاطمية في بلاد المغرب، والأموية في الأندلس. (٢)

كان فيه الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك وبنو بويه ثانيًا ثم السلاجقة أخيرًا. يتوقف بقا كل منهم على العرش حسب رغبة المسيطرين عليهم. وقد خلف الكوفي أخوه أبو الفضل جعفر بن العتضد الذي تلقب المقدر ويرجع السبب في اختياره إلى صغر سنه، إذ لم يتجاوز الثامنة عشرة، ليكون أساسًا

(١) ذكرى أبي الطيب بعد النعام. ٣

(٢) النظم الإسلامية. ٢١

ولكن القدر لم يلبث أن خلع و بويح عبد الله بن المعتز ولقب "الغالب بالله" إلا أن أتبع الخليفة المخلوع أعادوه إلى العرش.

وكان عهد القدر عهد فتن وقلق، فقد ترك النساء يتدخلن في أمور الدولة ويعرفن شؤونها، وكان الخلفاء يرجعون إلى أمهات المهن وما أخذون بأرائهن، ومن نساء العصر العباسي الثاني، من كانت لهن السطوة على أولادهن من الخلفاء حتى كن يشرفن على شؤون الدولة ويشركن في تدبير أمور الحكم، وكان لهن أكبر الأثر في سير المحادثات في بغداد. فقد ذكر ابن الأثير: أن هذا الخليفة "القدر" اشتهر بعزل وزرائه والقبض عليهم والرجوع إلى قول النساء والخدع والتصرف على مقتضى آرائهن (١) ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه التي يطلق عليها المؤرخون إسم "السيدة" إذ بلغ من ازدياد نفوذها، أنها كانت إذا غضبت هي قهرمانتها من أحد الوزراء كان مصيره العزل.

وليس هذا كل هذا ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين في سنة ٣٠٦ هـ قهرمانتها (٢) ثومال" صاحبة المظالم وبذلك تعدى الأمر جلوس الوزراء للمظالم إلى جلوس بعض النساء، إذ كانت ثومال تجلس في الرصانة وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، وتحضر القضاة الأعيان وتبرز القوامع وعليها خطها، وكان من أثر هذا التعيين أن اشتهر العامة بالخلافة ونظروا إلى أحكامها نظرة إحتقار وازدراء، ولم تكن محكمة المظالم تنظر في قضايا الأفراد وحدها، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعب عامة (٣).

(١) الكامل

٢٢٢/٦

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي

١٧١/٤

جرجي زيدان

(٣) التاريخ الإسلامي العام

٤٣٤

يقول الفخرى: "واعلم أن دولة المقدران دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه، وإستيلاء نسائه عليه فكانت دولة تدرر أمورها على تدبير النساء، فخربت الدنيا في أيامه وخلت بيوت الأموال، واختلفت الكلمة فخلع، ثم أعيد ثم قتل^(١) واستأثرت السيدة أم المقدر بنغوذ كبير في الدولة العباسية.

وفي عهد المقدر خرج عليه مؤنس الخادم أحد القواد في سنة ٤٣١٧هـ وأرغم الخليفة على الهرب و بايع هو وغيره من الأمراء محمد بن المعتضد ولقبوه القاهر بالله، وطلب الجند أركانهم في الوقت الذي قامت فيه الإحتلالات بتقليد الخليفة الجديد الخلافة، وحلوا المقدر على أسناتهم ورودوه إلى أدار الخلافة، وعزلوا القاهر بالله، فأخذ يبكي ويقول: اللهم الله في نفسي، فاستدناه المقدر وقبله وقال له: يا أخي أنت والله لا ذنب لك، والله لا جرى عليك من سوء أبداً.

وبدأت ظاهرة جديدة في عهد المقدر أيضا، هي كثرة تولية كبار الموظفين وعزلهم، حتى قيل إنه عين في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة، وأخذ من كل واحد منهم رشوة^(٢)، وساءت الأحوال في عهده، واضطربت أمور الدولة من جزاء السياسة التي اتبعها في تعيين وزرائه وعزلهم، فقد ولي الوزارة في عهده اثني عشر وزيرا وكان لكل وزير أتباع ومحاسيب يرتفع ذكرهم وتحسن أحوالهم بتولية الوزارة فإذا ما عزل عزلوا^(٣).

غير أنه لم يحض على عودته إلا قليلا حتى خرج عليه مؤنس مرة ثانية

سنة ٣٢٠هـ، وحارب به بجندة من البربر، وانتهى الأمر بقتل الخليفة^(١)، ودفن في الموضع الذي مات فيه في شوال سنة ٣٢٤هـ.

١٩- القاهري بالله (٣٢٠ - ٣٢٢هـ)

لبيع القاهرة بالخلافة، وفي عهده انتشرت الفتن الفتن الداخلية فلم تمض سنة واحدة حتى شغب عليه الجند، واتفق بعض كبار رجال دولته وقائده مدّلس ووزيره ابن مغلّة على خلعه وقد لية أحد أولاد المكشفي، فلما علم القاهر بذلك عول على التخلص منهم، ففجّهم عليه ثم حبس في دار السلطنة ومكّته في الحبس مدة إلّا أن مات في جمادى الأول سنة ٣٢٩هـ، وذلك في عهد الخليفة الطائع لله. وكان القاهرة تشتهر بالقسوة - وكان وصفه الصولي - كان أهوج سفاكاً محباً لجمع الأموال ردي السياسة، صادر جماعة من أسماء أولاد المقدر وصادر أم المقدر فعلقها برجل واحدة منكسة الرأس وعذبها بصفوف العذاب من الضرب والإهانة حتى ماتت بعد أيام قليلة^(٢)، وبكلمة أخرى قتل جمعا غفيرا. وكان قبيح السيرة كثير التلون والإستحالة، مدّ من الخمر ولولا عبودته حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل.

عصر إمرة الأمراء - كانت بلاد فارس وماجاورها بيئة صالحة لنمو

كثير من العناصر التي فاوت الخلافة العباسية، فقد قامت في هذه البلاد عدة دول كالظاهرية والصغارية والسامانية، كما قامت فيها أيضا دول أسسها رجال

من الديلمة من أمثال مالان بن كالي ومرداويج بن زيار، وأخيه وشكبير بن زيار
ثم قامت بينهما دولة بن بويه الذين استولوا على بغداد سنة ٢٢٤م، ثم دولة
السلجقة الذين استولوا عليها سنة ٤٤٧م^(١)

وفي سنة ٢٢٢م عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمي أحد قواد أسفار أمير
قزوين فطرد أسفاره واستولى على بلاده، ثم فتح الري وأصبهان، ولاقتل مرداويج
الديلمي على يد غلمانه خلفه أخوه وشكبير، على أن نفذه سرعان ما ضعف، وانتزع
منه كين الدولة بن بويه بلاد الري سنة ٣٣٠م. كما انتزع أبو علي بن محمد والي نهبين
أحمد الساماني على بلاد خراسان وبلاد طبرستان وجرجان، وفي مصر والشام
استقل محمد الاخشيد بن طنجي وهد من موالى آل طولون.

٢. - الراضى بالله (٢٢٢-٣٢٦م)

برج الراضى بالخلافة، فأخذت حال الدولة العباسية في
عمره تزيد إدارياً، اتكاساً واضطراباً، وكانت مدته تنازعات سياسية بين أرباب
السلطان، فكان كل منهم يريد أن تكون له إمارة الأُمراء ببغداد. والأعداء ينتقصون
كل يوم أطراف الخلافة حتى فقدت الهيبة ونفذ الكلمة^(٢)

استعان الراضى في إدارة شؤون دولته ببعض وزراء ضعاف كالفرج
يبدلون للخليفة كثيراً من لير نعمهم إلى المرتبة الوزراء، فاستوزر عبد الرحمن بن
عيسى، فظهر عجزه عن إدارة البلاد. وقتل الراضى أخاه الوزارة، فاختلت

أمر الدولة في عهد وزارته ، ولم يلبث أن استقال من منصبه ، فحل محله أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي وكان كثيره من الوزراء الذين سبقوه ، ضعيف الجانب ، لم يقم بأي عمل في سبيل إصلاح شؤون البلاد ، ولما رأى الخليفة الراضي أن الكرخي يحجز عن النهوض بأعباء الوزارة ، استوزر سليمان بن الحسن فتبخر هو أيضا عن إدارة شؤون البلاد لإزداد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة ، مما دعا الخليفة إلى استمالة ابن الرائق وسلم إليه مقاليد الأمور ولقبه «أمير الأمراء» نازدات مكانته عند الخليفة وعلت على مرتبة الوزير .

على أن نفوذ ابن الرائق لم يلبث أن ضعف سنة ٣٢٧ هـ من جراء مناشئة الأمراء له . وأصبحت الخلافة العباسية في عهد الراضي من الضعف بحيث لم يعد هذا الخليفة قادرا على أن يرمع أرزاق الجند أو يحصل على يكفيه ، وظلت الحال على ذلك حتى توفي سنة ٣٢٩ هـ ، بعد أن حكم الدولة العباسية ست سنين وثمانية أشهر . وكان الغالب على أمور دولته بحكم التركي . وقد وصفه الفخرى : كان الخليفة الراضي آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس النداء ووصل إليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزها وفداه وجا به تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين - (١)

٢١- المتقى (٣٢٩-٣٢٣ هـ)

بوريح المتقى بالخلافة سنة ٣٢٩ هـ ، وراح يكن له من السيرة ما يدثر ، واضطربت عليه الأمور ، فقد ظهرت الفوضى بسبب قيام النزاع على منصب

إمرة الأمراء، إذ قام نزاع بين ابن الرائق وأبي عبد الله البريدي صاحب الأهواز، ثم
 بحكم على ابن الرائق وإنتزاع من يده إمرة الأمراء سنة ٣٢٧هـ، وظل فيها إلى أن قتل سنة
 ٣٢٩هـ، ثم دخل البريدي بغداد ولحق به منافسه ابن رائق. وانتهى الأمر بخروج ابن رائق
 حتى لا يقف في وجهه ولا يحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء.

وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة العباسي، وتقلد أعباء هذه الوظيفة
 على أن الحمدانيين لم تطل في بغداد، فقد طردهم منها قوزون التركي رئيس الشرطة سنة ٣٣١هـ
 وطارده جيوشهم إلى الموصل، وتقلد إمرة الأمراء^(١).

وجرت في تلك الأيام حروب وفتن، ونهبت دار الخلافة وأخذ ما كان بها، ثم
 إن قوزون كتب إلى المتقي يستميله وحلف له إيماناً غليظة أنه لا يناله مكروه من
 بجمته ما غتر المتقي بذلك وانحدر من الموصل إلى بغداد ووصل إلى السندية من نهر
 عيسى، فخرج قوزون إلى تلقيه والناس كافة. فلما رآه قوزون قبل الأرض وكان
 قد أوصى جماعة من أصحابه سرّاً أن يحاطوا به، فاحتاطوا به وأدخلوه إلى أفيخته
 ثم قبض عليه وسبل عينيه^(٢)، وخلعه وبايع المستكفي.

٢٢ - المستكفي - (٢٢٣ - ٢٢٤هـ)

بعد المستكفي آخر خلفاء العصر العباسي الثاني من وضع

تحت سيطرة الأتراك خلال حكمهم في بغداد، واشتهر بالصلاح والتقوى وعدم شرب الخمر^(٣)
 وكان - كغيره من خلفاء ذلك العصر - محبوباً في أيدي الأتراك، حتى إن قوزون الذي أمره

الخليفة في منصب إمرة الأمراء» ضم إليه غلاما تركيا من علمائه يقف بين يديه^(١)، وما جرى في الخلافة.
وفي أوائل عهد المستكني ماتت توزون فخلعة في إمرة الأمراء أبو جعفر بن شيراز. ولم تطل
عهد المستكني فقد جلس على العرش، استبد توزون فيها بالسلطة ثم خلفه ابن شيراز الذي
استخفى بعد أن تقلد إمرة الأمراء، ثم استولى مع الدولة بن بويه في بغداد.
ولم يكدهم الدولة أحمد بن بويه الذي استجده المستكني يستقر في بغداد
حتى حجر عليه وسمل عينيه، واستدعى الفضل بن المقدّر وبايعه بالخلافة ولقبه
«الطبيع لله» ومنذ ذلك الحين، أصبحت الخلافة العباسية في قبضة بن بويه.
وعهد المستكني هذا كان تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم وصيرورة
الخليفة منهم رئيسا دينيا لأمر له ولائهم ولا وزير، وإسماله كاتب يدبر
إعطائه وإخراجاته لا غير.
وتفرقت المملكة الإسلامية تفرقا غربيا بين طوائف الملوك بعد أن كانت
تتأسس الأعضاء ترجع كلها إلى حاخزة كبرى تجمع أشتاتها^(٢).
قد أصبح الخلفاء ألعوبة في أيدي سلاطين بن بويه، يجلسونهم
على العرش يعزلونهم متى شاؤوا وشاءت أهواهم.
وقد كثرت الدعوات العلوية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري
ومنه ظهر أعظم الفروع أنساوًا! القرامطة الذين لبثوا زهاء ثلاثين سنة
ينتشرون الفروع في جزيرة العرب والحجاز والشام^(٣).

(١) مروج الذهب ٥٤١/٢
(٢) العالم الإسلامي ٧٠/٢
(٣) ذكرى أبي الطيب ٤ عزام

بالمجملّة كان القرن الرابع الهجري، قرن ثورات وفتن ونزاع
 وهدال كثر فيه الثأّمون من العلويين والمتخذين الدعوة العلوية وسيلة
 إلى المجد والسلطان وكثرت أغارات الأعراب والخوارج وكثرت كذلك
 دعاوى المتنبيين وأصحاب المقالات الضالة^(١)

الحالة الاجتماعية

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياتها وأفرادها وما يتحتج به كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء والأعياد والمواسم والمخلات ووصف المنازل وما فيها من أساس وطعام وشراب ولباس، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

طبقات الشعب:

من ذلك نرى أن الشعب كان يتكون في العصر العباسي الأول من العرب، وعلى الأخص المضرين والحنين، ثم من الفرس وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية، والترك، وعلى الأخص منذ أيام المعتصم والمغاربة وغيرهم.

ولكان المسلمون ينقسمون إلى أسنن وشيعين، ولم يخذ النزاع بينهم طموال العصر العباسي، بل تطور أطواراً مختلفة، نراها في الثورات التي أركى نيرانها محمد "النفوس الزكية" وأخوه إبراهيم في عهد أبي جعفر المنصور، والحسين بن علي في عهد الهادي وبكي وإدريس ابن عبد الله بن الحسن في عهد هارون الرشيد.

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة، وهم النصارى

واليهود وكانوا يتمتعون بحامل حرية تهم الدينية والفكرية شريطة
الاستعاضة هذه الحريات مع معتقدات الدين الإسلامي، وسلامة الدولة (١)
وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية في أديارهم وبيعهم
خارج مدينة بغداد في أمن ودعة، مما يدل أن الخلفاء العباسيين كانوا
على جانب عظيم من التسامح الديني مع أهل الذمة.

ولانت الطوائف الدينية منفصلاً بعضها عن بعض تمام
الانفصال، وكان لا يجوز للمسيحي أن يتهود ولا لليهودي أن يتنصر، و
لم يكن النصراني يرث اليهودي ولا اليهودي يرث النصراني، كما لم يكن اليهودي
أو النصراني يرث المسلم ولا المسلم يرث غير المسلم يهودياً أو نصرانياً، ولم
يكن في المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدوها
وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين.

وقد أصدر الخليفة المقتدر كتاباً في المراسم أمر فيه
بأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً إلى أهل ملته،
على حين أن تركة المسلم ترد إلى بيت المال (٢).

وكان الشعب يتألف في العصر العباسي الأول من أربعة
عناصر رئيسية هي: العرب والفرس والأتراك والمغاربة، فلما قامت الدولة
العباسية بمساعدة الفرس، اعتمد الخلفاء عليهم واهملوا العرب الذين

(١) حضارة العرب في العصور الإسلامية. ٢٢٨

(٢) الحضارة الإسلامية. ٥٩/١

نقموا على الفرس واشعلوا نيران الثورات، حتى قامت بين الأخيرين الأئمة والمؤمن هذه الفتنة التي كانت في حقيقة الأمر انتصاراً للفرس على العرب ولما ولي المعتصم الخلافة، ظهر العنصر التركي على مسرح السياسة واتخذهم هذا الخليفة حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة وأقصى العرب من ديوان العطاء، وأدى ظهور العنصر التركي إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين.

فأصبح الأتراك خطراً يهدد حياة الخلفاء أنفسهم حتى إن كثيرين من هؤلاء ذهبوا ضحية تأمرهم، إلى أن بعض الخلفاء أدركوا خطر هذا العنصر، فاستعانوا بالمغاربة والفراغنة وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم أيام الخليفة الراضى (٣٢٢-٣٢٦) إلا أن الخلفاء العباسيين لم يسلموا من خطر هذه العناصر التي كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة، وإلى الخلفاء أخرى ولما انتقلت السلطة إلى ابن بويه قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينسبون إليهم ويعتمدون عليهم في إمرار نفوذهم ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العباسيون من قبل، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك واستعانة البويهيين بجهلاء تارة وأولئك تارة أخرى^(١).

فقد كان الجيش في عصر بني بويه يتألف من الديلم والآثراء والعرب والاكراد و
الفراغنة وغيرهم من المرتزقة.

انقسم المسلمون في هذا العصر إلى شيعة وطوائف أن تعرض
المجتمع الإسلامي إلى التفكك والتنازع. فهناك الشيون الذين كانوا
يكونون السواد الأعظم، ويتبعون بقسط وآخر من الحرية والطمانية
في ظل هؤلاء البويهيين^(١)، ومن ثم قامت المنازعات بين الشيعة
والسنيين.

بيد أن الشيعة انتعشوا في عهد بني بويه، وأصبوا يقيمون
شعائرهم في شيء كثير من الطمانية، وإن كانت مساكنهم لم تعد المكان
الحيط بسوق الكرخ غربى بغداد إلا في أواخر القرن الرابع الهجرى، والسنة
٢٤٩ هـ، قامت فتنة بين العامة ببغداد وقطعت صلاة الجمعة في مساجد
السنيين على حين اقيمت في مسجدهم براثا الشيعى، ولم تلبث أن سكنت
هذه الفتنة بإعتقال معز الدولة جماعة من السنيين^(٢)، وفي السنة التالية
احتفل الشيعة بيوم عاشوراء وأمر معز الدولة الناس بغلق الأسواق
ومنع الأطباء من الطبخ، ونصبوا القباب في الأسواق وعلقوا عليها المسوح
وأخرجوا النساء منشوات الشعر يقين المأتم على الحسين بن عليؑ، ثم أقدم
به من جوار بعده من بني بويه^(٣)، ولم يكن هذا الاختلاف قائماً بين السنيين و

الشيعة وعدم بل تعداه إلى بعض السنين وبعض.

ومن طبقات الشعب الرقيق: وكانوا يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الاسلامي في العصر العباسي، إذ كان إنتاج الرقيق منتشرًا انتشارًا كبيرًا، وكانت سمرقند التي كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق بيئة صالحة جدا لتربية الرقيق المجلب من بلاد ما وراء النهر^(١)، وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة بإنتاج الأما من غير العرب، حتى إنهم كانوا يفضلونهم أحيانًا على العربيات الحرار، كما كانت مصر وشمال إفريقيا وشمال جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود في العصر العباسي الثاني، وكان كافور الإخشيدي عبدًا حبشياً اشتراه محمد بن طغج الإخشيدي في سنة ٢٣١٢هـ بثمانية عشر ديناراً^(٢)، وقد جلب إلى العراق كثير من الزنجيات لأنهم عرّفوا بكثرة النسل، كما جلب كثير من الترنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور، وبهذا كثر عدد الترنج في العراق، أدت كثرتهم إلى قيام ثورة الترنج الخطيرة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة، وكلفت الدولة العباسية كثيراً من الأموال والدماء^(٣).

وقد كثر شراء الرقيقات اللاتي أصبح منهن المغنيات وارتفع ثمنهن، وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب القطائع عبيد الأندلس في القرن الرابع، وتخريب الثغور الغربية، يقول المقدسي: الخدم الذين تروى على

(١) الحضارة الإسلامية.

٢٨٢/١

(٢) المصدر السابق.

٢٧٩/١

(٣) الكامل.

٤٠٥ - ٢٠٥ / ٧

ثلاثة أنواع: جنس يحملون إلى مصر وهم أجود الأجناس، و جنس يحملون إلى عدن وهم البربر وهم شر أجناس الخدم، والجنس الثالث على شبه الحبش، وأما البيض فجنسان: الصقالبة وبلدهم خلف خوارزم، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخسون ثم يخرجون إلى مصر والروم يقعون إلى الشام وأفقر، وقد انقطعوا بخراب الثغور^(١)

ومن الرقيق الأبيض الذين كانوا يسهون الغلمان، الأترار والدليم والأكراد، وقد قام بدور هام في السياسة والحرب، وكانوا يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي.

المرأة: كانت المرأة في العصر العباسي الأول تتمتع بقسط وافر

من الحرية، فقد تدخل النساء في شؤون الدولة، كالخيزران زوجة الخليفة المهدي أم المهدي والرشيد التي كانت كثيرًا ما تسأل ابنها المهدي ليقضي حاجات المتمردين على بيتها من المسلمين، غير أن شدة المهدي على النساء حملته على أن يضع حدًا لتدخلها في أمور الدولة.

إن السيدة زبيدة زوجة هارون أم الأمين تمتعت بقسط وافر من الحرية، وتدخلت في شؤون الدولة، حتى إن الأمين ولي الخلافة بتأثير أمه زبيدة إذ عدل الرشيد عن عزمه في تولية ابنه المأمون^(٢).

ولعل من أبرز النساء اللاتي ظهرن في العصر العباسي وأوسعهن

شهرة وأظهرهن شخصية «العباسة» ابنة المهدي وأخت الرشيد، فقد قيل إن الرشيد كان يعمل بمشورة أخته، وكانت ذات ثقافة عالية وذكا، نادرة حلوة الحديث لطيفة المعشر، وكانت تحضر دائماً مجلس الرشيد^(١).

ومن نساء العصر العباسي الثاني، من كانت لهن السلطة على أولادهن من الخلفاء حتى كن يشرفن على شؤون الدولة ويشركن في تدبير أمور الحكم، وكان لهن أكبر الأثر في سير الحوادث في بغداد، ومن أبرزهن «صبحة» أم المعتز بن المتوكل التي قامت بدورها في عزل الخليفة المستعين. وقد ظهر تدخل النساء جلياً في شؤون الدولة في عهد الخليفة المقتدر، يقول صاحب الفخرى: «واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير لصغر سنه وإستيلاد أمه ونسائه وخدمه عليه، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول ببلذته»^(٢) فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه، وليس هذا كل ما كان للسيدة من نفوذ بل إن سلطتها تعددت حدود ذلك فعينت مهرماستها «ثرمال» رئيسة المظالم.

وكان للنساء شأن كبير في الدولة الفاطمية، تكن يتدخلن في شؤون الدولة واشتهر كثير منهن بالشراء والبذخ كما كان في الأندلس، وقامت الجوارى بدورها في قصور الخلفاء والأمراء ورجال الدولة^(٣).

ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء، ولم يظهر في العصر العباسي الثاني نساء مثقفات بالثقافة الأدبية لهن تأثير في المجتمع إلا بعض الجوارى اللاتي اشتهرن بالغناء ودراسة الأدب.

وقد أولع الناس، وخاصة الخلفاء، بإتخاذ الأمراء من غير العرب لأنهم كن في الغالب أوفر جبالاً. أضف إلى ذلك أن العادة قد جرت ألا يرى الرجل من يريد التزوج بهاروية تامة إذا كانت الحرائر إلا في حدود ما يسمح به الشرع الإسلامي لمريد الخطبة بخلاف الأمة، وكانت الأماء يجلبن من أسواق النخاسة من جميع البلاد إلى بغداد، ومنهن الحبشيات والروميات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر^(١).

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد: فكانت شجاع أم المتوكل خوارمية، والسيدة أم القدر رومية، وكذلك كانت أم السفلى وكانت أم الطبع صقلبية^(٢).

وصفة القول أن منزلة المرأة في العصر العباسي الثاني لم تكن تبعث على الإرتياح إذ فقدت شخصتها وكانت بتأثير انتشار الجوارى في جميع البيوت مما كان له تأثير سي في المجتمع، إذ تهاقت الرجال على إكتثار من الزوجات لأنهم لا يصادفون غناء في إتخاذ الجوارى، واهتجت المرأة تبعاً لذلك

(١) حضارة الإسلام في دار السلام. ٩١

(٢) النظم الإسلامية نشأتها وتطورها. ٢٧٠

ألعوبة في أيدي الرجال، وفقدت الإطمينان على مصيرها مما أدى بها إلى الانحراف عن طريق الفضيلة^(١) على الرغم من وجود عمائل الزهاد والمتمدين اللاتي تمسكن بالثقائيد العربية والإسلامية.

مجالس الطرب والغناء:

إن العباسيين قد انغمسوا في الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة، وكانت تصور الخلفاء والأمراء والوزراء و كبار رجال الدولة مضرب المثل في حسن رونقها وبهاجتها، كما امتازت بفخامة بناياتها واتساعها ويكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة. ولما قامت الدولة العباسية كان أبو العباس السفاح يظهر للنهار في مجلسه ثم احتجب عنهم، ولم يظهر المنصور الخليفة العباسي الثاني لنديم قط، وكان الهادي يحب الغناء ويحرب له، وقد قرب إليه من المغنين ابن جاع الذي فاق في الغناء وإبراهيم الموصلي الذي ضرب في الغناء بسهم وأغزى. وقد فاق هارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى وأجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين، وقد جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم اردشير بن بابك وأنوشروان^(٢)، كان آخرها طبقة الضحكين وأهل الهزل والفكاهات، ولم يكن بينها رغم ذلك خسيس الأصل ولا وضعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش القول ولا مجهول الأبوين ولا ابن

صناعة ونية^(١) على أنه إذا أظهر أحد المغنين أو الموسيقين براعة في فنه
أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التي تعلو رتبته.

ولم يجتمع على باب خليفة من المغنين والموسيقين والملمين
ما اجتمع على باب الرشيد، ومن نبغ منهم في عهده منصور زلزل الذي اشتهر
بحسن الضرب على العود والمغنى مسكين المدني وابن جامع وزير باب.

وكان الأسير يجتمع مع ندمائته في مكان واحد، وكان كثير الهبات
والعطايا، حتى فاق الخلفاء العباسيين قاطبة في جوده وعطاياه لندمائته و
مغنيه، يقول إسحق بن إبراهيم الموصلي: لو كان بينه وبين ندمائته حجاب، حرقتها
كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث يقعدوا^(٢).
أما المأمون فقد امتنع عن سماع الغناء بعد قدومه بغداد، ثم أخذ ليسعه
من وراء حجاب كما كان يفعل أبوه الرشيد في أول عهده بالخلافة وظهر
للندمار والمغنين.

وكان الواقف يتقن الغناء، إتقاناً لم يسبقه إليه خليفة
أو ابن خليفة، وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة، يقول السيوطي:
وكان الواقف أعلم الخلفاء بالغناء وله أصوات وألحان علمها نحو مائة صوت،
وكان حاذقاً بضرب العود ورواية للأشعار والأخبار^(٣).

وعلى الرغم من ضعف الدولة في العصر العباسي الثاني، كان للخلفاء مجالس الطرب والغناء، يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملهون، وأن المتوكل أول خلفاء العصر العباسي الثاني مشغوقاً بالطرب والغناء ولقد جمع مجلس المتوكل حرة بين الشعراء والأدباء والمغنيين والموسيقيين والملهين. وفرح ذلك اليوم فرحاً شديداً وسروراً لم ير مثله وزاد في تكرمتهم وأجزل لهم العطاء.

وكان الخليفة المعتمد مشغوقاً بالطرب والغناء والموسيقى وله مجالس ومذاكرات ومجالس، قد دونت في أنواع من الأدب، منها مدح النديم وذكر فضائله وذم، التفرد بشرب النبيذ وما قيل في ذلك، وعدد أنواع الشرب في الكثرة وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه وأصول الغناء ومبادئه في العرب وغيرها من الأمم وأخبار الأعلام من مشهورى المغنيين المتقدمين والمحدثين وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وتعبية مجالس النداء والتحيات^(١).

ولا غرو فقد ازدهرت الموسيقى في العصر العباسي بفضل إهتمام الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة الذين حملوا على أرفع شأنها، وكثير ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية في بغداد يشتركن في حفلات موسيقية خاصة^(٢).

وقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى وأجزلوا العطاء للمغنين
والموسيقين، وفي عهد عبد الرحمن الأوسط بن هشام وفد على الأندلس
أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب، وهو مولى المهدي العباسي، فقرّب عبد الرحمن
إليه وأبذل له العطاء وكان شاعراً مطبوعاً وأديباً ملماً بعلم النجوم وأخلاق
الشعوب وطبائعها وسير الملوك، كما كان فصيحاً حسن الصوت وعلو الحديث.
أبدع زرياب في تنسيق الألحان، ولا غرو فقد هذا الشعور عن
أستاذه إسحق الموصلي الذي ورثه عن أبيه، وقد أثر أنه كان يحفظ عشرة
آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وقد أورش صناعة الغناء بالأندلس،^(١)
وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه.

ويرجع الفضل إلى زرياب في تعليم الجوارى الغناء في عصره، و
كانت له جوارى أديبن وعلمهن الغناء العزف على العود،^(٢) وكان زرياب في زريه
مثلاً يحتذى به أهل بلاد الأندلس في ملابس الفصول المختلفة.

ومن أشهر المغنين والملهين الذين أسهبوا في ذلك التطور،
إبن جامع، إبراهيم الموصلي وابنه إسحق، وأبي العباس وزرياب ومسكين
المغني ومخارق وزناعم الزاهر وعريب،^(٣) يقول المسعودي، لم تكن أمة من
الأئمة بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب.^(٤)

٢٢٢/١

(١) نفع الطيب.

١٢٧/٤

(٢) المصدر السابق.

٨٣

(٣) الحالة الاجتماعية في العراق.

١٥٩/٤

(٤) مروج الذهب.

أما مجالس الطرب والغناء عند العامة، فعلى الرغم من أنه لم يرد في كتب التاريخ والأدب معلومات وغيرة عن مثل هذه المجالس، فإن بعض العامة من المسلمين كانوا يحضرون حفلات تتناسب مع مستوى معيشتهم (١) وعلى الرغم من هجمات الحنابلة المتكررة، وغيرهم على دور المغنيات والمغنين خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، فالغناء لم يتأثر بذلك، بل استمرت المجالس في قصور الخلفاء وفي بيوت العامة.

قصور الخلفاء والأمراء :

يعتبر المنزل وما فيه من سكان، وما يقدم من طعام وشراب وما تقام فيه من حفلات، ويرتديه سكانه من ملائس، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية وقد تأثر العباسيون في منازلهم بالأساليب الفارسية خاصة.

وقد اتخذت دور بغداد على مثال دور الفرس ودور الروم التي بنوها في بلاد الشام، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكس، وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هي: مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام الخاصة بالضيافة، ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الناكهة والرياحين (٢).

ولانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة ومقباب وأروقة وبساطين

(١) الحالة الاجتماعية في العراق.

(٢) تاريخ الإسلام.

ومسطحات مظلة بالأشجار، ومن هذه القصور: قصر الذهب الذي بناه المنصور
في وسط بغداد، وقصر الخلد الذي بناه على شاطئ دجلة الغربي^(١)، وتألف في بناءه
وتجصيله حتى سمي "الخلد".

وبني هارون الرشيد على دجلة قصرًا تألف في تجصيله وزينه
بأفخر أنواع الزينة وأتمام فيه أساطين الرخام، وكان أشبه بإحدى المناظر
التي كان يجلس فيها الخلفاء الفاطميون للنزهة وتبديل الهواء فكان يجلس
إلى الشبان يستمع إلى اغناء الملاحين، وبني الخليفة المرائي في مدينة سامرا
عدة قصور منها قصر الهاروني^(٢)، وقد ابتدع المتوكل نوعًا من القصور يسمى
الحيري، ينقسم ثلاثة أبواب، أو سطحا الباب الأكبر وإلى أجنابه البابان
صغيران، ومن أشهر هذه القصور قصر التاج^(٣) الذي وضع أساسه الخليفة
المعتضد.

وكان البرامكة يعنفون ببناء قصورهم ويتأنقون تجصيلها وتأنيشها حتى تبقى
على مر الزمن شاهدًا بأثرهم ناطقة بذكرهم. ومما زاد خماره في هذا
القصر "بيت الذهب". وكان أعجب مباني الدنيا، وكانت من أحسن ما بنى
في عهد الطولونيين ووضعت فيها الستائر لتقى الجالسين من الحر والبرد
بحيث ترتفع وتخفض عند اللزوم^(٤).

٣٨٢/٢

(١) معجم البلدان.

٣٨١/٥

(٢) المصدر السابق.

٣/٢

(٣) نفس المصدر.

٢٢٩/٣

(٤) تاريخ الإسلام.

وقد ساد الترف بين العباسيين بازدياد العمران، فكانت العمائر ببغداد وغيرها من أممها المدن مؤلفة من عدة طبقات، كما كانت عرصفها تزينان بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والمرصعات والمذهبات التي بلغت حد الإقتان يقول صاحب حضارة الإسلام، إن أهل بغداد كانوا يزینون مجلسهم بالفرش الفاخر والمتاح الثمين، ويلبسون حيطانها بالوشى والديباج ويعنون بغرس الأزهار في جنانهم حتى إنهم كانوا يجلبون لها الرباهين من الهند^(١)

وقد عنى الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بتنظيم بغداد و نظافة شوارعها وطرقها فكانت الرحاب تكس كل يوم وحمل التراب خارج المدينة. ولم تكن قصور الأمويين بالأندلس بأقل روعة وسجا من قصور العباسيين والطوائين والفاطميين، فقد اشتهرت قرطبة، والزهرار و طليطلة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها الفخمة، وفي الجزء الثاني أن الأُمراء الأمويين في الأندلس كالحكم وعبدالرحمن الداخل وعبدالرحمن الأوسط ومحمد شيد وقصور افخمة كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف وقصر الدمشق، أن عبدالرحمن الناصر شيد بمدينة الزهراء قصره العظيم الذي سماه دارالروضة^(٢) الذي أظن المؤرخون والرحالة في وصفه.

(١) حضارة الإسلام في دار السلام . ٩١

(٢) تاريخ الإسلام . ٤١١/٣

الطعام والشراب :

بلغ من تفنن العباسيين في الطهي وإسراخهم في الإفناق عليه ، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقدم أسنده على المائدة^(١).

وحفلت مائدة الرشيد بألوان الطعام ، حتى قيل إن الطهاة كانوا يطهون له ثلاثين لونا في اليوم ، وأنه ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم في اليوم ، وبلغت نفقة المأمون في اليوم ستة آلاف دينار ، كان ينفق منها مبلغا كبيرا على مطابخه^(٢).

واهتم به الخلفاء في العصر العباسي الثاني ، حتى إنهم أجازوا للشعراء وصفه وكما كان المكلف يطلب إلى الشعراء أن يصفوا له بعض الطعام ، كذلك كان يطلب إليهم أن يظهروا الشعر في الشراب ، ولم يقتصر وصف الشعراء على هذه الألوان وعددها بل وصفوا ألوانا أخرى غيرها وكذلك أولع الأمراء وغيرهم من الأغنياء بتنوع الطعام والإسراف في إعداده ، وأهل بغداد يتفننون في الطعام ويسرفون في إجتلاب ألوانه في غير مواعيدها ، من صيد وناكهة وخضروات ، كما كان يجلبون من الطعام كالسمك والمحبوب والمجن من فارس وكمكان والمهند^(٣).

ولم يسبح الخلفاء العباسيون بتناول النبيذ على مواعيدهم ، على

الرخم من أنعم كانوا يشربونه أحياناً.

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألواناً من الطعام، فأدخل
بقلة الهليون المسماة عندهم الأسفروج (ASPIRAGO) كما زاد في الأطعمة
لونا، أطلقوا عليه «النقايا» ولونا من الثقليّة أطلقوا عليها ثقليّة زرياب^(١)
وقد اتخذ أحرار الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فيما
سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه.

الملابس :

وتطور الزي في الدولة العباسية عما كان عليه الحال
قبل قيامها، وذلك لظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي، وقد
قرر أبو جعفر المنصور بأن تلبس بصفة رسمية الصبغات السوداء الطويلة
المخروطة الشكل ويطلق عليها اسم القلائس، وأدخل استعمال الملابس
الحلاة بالذهب وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة^(٢)، يتبين ذلك
من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل، حيث تظهر صورتها مرتدياً
ملابس فارسية.

ولما ولي المستعين الخلافة صغر القلائس بعد أن كانت طوالاً
وأدخل لبس الأكمام العريضة التي لم تكن تعرف من قبل، فجعل عرضها
خمسة ثلاثة أشبار، وكان هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب بحفظ ما فيها

(١) نفع الطيب.

١٢٤/٤

(٢) تاريخ الإسلام.

٣٩١/٢

الإنسان كل ما يرغب في حفظه .

أما الملابس العادية للطبقة الراقية في هذا العصر، فكانت تشتمل على سروالة، مضغاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وتشتمل ملابس العامة على إزار وقميص ودراعة وينتعلون الأحذية والنعال. وقد اتخذت نساء الخلفاء الطبقة الراقية غطاء للرأس منضدا بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة، ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى «عليه»^(١) أخت الرشيد، وكانت نساء الطبقة الوسطى يزين رؤسهن بحليّة مسطحة من الذهب ويلفن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ كذلك يلبسن الخلاخل في أرجلهم والأساور في معاصمهن وأزنادهن، ولم تكن أدوات الزينة والتجميل مبهولة لديهم^(٢).

ومن الجلى أنهن أخذنه عن الفارسيات، ويعزى إلى أسيده زبيرة اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر، وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزينها.

الأعياد والمواسم والمحفلات:

احتفل خلفاء بغداد بعيدى الفطر والأضحى احتفالا

باهرا، كما حرصوا منذ بداية القرن الرابع على الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم واحتفلوا بيوم النوروز وهو أول أيام السنة عند الفرس وأحد مواسمهم القديمة. وكان المسلمون قد أبطلوا الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد الفتح

الإسلامي، غير أنه عاد في الصدر الأول من أيام العباسيين، وكان الناس يتبادلون المهدايا^(١)

وكذلك الحال في عيد المهرجان، وهو أول أيام الشتاء فكان الناس يتهادون فيه، وقد جرت العادة أن يخلع الخلفاء في هذا العيد ملابس الشتاء على القواد وكبار رجال الدولة. وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ويسمونه «رام روز»، واهتم الفرس كذلك بعيد الرام، ويقع في اليوم الحادي والعشرين من المهرجان، وبذلك احتفل العباسيون بأعياد الفرس وخاصة النوروز والمهرجان والرام، وأصبحت من أهم الأعياد الرسمية في الدولة العباسية.

وفي أيام الجمع والأعياد في العصر العباسي، كان يسير في مقدمة مركب الخليفة الحراس على اختلاف طبقاتهم حاملين الأعلام، ثم أمر البيت العباسي على الخيول المطهنة، ثم الخليفة للباس القباء الأسود وعليه قلنسوة طويلة مزينة بجمهرة ومتنطقاً بمنطقة مرصعة بالجواهر ومتشحاً بعباءة سوداء وبين يديه كبار رجال الدولة^(٢)

ومن أعظم مواكب العباسيين، عدا مواكب الخليفة، مواكب الحج حيث يجتمع في بغداد الحجاج من مختلف الأنصار الإسلامية الشرقية.

الباب الثاني

الأوضاع الثقافية في العصر العباسي

الفصل الأول

حركة التصنيف والترجمة والنقل

الفصل الثاني

تنظيم العلوم الإسلامية

الفصل الثالث

تطور العلوم الأدبية واللغوية

كان من أثر اختلاف السكان في المملكة الإسلامية
انتسابهم واستزاج بعضهم ببعض في السكنى والتزواج وما إلى ذلك، ودخول
كثير من أفراد الأمم المختلفة في الإسلام ونحو الحضارة نمواً يستدعي علماً واسعاً
بكثير من شؤون الحياة، من هندسة وطب ونجوم ونظام حكم وفقه ولغة وأدب،
كان من أثر ذلك كله أن انتشرت في المملكة الإسلامية ثقافات مختلفة لأمم
مختلفة، وكان هناك رجال بارزون يحملون لكل ثقافة علمها ويزيدون جهدهم
في الدعوة لها والترويج لمبادئها، وتوجيهها إلى الناس، وإفهامهم أنها خير
أنواع الثقافات^(١).

وقد رأينا أن ما حصل في الأجناس البشرية، حصل نظيره في الثقافات
العلمية، وقد كان في الأجناس استزاج وتزاوج وتوليد، فكان في الثقافات
العلمية استزاج وتزاوج وتوليد، وقد كان في الأجناس ميزات مختلفة، كل
جنس له مزاياه وله عيوبه، وكما كان في المملكة الإسلامية أُمم مختلفة، اشتهرت
كل أمة بميزة، كذلك امتازت الأمم المختلفة بميزات في العقلية، تبعها ميزات
في الثقافة.

فما هي أشهر الثقافات في ذلك العصر، وما هي ميزة كل ثقافة؟

وقد انتشرت في هذا العصر أربع ثقافات، كان لها أثر بالغ في عقول الناس وهي الثقافة الفارسية، والثقافة الهندية والثقافة اليونانية والثقافة العربية.

١- فمن أربع الثقافات التي ذكرناها، الثقافة الفارسية، فهذه الثقافة انتشرت في العصر العباسي الأول إنتشاراً عظيماً وساعد على ذلك أمران.

١- إنشاء منصب الوزارة وإسناده غالباً إلى الفرس^(١).

لم تكن كلمة الوزير بدعاً في العصر العباسي، إنما المبتدئ هو إنشاء هذا المنصب وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية وتلقب به بهذا الاسم، وهذا المنصب لم يكن معزياً لقب العباسيين، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً. وكان الوزراء الظاهرون في هذا العصر موالى فرساً، فأبوسلمة الخلال ويعقوب بن داود ويحيى بن خالد البرمكي والفضل بن سهل والحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وثابت بن يحيى بن يسار الرازي كانوا كلهم من الفرس^(٢).

هؤلاء الوزراء كان لهم أعوان يسمون الكُتّاب، فقد كان لكل وزير كاتب، بل كتاب يعينونه، وكانت هذه الطائفة طائفة الكُتّاب تؤلف وحدة على رأسها الوزير. بل تتدرج في الرقي إلى الوزارة معتمدة على كفاءتها وبلوغها^(٣). وكان لهذه الكُتّاب أثر كبير في نشر نوع من الثقافة خاص، ذلك

(١) النظام الإسلامي نشأتها وتطورها. ٢٠١

(٢) الوزراء العباسيون. ٥٠

(٣) كُتّاب الوزراء والكُتّاب. ١١٠-١٤٥

أَنَّ ثِقَاتِهِمْ كَانَتْ أَوْسَعَ مِنْ ثِقَاةِ غَيْرِهِمْ^(١) وَكَانَتْ مَعَارِفُهُمْ وَدَائِرَةُ إِطْلَاعِهِمْ
وَاسِعَةً شَامِلَةً لِأَنْفَعِ مَضْطَرُونَ أَنْ يَعْرِفُوا أَحْوَالَ النَّاسِ، الْإِجْتِمَاعِيَّةَ وَقِيَالِيَهُمْ
وَأَنْ يَعْرِفُوا مِنَ اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ وَعِلْمِ الدِّينِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالْجُغْرَافِيَا وَالتَّارِيخِ
طَرَفًا، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ مَوَاقِفِهِمْ يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ، وَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْخَلِيفَةِ أَوْ الْوَالِي
مَسَائِلُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَهَوْلَاءُ الْوُزَرَاءُ وَالْكَتَّابُ نَشَرُوا الثَّقَاةَ الْعَامَّةَ وَ
ضَهَرُوا إِلَى الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْأَدَبِ الْفَارِسِيِّ، فَأَصْبَحَ مَا يَتَطَلَّبُهُ الْأَدَبُ أَنْ تَعْرِفَ
حُكْمَ بَرْجَهْمُ كَمَا تَعْرِفُ حُكْمَ أَكْثَمِ بْنِ صَيْغِي وَتَعْرِفَ تَارِيخَ الْفَرَسِ كَمَا تَعْرِفُ تَارِيخَ
الْعَرَبِ وَتَعْرِفَ أَمْوَالَ كَسْرَى وَسَابُورَ وَابِرَوِيزَ وَمُوبِدَ بُو بَذَانَ كَمَا تَعْرِفُ
أَمْوَالَ الْخَلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأُمَوِيِّينَ^(٢)

السَّبَبُ الثَّانِي: فِي نَشْرِ الثَّقَاةِ الْفَارِسِيَّةِ: بِإِنْتِقَالِ عَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ مِنْ
دِمَشْقَ إِلَى الْعِرَاقِ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ بَوَاعِثِ الْعَبَّاسِيِّينَ عَلَى هَذَا الْإِنْتِقَالِ
أَنَّ دِمَشْقَ كَانَتْ عَاصِمَةَ الْأُمَوِيِّينَ وَكَانَتْ ضَلَعُ الشَّامِ مَعَ بَنِي أُسَيَّةَ مِنْ عَهْدِ
الْخِلَافِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَبِعَاوِيَةَ^(٣)، وَكَانَ الشَّامِيُّونَ هُمْ الْجُنْدُ الْمَخْلَصُ لِبَنِي أُسَيَّةَ وَ
هُمْ مَثَلُ الطَّاعَةِ لِدَوْلِهِمْ، فَهِنْ حَزَمَ الْعَبَّاسِيُّونَ أَلَّا تَكُونَ عَاصِمَةُ الدَّوْلَةِ
الْجَدِيدَةِ بَيْنَ الشَّامِيِّينَ وَتَحْتَ رَحْمَتِهِمْ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فِدِمَشْقَ بَعِيدَةً جِدًّا عَنْ
خِرَاسَانَ مَنَبَعِ الثُّورَةِ وَبَصَرَةَ الدَّعْوَةِ وَذَخِيرَةَ الْعَبَّاسِيِّينَ وَمَعَادِهِمْ.
وَالْمُحْكَمُ هَذَا أَنَّ بَغْدَادَ كَانَتْ فِي الْعِرَاقِ حَيْثُ عَوَّاهُ الْمَلِكِ الْقَدِيمِ

(١) الحضارة الإسلامية ودرى تأثرها. ١٩

(٢) صفى الإسلام. ١٧٩/١

مثل بابل والمدائن، فأصبحت بغداد أهم مركز للحضارة والثقافة في المملكة الإسلامية
بل في العالم كله. ومن بعد إذا اجتمع الفرس والعرب معا في العراق واختلطوا
فالعرب كانوا أكثر شعورا بأسباب الحضارة في العصر العباسي، فكانوا أشد
إحتياجاً للإقتباس من الفرس وعلى ذلك كان للفرس علم وأدب يتناسبان
مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم، فلما جاءت الدولة العباسية وكثر من
رعيتهما فرس لهم نزعة وطنية وسعول قومية، أخذ المثقفون ينقلون إلى
العربية تراث آبائهم وما حفظته العصور إلى عهدهم.

وإذا نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي أخذ طائفة
من مجيدين اللسانيين العربی والفرسی ينقلون الكتب الفارسية إلى العربية
وقد عقد ابن النديم في كتابه الفهرست فصلاً لأسماء النقلة من الفارسي
إلى العربي ذكر منهم: عبد الله بن المقفع، علي بن زياد، حسن بن سهل، اسحق
بن يزيد، هشام بن القاسم، موسى بن عيسى وغيرهم^(١).

وقد عني المترجمون، فترجموا كتباً عديدة من تاريخ الفرس والكتب
الدينية والأدبية، فتخرج هناك قوم اتقنوا اللغة الفارسية والعربية معا
فعاكفوا على قراءة الكتب الفارسية يتتقنون بها، ثم هم يخرجون باللغة العربية
أدباً وشعراً وعلماً، فيخرج هكذا أدباً جديداً بلغته العربية^(٢)
وعلى هذا نعرف أن الأدب في كل عصر ظل الحياة الاجتماعية

وقد كانت هذه الحياة ذات ألوان متعددة أظهر لون فيها اللون الفارسي.
 فإذا رأينا هؤلاء الشعراء لبشار بن برد، أبو نواس، وأبو
 العتاهية، فنظّم فيهم نزعات فارسية وثقاليدي منقولة بالفرنس، فهذا
 لبشار بن برد وهو معروف بالتهتك والفحش والعبث واللهو وصف الخمر^(١)
 كانت هذه الأوصاف موجودة في شعراء القدماء ولكن كان فخورهم ساذجا
 بسيطاً في الفاظه ومعانيه، وكان فخور الآخريين مركباً معنانياً في الوصف
 شاملاً لكل المظاهر ومشاعر الشهوة يتخير أمتع اللفظ لأقبح المعنى. وهذا
 أبو العتاهية فقد أتى في باب الزهد بما لم يسبق إليه^(٢) وزاد في معانيه زيادة
 لبشار وأبي نواس في أدب اللهو والمجون، وأصحّ تعبير في ذلك أن نقول
 إنه فلسف الزهد وملاذ الأدب العربي بالموت والتخويف منه وما بعده
 واحتقار اللذة والجد في المهرب منها.^(٣)

اعتقد أن عبد الله بن المقفع يكفى وحده لتأثير الثقافة العربية
 على الثقافة الإسلامية بحيث ذاع صيته كتابه إلى المدينى الذى لا تحسن
 التحرير منه حتى الآن وكتاب به الذى ترجم من الفارسية إلى العربية من
 آثار الأدب العربي الباقية في أيدينا ولا يزال باقياً إلى الأبد.

٢- الثقافة الهندية: كانت العلاقات بين العرب والهند قديمة
 بطريق التجارة حتى أصبحت وطيدة حينما وجه الحجاج محمد بن القاسم الثقفي إلى

المهند في أيام العليد ففتح سند وحيدرآباد وملتان، وأصبح الجيل الهندي
عنصرًا من العناصر المكونة للأمة الإسلامية، وإذا ولي أبو جعفر النعمان
هشام بن عمرو التغلبي، فتوسع في الفتح شمالاً، ففتح كابل وكشمير وأصاب
سببا ورحيقا كثيرا وأصلحت العلاقات التجارية بين الهند والمملكة الإسلامية
فكان يأتي منها العود والسكر والغاب الهندي^(١).

وما تم الفتح حتى تعاقبت الحركة العلمية، فكان بعض الفاتحين
أنفسهم من العلماء كربيعة بن صبيح البصري أشهر المحدثين، وعلى هذا كان
الموالي الذين جلبوا من الهند نبغ من أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدثين
ناشئهم من اللغويين ممن أصله هندي ابن الأعرابي، كان علما من أعلام
اللغة والأدب والشعر^(٢) وله مؤلفات كثيرة ومن تلاميذه ثعلب وابن السكيت
ومن آثاره الباقية كتاب في أسماء البر وصفاتها، وكتاب في أسماء الخيل و
أسمائها، ومن المحدثين الهنديين أبو معشر نجيب الهندي صاحب المغازي سبع
نافعا ونفرا من التابعين^(٣)، ومن الشعراء كان أبو عطاء السدي وهو شاعر من
مخزومي الدولة الأموية والعباسية.

هذا نوع يمثل لنا اندماج المهنود في المسلمين واعتناقهم الإسلام
وتعلمهم علما إسلاميا عربيا ونبوغ بعضهم فيه، فأثر الهند في الثقافة
الإسلامية مباشرة وغير مباشرة، التأثير المباشر إنما هو الفتح الإسلامي

(١) فني الإسلام . ٢٤٢/١

(٢) الفهرست . ١٠٨

(٣) أيضا . ١٤٢

والإتصال التجاري، وغير مباشرة فذلك نقل ثقافتهم بواسطة الفرس، فإن الفرس
اتصلوا بالهند اتصالاً وثيقاً قبل الفتح الإسلامي وأثروا فيهم وتأثروا بهم
وأخذوا كثيراً من الثقافة الهندية وأدجوها في ثقافتهم، فلما نقلت الثقافة
الفارسية إلى العربية كان معنى ذلك نقل جزء من الثقافة الهندية في ثيابها.
وكان تأثير الهند من فروع أخصها الإلهيات أو المقالات
الدينية والرياضيات والجيوم والأدب وما يتبعه من. وكل هذه العلوم
والفنون ذابت في المملكة الإسلامية.

٣- الثقافة اليونانية: إذا نحن وصلنا إلى اليونان فقد وضعنا
أيدينا على كنز لا ينفى وشمرة لا تقدر وغنى عظيم في كل ما ينتجه العقل والعاطفة
والذوق في الفلسفة والرياضة والفلك في علوم الطبيعة والحياة والطب في
الأدب، في التاريخ، في السياسة، في الفنون الجميلة، لقد نفخوا في كل ذلك
من روحهم وغذوا العقول بأرائهم وأمدوا العالم بأفكارهم وآدابهم و
علمهم وأساطيرهم وربوا الذوق بفنهم ونحتهم وتصويرهم.

أما تأثير الثقافة اليونانية على الثقافة الإسلامية كان يبدأ
بالعهد الأموي لأن ثبتت سلطة الإسلام على جميع الأصفار والأقطار التي
دخلتها أويته عنوة أو صلحاً أثناء المغازي المتواصلة والفتوح من أقصى
بلاد ما وراء النهر في تركستان إلى أقصى المغرب والأندلس،^(١) نعت اللغة العربية
الشريفة أهل تلك الولايات والبلدان وغلبت على ألسنتهم الأصلية،

فأخذ المسلمون كلهم من أي جنس أو لغة لا يستخدمون في الإنشاء والتأليف إلا لغة العرب، نصار الفرس وأهل العراق والشام ومصر يدخلون علومهم القديمة في التمدن الإسلامي الجديد^(١)

إن أول نقل حدث في الإسلام كان بفضل بن خالد بن يزيد بن معاوية والذي نقل له هو "اصطفى" وهو من الأسكندرية، وكان هذا النقل من اللغة اليونانية والقبطية إلى العربية، ولكن محاولة الترجمة في العهد الأموي كانت محاولات فردية، وفي الدولة العباسية كانت محل أمة لأهل أفراد، وكانت في العهد الأموي مقصورة على العلوم العلمية كالصناعة والطب والفجوم وفي العهد العباسي تعدت إلى العلوم العقلية كالفلسفة والهندسة والمنطق. كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين بحيث اتصل المسلمون بالمنطق، وصار للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي، وكان من جرّاء ذلك أن اصطبحت طريقة الجدول والبحث والتعبير والتدليل صبغة غير التي كانت تعرف من قبل حتى وصلت أساليب المتكلمين إلى المجرى الذي يجري على أساليب منطق أرسطو، كما يتجلى لنا بوضع محمد بن إبراهيم الحسني اليميني كتابه المسمى "ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان"^(٢) وكذلك تجد التعبير الأول من الفقهاء عربياً بحثاً وتجد الفقهاء من بعد أرسطو ليسوا بحثاً

وإذا قرأ كتاب سيبويه فتجد ترتيباً وتبعيياً منطقياً، وكان لهذه الثقافة أثر واضح في الفلسفة الإسلامية والبلاغة العربية^(١).

ولكن ذهب البعض إلى موقف العرب كان موقف الناقل فحسب فهذا غير الصحيح بهم ولا ريب أنهم استفادوا من الثقافة اليونانية واستخدموا صالحاً وأخذوا منها ما أخذوا ثم بنوا عليه وزادوا فيه وابتكروا.

أما الأدب اليوناني فلم يترجم منه إلا قليلاً لأنه كان وثنياً وفيه آلهة متعددة وفيه عبادة أبطال ولكنه أثر على الأدب العربي وفي اللغة العربية من وجوه^(٢): ١. ألفاظ يونانية عربت. ٢. مصطلحات يونانية نقلت إلى العربية. ٣. الحكم فقد ترجمت حكم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وملئت بها كتب الأدب في ذلك العصر.

٤- الثقافة العربية: لهذه الثقافة ناحيتان هامتان. (١) ناحية

دينية من دراسات القرآن الكريم والحديث النبوي والفقه (٢) ناحية لغوية أدبية، وذلك أن جزيرة العرب منبع اللغة العربية ومولد الإسلام والعرب هم الذين حملوا لغتهم معهم حيث يسكنون وحيث يفتحون، ومحمد رسول الله ﷺ عربي والقرآن عربي، ودعاة الأئمة الأولون إلى الإسلام عرب.

والعرب واجهوا في العصر العباسي صعوبة شديدة في نقل هذه

الذخيرة العلمية الأجنبية إلى اللغة العربية، ولكن تغلبوا على ذلك كله في دقة
وبهارة، وفي الحق أن معجم اللغة العربية تضخم في العصر العباسي من طريقين
الأول، التوسع في مدلول الكلمات العربية والثاني، نقل الكلمات الأجنبية
ففسها إلى العربية^(١)

هذا موجز من القول في الناحية اللغوية للثقافة العربية، وهناك
ناحية أخرى، هي الناحية الأدبية، فقد كان للعرب أدب غزير ممتع، وكان
يجانب رواية اللغة في ثنايا رواية الأدب، وكان عرب البادية في ذلك العصر
مصدر اللغة والأدب^(٢) لأن عرب البادية كان لهم من السذاجة والبساطة و
الحكمة الرائعة والشعر الرقيق العذب والقصص اللطيفة النادرة وكانوا
رواة الأدب القديم ولهم إنشاء في الأدب الحديث، ولروايتهم وقصصهم و
خرافاتهم ألف كتب والرسائل تشهد عليها.
وكانت النهضة العلمية في ذلك العصر تتمثل في ثلاثة جوانب.

- ١- حركة الترجمة والتصنيف.
 - ٢- تنظيم العلوم الإسلامية.
 - ٣- تطور العلوم الأدبية واللغوية.
- وهناك حديثاً قصيراً عن كل جانب من هذه الجوانب -

حركة الترجمة والتصنيف

إننا نعلم من تاريخ اليونان القديم أن آخر اليونان في الثقافة الإنسانية عظيم عميق، لأنه إلى جانب إمداد العالم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابعهم ومفكرتهم قد أمدّوه أيضاً بالتَّخَبُّب والمَلَح ما وقف عليه اليونان من زبدة علوم الآشوريين والبابليين والفينيقيين والصين والهنود والفرس واليونان والرومان. وإن العرب قد وقفوا على الفلسفة اليونانية ومنتجات العقول اليونانية، فكانوا نقول ضيقاً إنهم وقفوا على آثار العقلانيات الإنسانية العامة، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة.

إن الدولة العباسية كانت فارسية إلى حدٍّ ما، أو على الأقل كانت متسربة بالاطباع الفارسي متأثرة به. يقول ابن النديم: إن الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب النطق والطب إلى اللغة الفارسية، فنقل ذلك إلى اللسان العربي عبد الله بن المقفع^(١) فمن العقول إذاً أن يكون العرب حين اتصلت ثقافتهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها، تأثروا في نفسه بالثقافة اليونانية أيضاً. وفي تاريخ ملوك الفرس مثل سابور بن أردشير، تجد أنه في خلال عهده بعث إلى بلاد اليونان، وجلب كتب الفلسفة، وأمر بنقلها إلى الفارسية، واختار لها في مدينته وأخذ الناس في نسخها وتدارسها وهكذا^(٢) فالثقافة العربية أعادت أيضاً أداة من منتجات الفرس

وأثارهم وتراجمهم -

إن تاريخ الترجمة في عهد آل عباس على ثلاثة أدوار: فالدور الأول: من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد، أي من سنة ١٣٤هـ إلى سنة ١٩٣هـ، وهي الطبقة من المترجمين، منهم يحيى بن البطريق مترجم المجلسي في أيام المنصور، و جوحيس بن جبرئيل الطبيب، وعبد الله بن المقفع (١٤٣هـ) وترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطاطاليس، ويوحنا بن ماسويه، وكان في أيام الرشيد، وقد أورد أيام المتوكل واعتنى في الأغلب بالكتب الطبية، وسلام الأبرش، وكان في أيام البرامكة، وأسيل الطرائف والدور الثاني: من ولاية المأمون سنة ١٩٨هـ إلى سنة ٣٠٠هـ، وهي الطبقة الثانية من المترجمين منهم يوحنا بن البطريق، والحجاج بن مطر، وتسطا بن لوقا البعلبكي، و عبد المسيح بن ناعمة الحمصي (٢٢٠هـ) وحنين بن إسحاق (٢٤٠هـ) وابنه إسحاق بن حنين (٢٩٨هـ) وثابت بن قرة الصابي (٢٨٨هـ) وحبيش بن الحسن وغيرهم. وما ترجم في هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطاطاليس ونسب من كتب أفلاطون ومن التفاسير على الكتب المذكورة.

والدور الثالث: من سنة ٣٠٠هـ، وهي تاريخ وفاة حبيش إلى منتصف القرن الرابع، ومن مترجمي هذه الطبقة، متى بن يونس، وتاريخ وفاة مجهول، وسنان بن ثابت بن قرة (٣٤٠هـ) ويحيى بن عدي (٣٤٤هـ) وأبو علي بن زرعة من سنة ٣٣١هـ إلى سنة ٣٩٨هـ وهلال بن صلال الحمصي وعيسى بن سهرنجدت وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبية لأرسطو، والمفسرين كالأسكندر الأفروديسي ويحيى النخعي وغيرهما. (١)

وبدأت الترجمة في هذا العصر منذ عهد الباكر واهتم بها الخلفاء لأول مرة
 في تاريخ الإسلام، ذكر السيوطي^(١) أن المنصور أول خليفة ترجمت له الكتب
 السريانية والأجنبية باللغة العربية ككتاب «كليلة ودمنة» و«قليدس»، ولكن حياة
 الرشيد والمأمون تمثل في الواقع العصر الذي وصلت فيه الترجمة ذروتها في النشاط
 والدفقة، وكان بيت الحكمة الذي أسسه الرشيد ورعاه المأمون مركز ذلك النشاط
 وقد ضم بيت الحكمة كتباً وضعت في الأصل بلغات مختلفة، ومن أهمها الكتب اليونانية
 والفارسية والمهندية والقبطية والآرامية. يشار خدا بخش: عند الحديث على النهضة
 الأدبية والنشاط العلمي في العالم الإسلامي بيد عصر المأمون، وهو أزهى العصور، و
 مكانه القمة بالنسبة إلى أسواه. ومن الحق أن يقال أن جميع الحركات الثقافية
 في الأقطار الإسلامية منذ عصر المأمون هي فروع للأصول التي غرسها وسقاها
 ذلك الخليفة العظيم^(٢).

فهذا بيت الحكمة أول مؤسسة ثقافية عند المسلمين يدين للمأمون بامتاعه
 له من عناية وما أضعى عليه من قوة، وما أنفق من مال، وعن طريق هذا العهد كسبت
 اللغة العربية كثيراً من الزاد والعروة بما أجرى في بيت الحكمة من ترجمة إليها
 من اللغات الأجنبية وبواسطة بيت الحكمة حفظ للإنسانية كثير من تراث الإغريق
 الذي ضاعت أصوله. ولم يجد العالم غير الترجمات العربية وسيلة للوصول إلى
 هذا التراث.

(١) تاريخ الخلفاء.

وقد وجهت العناية في بدء العهد بسبب الحكمة إلى المكتب الفارسية و
 الهندية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن يحيى بن خالد البرمكي كان في هذه الأثناء
 يشرف على شؤون الدولة بوجه عام، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص، ويحيى بن
 خالد غارسي الأصل والثقافة، فاهتم بأن ينقل إلى اللغة العربية ألواناً من ثقافة الفرس،
 فجلب إلى بيت الحكمة مجموعة من المكتب الفارسية، وعين لترجمتها أشخاصاً لهم سيطرة على
 اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من أمثال أبي سهل الفضل بن نوبخت^(١)، وعلان
 الشعوبي. ومن أجل هذا نجد يحيى بن خالد يرسل في طلب بعض علماء الهندوالمنازين
 ويعين من يترجم عنهم كتبهم وأخبارهم إلى اللغة العربية، وبواسطة هؤلاء العلماء
 الهندو الذين استدعاهم يحيى، نقلت فنون من الثروة العلمية من الهندية إلى العربية.
 ثم جاءت الثروة الفخمة في آخريات عهد الرشيد، وخلال عهد المأمون عن
 طريق التراث اليوناني الخالد. وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك، و
 في المكتب أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة، ما وجدها بأفقر
 وعمورية وسائر الروم حين ملكها المسلمون، ووضعه أميناً على الترجمة^(٢).
 فهذه مجموعة من الكتب اليونانية جلبت من أفقره وعمورية إلى بيت الحكمة
 وصان مجموعة أخرى جلبت من قبرص. يقول صاحب الفهرست: "إن المأمون كانت
 بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم
 يسأله الإذن في إيفاد ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم

فأجاب إلى ذلك بعد استئذان، فأخرج المأمون ذلك جماعة، منهم الحجاج بن مطر وابن
البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا ما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه
إليه أمرهم بنقله فنقل^(١)، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى البلاد الروم و
أحضر المأمون أيضا حنين بن إسحق وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء و
اليونانيين إلى اللسان العربي.

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التي وردت إلى بيت الحكمة، وقد عين
لها مشاهير العلماء لترجمتها ولأن المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذي
يترجمون منه، بالإضافة إلى سيطرتهم على اللغتين اليونانية والعربية، ومن أشهر
الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحق وابنه إسحاق
ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم.

إن المسلمين أخذوا كثيرا من علوم البيزنطيين، والأقباط والمهندوس
الفرس، ولكن من الحق أن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم إلى لغتهم
زادوا عليها وصوروا فيها وصغوها صبغة جديدة، حتى أصبحت علومهم هم، وسارع
العرب حين تبسرت لهم هذه المواد إلى ترجمتها دون إضالة وقت، فترجموا إلى
لغتهم من الهندية ما يعرف الآن بالأرقام العربية، كما ترجموا الحساب بما في ذلك
نظام الكسور العشرية، وأما الجبر (ALGEBRA) فاذالم نقل إنه من اختراهم^(٢)
فمن الواجب أن نعترف بجهدهم في ترقيته والتطوير به.

إن العهد العباسي الأول ليس هو باليقظة الفكرية التي تحت نيه
ولم كانت هذه اليقظة ذات أثر بعيد في الحركات الفكرية والثقافية في العالم،
ولم كانت تعد إلى حد بعيد على الثقافات الأجنبية، وبخاصة الفارسية والهندية
واليونانية، وكان المسلم العربي حاذقاً، ذكياً مشغولاً بالإطلاع، راغباً في الاستفادة والتزود
من هذا الثراء الفكري المريع. ومن هذا كانت استفادته شاملة، وارتفاعه واضحاً،
وسرعان ما سيطر على ثقافته هؤلاء الأقوام، وأصبح يضع يده على أهم مؤلفات أرسطو
الفلسفية وأحسن شروح الأفلاطونية الحديثة، وأكثر ما كتبه جالينوس في الطب،
بالإضافة إلى النتاج الفارسي والهندي، وينبغي ألا نبالي في فضل اليونان على
المسلمين، إذ أن الثقافة اليونانية استمدت قبلنا صرها ومقوماتها من معارف
مصر القديمة، وبابل، وفينيقية، ثم عادت هذه المعارف إلى العالم الإسلامي
وهي في ثوب يوناني، وعن طريق أسبانيا وصقلية عبرت هذه العلوم إلى أوروبا
مرة أخرى من الشرق الإسلامي، إبان العصور الوسطى.^(١)

إننا ننقل لك طرفاً من أسماء الكتب التي ترجمت في ذلك العصر
من اليونانية والفارسية والهندية واللاتينية.

١- الكتب المنقولة عن اليونانية: هي كتاب السياسة: نقله حنين بن إسحق
كتاب المناقب: يحيى بن عدي، كتاب الفوائس نقله حنين ويحيى بن عدي،
كتاب الحيوان، نقله ابن البطريق، كتاب المرأة: لحجاج بن مطر، وطبيعة الإنسان

(١) انظر في الإسلامي والمطبعة الإسلامية. ٢٣٤/٣

نقله حنين وعيسى بن سهرنخت. منافع الأعضاء، التشریح الكبير نقلها جيهن الأعسم^(١).

٢- الكتب المنقولة عن الفارسية: خداينامه في السير، آيين نامه، ليلية ودمنة

لعبد الله بن المقفع، هزار افسانه، هزار داستان، الدب والشعل، لم يذكر ناقلة^(٢).

٣- الكتب المنقولة عن الهندية: كتاب سرود في الطب، نقله منكه، استا نكر

الجامع، صفوة النجج، نقله ابن وهب، كتاب التوفهم في الأمراض والعلى، كتاب

رأس الهند في أجناس الحيّات وسعوتها، لم يذكر ناقلة، ومن نقله في العربية

ابان بن عبد الحميد وعلي بن داود، كتاب سندباد الكبير، وكتاب سندباد الصغير، و

كتاب ادب الهند والصين، وكتاب الهند في قصة صبط آدم، وكتاب بيدبا في

الحكمة. وما نقله العرب عن الهند: كتاب في الموسيقى رُسده في الهندية «بيافر»^(٣)

ومعناه ثمار الحكمة، وفيه أصول الأركان وجوامع تأليف النغم.

٤- الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية: لا ريب أن كثيرا من تعاليم اليهود

وأوابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد نقل إلى العربية، وأما ما وصل إلينا خبره

من المنقول عن العبرانية، فترجمة أسفار التوراة نقلها سعيد الفيومي (٢٣٢) و

أقدم من نقل التوراة إلى العربية، وله شروح وتفسير عليها^(٤).

ولا يبعد أن يكون قد نقل إلى العربية بعض الكتب اللاتينية لأنها كانت

تحتوي كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية، وقد رأينا في جملة المترجمين يحيى بن البطريق

لا يعرف غير اللغة اللاتينية، وإنه ترجم عدة كتب، فإظهار أنه ترجمها عن اللاتينية.

(١) عصر المأمون. ٣٨٤/١ (٢) المصدر نفسه. ٣٨٧/١

(٣) أيضا. ٣٩٢/١ (٤) أيضا. ٣٩٣/١

حركة التصنيف :

مرت حركة كتابة الكتب بمراحل ثلاثة ينبغي أن يتميز

كل منها عن الآخرين، وهنا نذكر بإختصار؛ المرحلة الأولى وهي أدناها وأيسرها، عبارة عن تقييد الفكرة أو الحديث أو نحو ذلك في صحيفة مستقلة؛ والمرحلة الثانية وهي أوسطها شرفاً عبارة عن تدوين الأفكار المشابهة أو أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في ديوان واحد فهنا أحكام نقهية جمعت في ديوان، أو مجموعة من الأحاديث أو أخبار تاريخية وهكذا.

أما المرحلة الثالثة؛ وهي أشهرها فهي مرحلة التصنيف، وهي أدق من التدوين لأنها ترتيب مادون وتنظيمه ووضعها تحت فصول محدودة وأبواب مميزة، قال الزبيدي "وصنفه تصنيفاً جعله أضافاً، وميز بعضها عن بعض، قال الزمخشري. ومنه تصنيف

الكتب".^(١) وهذه المرحلة وصل لها المسلمون في العصر العباسي الأول، وكان الأئمة قبل ذلك يتكلمون من حفظهم أو يرون العلم من صحف غير مرتبة حتى سنة ١٤٣هـ إذ شرع

العلماء المسلمون في تصنيف الحديث والفقه والتفسير وكتب العربية واللغة والتاريخ وأيام العرب، ومن أشهر المصنفين في هذا العصر، مالك بن أنس الذي ألف الموطأ، و

ابن إسحاق الذي كتب السيرة، وأبو حنيفة النعمان الذي صنف الفقه والرأي. ويرجع الفضل إلى أبي جعفر المنصور في توجيه العلماء هذا الاتجاه^(٢)، وقد كان المنصور كما يقول

السيوطي "كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس"^(٣) تلقى العلم

(١) تعقيد العلم . ٨ خطيب البغدادي

(٢) تاريخ الأدب العربي . ٣٠٣ عن زيات

(٣) تاريخ الخلفاء . ١٧٦

تنظيم العلوم الإسلامية

العلوم الإسلامية هي هذه الطائفة من العلوم التي نبعت من طبيعة الحياة الإسلامية، وهي التي تتعلق بالدين ولغة القرآن، ويطلق عليها بعض المصنفين «العلوم النقلية» إذ أن الباحث فيها ليس له إلا أن ينقل ويروي، فالمفسر والمحدث ليس لهما إلا أن يرويا ما تلقياه عن طائفة عن أخرى مرفوعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس للغوي إلا أن ينقل اللغة عن العرب الناص، أو عن سماع سلفهم مباشرة أو بواسطة، ويتضح من هذا أن تسمية هذه العلوم النقلية في هذا العصر الذي ندرسه لم تعد تسمية دقيقة، ذلك لأن علماء هذا العصر استباحوا أن يعتمدوا على العقل والمنطق في الدليل على ما يذهبون إليه، فأصبح المحدث يحكم على هذا الحديث أو ذلك بأنه موضوع لأنه يخالف العقل والمنطق، وأصبح يفتي في مسألة فقهية لم يرد فيها نص صريح باجتهاده وتفكيره، وإن خالف في ذلك من سبقوه من المجتهدين، وأصبح أحياناً يؤول النص للتوفيق بين طوائف النصوص التي يظهر فيها شيء من الاختلاف، أو يحكم بغير ما سجله النص اعتماداً على أن النص روعيته فيه حالة خاصة. ومن أجل ذلك أشرت أن أطلق على هذه العلوم «العلوم الإسلامية» وما يؤيد أن هذا هو علم الكلام بعدد من هذه العلوم، والمتكلمون - كما يقول أحمد أسن - «أظهر عنصر عقل في الحركة العلمية، وهم لا يميلون كثيراً إلى المنقول، ولا يثقون بكل ما فيه ثقة المحدثين وغيرهم، كانت لهم مذاهب مقررّة في العدل والتوحيد وصفات الله وأنعال العباد ونحو ذلك، تثبت لهم بجتههم.

والعلوم الإسلامية تدبر للعصر العباسي بأوصالته إليه من دقة وتنظيم، وكان الحديث عن بعضها، وعمّا نالت من تطور في هذه الفترة من التاريخ.

عن أبيه وعن عطاء بن ياسر، ويروى أنه قابل الإمام مالك في موسم الحج، فأتته في
في مسائل كثيرة من العلم، ثم قال له: يا أبا عبد الله لم يبق في الناس أقمه مني ومنك،
والتي قد شغلتنى الخلافة، فاجمع هذا العلم ودونه، ووطنه للناس لوطنه، وتجنب
فيه شوائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن العباس، وشواذ عبد الله بن مسعود، وأقل
إلى أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم. فاعتذر مالك، فلم يقبل
منه، فوضع كتابه الموطأ، وأثر عن قوله: والله لقد علمت المنصور التصيف^(١).

اختلف المؤرخون في أول من صنف، فقيل الإمام عبد الملك بن عبد العزيز
بن جريح البصري (١٥٥هـ) وقيل أبو نصر سعيد بن أبي عروبة^(٢) (١٥٤هـ) وقيل ربيع بن صريح
(١٤٠هـ) ثم صنف معمر بن راشد (١٥٣هـ) وسفيان الثوري (١٤١هـ) ومالك بن أنس،
(١٧٩هـ) وعبد الله بن المبارك (١٨١هـ).

وسواء أكان هذا أول من صنف أم ذاك، فإن من المتفق عليه
أن هذا العصر هو عصر التصنيف، وأن النتاج العلمي الذي ينشأ عن طبيعة التطور
بالإضافة إلى الاتصال بالنتائج الأجنبية الذي كان قد وصل إلى درجة كبيرة من دقة
التأليف والتنظيم قد كانا من أهم الأسباب التي نقلت النتاج في البلاد الإسلامية
من التدوين إلى التصنيف، ولسنا في حاجة إلى القول أن حركة التصنيف لم
تتوقف بعد ذلك، بل سارت قدما وأخذت طريقها نحو الدقة وحسن الترتيب.

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. ٢١٥/٣

(٢) تاريخ المدن. ٥٢/٣

١- التفسير :

يمكن القول أن هذا العصر شهد ميلاد علم تفسير القرآن، و فصله عن علم الحديث. أما ميلاد علم تفسير القرآن، فلأن ما سبق هذا العهد لم يكن تفسيراً للكتاب المنزل كله، ولا لبعضه مرتباً وإنما كان تفسيراً لبعض آيات من هنا ومن هناك، تعنى لغرض معين، أو يختلف الناس في معناها، وأما في العصر الذي نتحدث عنه، فقد تطور التفسير تطوراً عظيماً، وأصبح متسلسلاً شاملاً، يحكى ذلك ابن النديم يقول: "إن عمر بن بكير كان منقطعاً إلى الأسير الحسن بن سهل، فكتب إلى الغرار: إن الحسن بن سهل ربما سألك عن الشيء بعد الشيء من القرآن، فلا يحضر في فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه، فعلت، فقال الغرار لأصحابه: اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً فلما حضروا خرج إليهم وكان بالمسجد رجل يوزن، وهو من حفاظ القرآن، فالتفت إليه الغرار وقال له: اقرأ بنا تحفة الكتاب، فقرأ ففسرها الغرار ثم استوفى الكتاب كله. يقرأ الرجل ويفسر الغرار. قال العباس: لم يجعل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه." وكان هذا أول تفسير للقرآن كله مرتباً على حسب ترتيب الآيات وكان نائمة لمن جاء بعد ذلك ليسلكوا هذا الطريق، حتى جاء الطبري الذي عشد في تفسيره كل المزايا التي سبقه بها أسلافه (٢).

أما فصل التفسير عن الحديث فقد ظهر في هذه الفترة أيضاً، فقد كان المسلمون قبل ذلك يفسرون آيات القرآن بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أو بأقوال التابعين، فلما

كان العصر العباسي الزاهر استقل تفسير القرآن، وأصبح كثير من المفسرين يلجئون في تفسير القرآن إلى إجتهادهم هم مستعينين أحياناً بحديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يقولون تابعي أو شعر عربي، والمهم أن صلب التفسير أصبح كلام المفسر لا روايات أو أخباراً ينقلها دون أن تبرز شخصيته فيما يدون. وقد مال المعتزلة بوجه خاص إلى استعمال العقل في التفسير؛ وإذا كان المعتزلة قد اتجهوا بالتفسير هذا الاتجاه، فإن علماء الفقه قد اتهموا في تفسيرهم القرآن باستنباط الأحكام منه، واهتم اللغويون بغريب القرآن، واستنبط الخويعون من القرآن قواعد النحو، وهكذا... فكان القرآن قاسماً مشتركاً تلجأ إليه الطوائف الثقافية المتعددة لتجد فيه زاداً يغذي النفس غذاءً روحياً، ومثونة تمد العلوم المختلفة بالخير الأخير.

٢- الحديث :

أهم مظهر للحديث - في العصر العباسي وقبلة بقليل - يظهر التدوين، فقد اختلفت الآراء حيناً بين الصحابة بعضهم وبعض، وبين التابعين، هل من الصلحة جمع الحديث وتدوينه أو لا؟ ثم ذهب هذا الخلاف واستقر الرأي على تدوينه، ولعل أول من خطا في ذلك خطوة فعلية عمر بن عبد العزيز، فعلى الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم، أن النظر لما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته، ما كتبه، ما في خفت دروس العلم وذهاب العلماء

وفي فجر الإسلام أنه كتب إلى أهل الأمان: انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه^(١).

فلما جاز العصر العباسي وانتصف القرن الثاني، بدأ التأليف في الحديث كما بدأ في العلوم الأخرى، ووجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث في أوصار مختلفة وفي عصور متقاربة، ففي مكة جمع الحديث ابن جرير (الروح الأصيل) المتوفى نحو سنة ١٥٠هـ ولم يوثقه البخاري وقال «إنه لا يتابع في حديثه» وفي المدينة محمد بن إسحاق (١٥١هـ) ومالك بن أنس (١٧٩هـ) وبالبصرة الربيع بن صبيح (١٩٠هـ) وسعيد بن أبي عروبة (١٥٢هـ) وحماد بن سلمة، وبالكوفة سفيان الثوري (١٩١هـ)، وبالشام الأوزاعي (١٥٤هـ) وباليمن عمر (١٥٣هـ). وبخراسان ابن المبارك (١٨١هـ) وببصر الميث بن سعد (١٧٥هـ).^(٢)

فنرى من هذا أن الجمع بدأ في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني - غالباً - وأن الفكرة فشلت في الأوصار المختلفة، ومن الصعب تحديد أي صر كان له سبق إلا إذا اعتبرنا أن ابن جرير في مكة كان أسبق هؤلاء العلماء موتاً، فيكون أسبقهم تالياً، وعملت الفكرة الأوصار من طريق الحج، فالعلماء الذين رحلوا إلى مكة أخذوا فكرة جمع الحديث منها أنما حجهم ونشروها في بلادهم وجمعوا ما في مصرهم من الحديث. ولم يصل إلينا من هذه المجموعات إلا موطأ مالك، ووصف لبعض المجموعات الأخرى، ويدل الموطأ وهذا الوصف على أن جمع الأحاديث كان الغرض

الأول منه خدمة التشريح بتسهيل استنباط الأحكام منها، فالملوكا مرتب ترتيباً
نقهيّاً، وقد ذكروا أن المكتب الأخرى كالملوكا قد جمعت أيضاً أقوال الصحابة و
فتاوى التابعين.

وحدثت خطوة أخرى في تدوين الحديث على رأس المائتين، قال ابن حجر في شرحه
على البخاري بعد أن شرح حالة التأليف الأولى، وهي مراعاة الأبواب وخرج حديث
رسول الله بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين: وصنف عبد الله بن موسى العباسي الكوفي
مسنداً، وصنف مسدد بن مسرهد البصري مسنداً، وصنف أحمد بن موسى الأنسي
مسنداً، ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم، فقلّ إمام من الحفاظ إلا وصنف
حديثه على المسانيد. وقد جرى أحمد بن حنبل بعد على هذه الطريقة، ولذلك
سمى كتابه الجامع للحديث "مسند أحمد" (١).

وفي القرن الثالث نشطت حركة الجمع والتفقد وتميز الصحيح من الضعيف، و
تشرى الرجال والحكم لهم أو عليهم، فكان بذلك خير العصور، وفيه الفتأ أهم
كتب الحديث، وكانت الكتب المركبة بعد مستمدة منه وبينة عليه. وشأن الحديث في
ذلك شأن كثير غيره من العلوم كالفقه والخو واللغة وغيرها.

ففيه ألف البخاري (٢٢٥٤) "الجامع الصحيح"، وألف مسلم (٢٢٤١) صحيحه، وفيه
ألفت سنن ابن ماجه (٢٢٧٢) وسنن أبي داود (٢٢٧٥) وجامع الترمذي (٢٢٧٩)
وسنن النسائي (٢٢٠٣) وهي التي تسمى - عادة - الكتب الستة، والتي

عدت أصح كتب الحديث -

ويحقق بحاسن أحمد (٢٤١هـ) والمحدثون يضعون صحيح البخاري و

مسلم في الدرجة الأولى من الصحة -

٣- الفقه :

من مفاخر هذا العصر أئمة عاش فيه أئمة الفقه الأربعة

وهم : أبو حنيفة ^(١٥٠هـ) ومالك ^(١٧٩هـ) والشافعي ^(٢٠٤هـ) وأحمد بن

حنبل ^(٢٤١هـ)، وهؤلاء الأئمة هم بلا منازع أكبر أئمة الفقه في العالم

الإسلامي ومذاهبيهم هي أشهر وأوسع المذاهب انتشاراً حتى العهد

الحاضر -

وهناك طريقتان في التشريع تستحقان بعض العناية، وهما : طريقة

أهل الرأي وطريقة أهل الحديث ؛ فالطريقة الأولى تعتمد على استنباط حكم

ما من النصوص الماثورة، إذ الم يرد لهذا الحكم نص صريح، وسواءً بذلك لإتقانهم

معرفة الحلال والحرام واستخراجهم المعاني من النصوص لبناء الأحكام، ودقة

نظرهم فيها، وكثرة تفريعاتهم عليها. وأما طريقة أهل الحديث فهي التمسك

بالحديث والعمل بالنص وحده، فمنهم يريدون أن يرجعوا الفقه كله إلى

الرسول صلى الله عليه وسلم ويرفضون الأخذ بالرأي^(١).

وقد اتجه زعماء مدرسة العراق إلى الأخذ بالرأي لقلة الأحاديث

المعتمدة عندهم، ولخوفهم أن يكون الحديث موضوعاً مما جعلهم يجهلون الحديث

وليستسهلون الرأي الذي يعتمد على الفكر والمنطق، مع نصوص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أما أهل المدينة موطن الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كثرت عندهم الأحاديث لكثرة من يحفظها هناك، فأغنتهم الأحاديث عن استعمال الرأي والقياس، وكافوا يرون في الإعتاد على هذه الأحاديث منجاة لهم من الزلل. ومن أجل هذا كان الواحد منهم يحيل المسائل إلى سواه من العلماء لعله يجد عند أحدكم حديثاً يغني به، وبينما كان أهل المدينة يتحرزون هكذا من استعمال الرأي كان أهل العراق لا يكتفون بالإجتihad في المسائل التي ليستفتون فيها، بل كانوا يفترضون الفروض ليجتهدوا ويجهدوا،^(١) إذ أن الرحلات لتلقى العلم عاربت بين وجهتي النظر فأخذ المدنيون معهم الحديث إلى العراق، كما أخذ العراقيون معهم فتاواهم وآراءهم إلى المدينة، ثم رحل عدد من كبار الأئمة كمحمد بن الحسن الشيباني الذي رحل إلى المدينة وحرأموطاً مالد، وكالشافعي الذي رحل إلى العراق وإلى المدينة فقال من هذه، ومن تلك.

وما يدل على شغف أبي حنيفة بالرأي والقياس ذلك الحرار الطريف القصير الذي دار بينه وبين حلاق، يهذب له شعره، فقد طلب منه أبو حنيفة أن يلتقط من ذقنه الشعرات البيضاء، فاعتذر الحلاق معللاً إعتذاره بأنه لو التقط الشعرات البيضاء كثرت كثرة ربما طغيت على الشعر الأسود، فقال له أبو حنيفة

(١) في تاريخ الإسلام لابن الأثير: ١٨١/٢

(٢) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. ٢٢٠/٣

إذا التقط الشعر الأسود ليكثر فيطغى على الشعرات البهية^(١)

انقسم الفقهاء كافة إلى قسمين : أهل الحديث ، وأهل الرأي ، وزعيم أهل الحديث مالك بن أنس وأضراره من أهل الحجاز ، وأصحاب الشافعي وأصحاب سفيان الثوري وأصحاب أحمد بن حنبل وغيرهم من أهل التقليد ، وعرفوا بأصحاب الحديث لأنهم بذلوا عنايتهم في تحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ولا يرجعون إلى القياس^(٢)

وزعيم أصحاب الرأي أبو حنيفة النعمان وأصحابه فقهاء العراق منهم محمد بن الحسن الشيباني ، وأبو يوسف ، وزفر بن الهذيل (١٥٨هـ) واللوثي ، وابن سبعة وأبو طريح البلخي وغيرهم . وقد سبوا أهل الرأي لأن عنايتهم كانت توجه إلى تحصيل وجه من القياس ومعنى مستنبط من الأحكام وبناء الحوادث على ذلك وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار^(٣)

وجاء بعد ما مد من أصحاب مذهبه الشافعي ، فرحل إلى العراق ونالط أصحاب أبي حنيفة وأخذ عنهم ، ومنزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق و اختص بمذهب خالف فيه ما كان في كثير من مذهبه ، ثم جاء بعده أحمد بن حنبل ، وكان عليه الحديثين ، قرأ أصحابه على أصحاب أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث ، فاختصوا^(٤) بمذهب آخر . وقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ، وتولدت منهم مذاهب الإسلام الأربعة : الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي .

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية . ٢ / ٢٢١

(٢) في تاريخ المذاهب الفقهية . ٢ / ٤١

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية . ١٩ / ٢ (٤) في تاريخ المذاهب الفقهية . ٢ / ٢٠٥

٤- التاريخ :

كما كان الحديث أباً لعلم التفسير كذلك كان أباً لعلم السيرة : فإن أول

ما عني به - من التاريخ الإسلامي - سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما يتبعها من غزاه ، وأن هذا النوع من التاريخ اعتمد على شيئين : الأول ما كان دأراً بين العرب عن أخبار الجاهلية كأخبار جرهم ودفن زفرهم ، وأخبار قص بن كلاب وغلبيته على أمركة وجمعه أمر قريش ، وقصة سد مأرب^(١) ونحو ذلك .

والثاني أحاديث رواها الصحابة والتابعون ومن بعدهم عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من ولادته ونشأته وبعثته ودعوته إلى الإسلام وما عاناه في مكة ، وكيف استقبل في المدينة ، وكذلك كافتا يروون الأحاديث المتعلقة بجهاذه مع المشركين وغزواته ، وباستعداده لنشر الإسلام في خارج جزيرة العرب ، وعلى الجملة أخباره إلى حين وفاته . وكأنه الأحاديث فيه متفرقة يوم كان الحدث يجمع كل ما وصل إليه علمه من غير ترتيب فلما رتب وضمنت الأحاديث ، والأحاديث المتعلقة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته تحت عنوان خاص هو « باب المغازي والسير » ولا يزال هذا الباب موجوداً في أشهر كتب الحديث كالبخاري ومسلم مع بعض الاختلاف في تسميته^(٢) . ففي البخاري « كتاب المغازي » وفي مسلم « كتاب الجهاد والسير » وفي مسند أحمد « كتاب المغازي » . وكان هناك من الصحابة والتابعين من يهتم إهتماماً خاصاً بهذا النوع من الحديث ، ومن هنا نبتت فكرة استقلال علم السيرة عن الحديث .

ناول من عرف بالتأليف في المغازي أربعة: وهم في الطبعة الأولى، أبان بن الخليفة عثمان بن عفان (١٠٥هـ) وعمرو بن الزبير^(٩٩هـ) وشرحبيل بن سعد (١٢٣هـ) ووصب بن منبه اليمني (١١٠هـ)، ثم جاءت بعد هؤلاء طبعة أخرى عنيت بالمغازي من أشهرهم: عبد الله بن أبي بكر بن حزم مدني (١٣٥هـ) وعاصم بن عمر بن قتادة مدني (١٢٠هـ) وابن شهاب الزهري مكي (١٣٤هـ). وجاءت بعد هؤلاء طبعة أخرى في العصر العباسي أشهرهم: موسى بن عقبة، وعمر بن راشد، وابن إسحاق، والواقدي.

فلما جاز العهد الذهبي الذي نتحدث عنه، لانت هذه الفكرة مدقوت ووجدت من ينفذها تنفيذا علميا دقيقا، وهو محمد بن إسحاق (١٥٢هـ) وكتابه في السيرة أقدم كتاب نعرفه في هذا الموضوع، وقد وصلنا هذا الكتاب بعد أن اختصره ابن هشام (٢١٨هـ) في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام^(١).

فإن نحن وصلنا إلى ابن إسحاق والواقدي، فقد وصلنا إلى أكبر مؤرخي العصر العباسي الأول، ومن كان عليهما يعتمد أكثر المؤرخين الذين جاؤوا بعدهما.

نشأ محمد بن إسحاق في المدينة، ولحق كثيرا من علماء المدينة وأخذ عنهم الأحاديث، وخاصة بالمغازي حتى اشتهر بها^(٢) فلما قامت الدولة العباسية رحل إلى العراق، والتصل بالمنصور وطلب منه أن يصنف كتابا لابنه المهدي منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى يومه. ففعل، فاستطاع المنصور ناخضره في هذا الكتاب المختصر، وألقى الكتاب الكبير في خزانة المنصور. كذلك اتصل ابن إسحاق بغير المسلمين من يهود و نصارى و مجوس، ونقل عنهم، فينقل

(١) تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية. ٢٢٥/٣

٣٢١/٢

(٢) فقه الإسلام .

عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول وعن أهل التوراة، وقد خلف ابن إسحق في هذا الباب وصحبه بن منبه. وكان له تلاميذ يرون عنه كتابه معهم البكالي الذي أخذ عنه ابن هشام، ورسالة بن الفضل الذي يروى عنه الطبري أكثر ما يروى عن ابن إسحق.

الواقدي. كان واسع العلم بالمغازي والسير والتاريخ الإسلامي عامة، وكان أعلم الناس بأمر الإسلام، فأما الجاهلية فلم يعمل فيها شيئاً، وكان كثير الكتب، كثير التأليف، عدله ابن النديم كتباً كثيرة ألفها أكثرها في التاريخ^(١).

وقد كانت كتبه عمدة للمؤرخين بعد اقتبسوا منها وصلت إلينا مقتبساتهم، والواقدي كتاب اسمه «التاريخ الكبير» مرتب على حسب السنين اقتبس منه الطبري كثيراً في تاريخه. وله كتاب الطبقات ذكر فيه الصحابة والتابعين مرتبين حسب طبقاتهم ويظهر أن كاتبه «ابن سعد» قد حذا حذوه وسار في كتابه على منهجه، وكان الواقدي من أكبر المصادر التي عمل عليها الطبري في تاريخه^(٢).

ابن سعد - الذي كانت شهرته «كاتب الواقدي» وقد خلف لنا محمد بن سعد كتابه القيم الطبقات الكبير في ثمانية أجزاء.

وهناك ناحية أخرى اتجه إليها المؤرخون بجانب إتجاههم إلى السيرة، وهي تاريخ الحوادث الإسلامية من حروب بين بعض المسلمين وبعض. كوقعة الجمل، صفين، ومن حروب المسلمين مع الأمم الأخرى، من فرس وروم وصناد وغيرهم، وما تبع ذلك من فتوح وأحداث. فالمؤرخون في هذا العصر ينقسمون إلى أربعة أقسام: (١) مؤرخو الفتوح،

(٢) مؤرخو أخبار العرب وأنسابهم (٣) مؤرخو البلدان والأئمة. أو التاريخ الخاص، (٤) مؤرخو التاريخ العام، (٥) أئمة أشهر من ألف في كل قسم من هذه الأقسام.

١- مؤرخو الفتوح ١: ابن عبد الحكم (٢٢٥٧) من أهل مصر. وله مؤلف واحد كبير اسمه «فتوح مصر

المغرب والأندلس» ٢- البلاذري (٥٢٧٩) وهو خاتمة مؤرخي الفتوح، وله كتاب «فتوح البلدان» هو أشهر كتبه ويظهر أنه مختصر من كتاب أطول منه سماه «كتاب البلدان الكبير» لم يتمه نالتقى بهذا المختصر.

٢- مؤرخو أخبار العرب: ١- محمد بن حبيب (٢٢٤٥) وله كتاب القبايل والأيام الكبير، هو أهم

كتبه، ألفه للفتح بن خاقان، و«كتاب الحبر» وهو عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والخلفاء.

٢- الزبير بن بكار (٢٢٥٦) وله كتاب نسب قریش وأخبارهم، و«المعقبات».

٣- مؤرخو التاريخ الخاصة أو البلدان والأئمة: ١- الأزرقي. وله كتاب «أخبار أيام مكة».

٢- ابن طيفور (٢٢٨٠) وله «تاريخ بغداد» ولكن لم يصلنا منه إلا الجزء السادس، يحتوي على تاريخ الامون.

٤- مؤرخو التاريخ العام: ١- البيهقي (٢٢٧٨) وله في التاريخ كتاب يعرف «بتاريخ البيهقي».

٢- أبو حنيفة الدينوري (٢٢٨٢) وله مؤلفات عدة ضاعت، وأهم ما وصلنا من كتبه كتاب «الأخبار

الطوال» في التاريخ العام.

٣- ابن جرير الطبري (٢٣١٠) وله «كتاب أخبار الرسول والمسلمين» ويعرف «بتاريخ الطبري»

وهو تاريخ عام يبدأ بالخليفة وينتهي إلى سنة ٢٢٠٢ هـ.

٤- ابن البطريق (٢٢٢٨) وله كتاب «نظم الجوهري» في التاريخ، من عهد آدم عليه السلام إلى

سنة الهجرة، وينتهي إلى سنة ٢٢٢١ هـ من الدولة العباسية.

تطور العلوم الأدبية واللغوية

لما جاءت دولة العباسيين وقامت أركانها على سواعد العجم وولف إليها السريان واليهود والفرس، وضمته الدولة إلى أحضانها، وأفرجت لهم بين ذراعيها وأنزلتهم في كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيرات، وتقدموا لها بتران أبا علم وعصارة قرائح علماءهم، عدلوا ميراثهم إلى ميراثها، تطورت الحالة العلمية والأدبية تطوراً باهراً، والتسعت دائرة المعارف وتشعبت أغراض اللغة وشتم كل ذي فضل في تدوين العلوم ومراسيمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآداب ازدهاراً نقاداً والقوة، ما انتظمت رخاء الدنيا وسعادة الإنسان، وازينت بالبحر الحكمة وأبراهين العقلية، وتولى كبرؤك بشار وأبو نواس وابن المقفع وأضرابهم، وأدخلوا إليها الجديد عن طريق المجاز والقياس والإشتقاق، ولم يخرجوا من احتمال الألفاظ الأنجسية في أسماء الألوان والأنية والفرش، وتألقوا في صوغ العبارات وإحكامها حتى مال بعضهم إلى السجع والازدواج وإن الحياة الأدبية في صدر العصر العباسي ما أخذت تتحول إليه الآداب العربية عامة في الألفاظ والأساليب والمعاني والأغراض، وبيناً لك الأسباب التي كانت تبعث على هذا التحول، من شدة الإشتراج بين العناصر المختلفة التي خضعت لسلطان العرب بالغرب، وما استتبعه هذا الإشتراج من إضافة ثقافات ومدنيات جديدة، ومن التماس السلطان وامتداد أطرافه ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن إضرافهم أولى الفضل إلى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات الناس وتنوعها حتى اضطرت

اللغة أمام هذه العوامل وغيرها طبقاً لتقتضيات العصر وخضوعاً لسنة التحول.
وعلى الجملة أن آداب اللغة قد تجدد إلهابها وانفجرت شعابها
ونوعت أساليبها بما دخل عليها من نعيم الدولة وترف الحضارة واهتوته من
العلوم والفنون حتى كانت سيدة لغات العالم جميعاً.
ونذكر هنا هذه التطورات الأدبية واللغوية بشيء من التفصيل -

١- الشعر

لا يقدر العرب من علوم الحياة وفنونها شيئاً أكثر من
تقديمهم الشعر الذي استودعوه أفكارهم وأخبارهم، وحفظوا به فخرهم ومناسبتهم
وساقتوا به الجيوش والمجامل، فذكرت عروشاً وأبادت ممالك، ضمنوه من أخلاقهم
وعاداتهم ما جعله مكان فخرهم ومفزع أمرهم، فكانت تجد العربي يسبح البيت
من الشعر فيترنح ترنح النشوان، ويشور حتى كأنه جبل نار وكثيراً ما سجدوا أمامه
لكأنه من نفوسهم. وقد روى الأصمعي وغيره من ذلك شيئاً كثيراً.

وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كل عصره العربية، ولم ينل منه أن
الدولة العباسية قامت على سواعد الفرس، وحلوا منها مكان الصدور والحكام؛
فإن الخلفاء والسادة وجمهرة الأمراء والأدباء كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤساء
عربية حفظوا فيها تراث آبائهم ومفاخر أجدادهم أقبلوا على الشعر وإنشاده و
كانوا هم أنفسهم يقرضون الشعر.

وكثير من الأمراء والوزراء الذين عرفوا للشعر منزلة، فاستعانوا به

على أغراضهم السياسية^(١) كما كان الأمويون يستعينون به فيها. وحسبك أن نقول
لك: إنهم لم يستعملوه في المناخلة وفي إثارة العصبية واستحقاق الخلافة، وكثيراً
ما كانوا يستشفعون بالشعر والشعراء ويحاولون به على قضاء حاجاتهم، ويقدمونه
أمامهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الغضب.

وكان الشعراء يلعبون دوراً هاماً في الحياة الحزبية، وأن الخلافة
شعراء اختصوا بهم، كآبي دلامة، وصناد بجرد، وبشار بن برد، وصروان بن أبي خفصة
وسلم الخاسر، وآبي نواس، ومنصور النخعي وغيرهم^(٢). وللمملكة شعراء أمثال أبان
بن عبد الحميد، وابن منذر والرقاشي وغيرهم. وللسائر الأمراء شعراء، وهناك
شعراء لم يكتبوا بالشعر كصالح بن عبد القدوس، وشعراء للشيعة كالسيد الجعفي
وسليمان قتة، ودعبل، وشعراء لم يتحضروا كربيعة الرقي، وكثوم بن عمرو
العتابي وغيرهم.

على أن الشعراء العباسيين قد تفتنوا في أنواعه أياً تفتن من قول في المهاجة إلى
قول في الأخلاق، إلى ملج إلى تضحك، إلى وصف، إلى هجوم الخلفاء برضاهم إلى مدحهم.
وعلى الجملة فقد استعملوه في كل غرض من أغراض الحياة من مناخلة وخمرات وزهديات
ورثاء كما أن منهم من ذكر الوقائع العربية في شعره، متأثر بالشعراء وأتروفا.
وسكن الشعراء الآطام والنصور واقتنوا الألف الحسانة من الحداث وشاهقات
الدور واستخدموا الجوارس والعلماء، وامنوا في شهوراتهم ولذا تم، وتنعوا

بحطام الدنيا ومراهمها، نسهلت الفاظهم، ورقت طباعهم^(١).

هذا الترف الذي شغل القوس يضاف إليه اختلاطهم بالأعاجم وما كان لهم في ذلك الوقت من حرية في التصور والتفكير، جعلهم يفقون في اللغة العربية فتحة جديدة يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان فيدخلونها في أشعارهم وأثارتهم وتمتد أيديهم إلى كثير من اللفظ الأجنبي يصورون ما جاد به النعيم وما استلزمته الحضارة. وقد أشرنا في كلامنا قبل هذا عن حالة الشعر وضمونه في صدر العصر العباسي إلى ما أخذ يتحول هو إليه أيضا تبعا لمقتضيات العصر وظروف الزمان ومسيرة الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر - إلى حد ما - مرآة صادقة لأحواله وما كان يجري فيه من شؤون.

اسرف الناس في شرب الخمر، فافتن الشعراء في وصف الخمر ووصف كؤوسها وتخيّر الناس السقاء بن الغلمان ومن في زنى الغلمان، فوصف الشعراء السقاء و تغزلوا في الغلمان، وولع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يجري في مجال الصيد^(٢)، ونقحوا المجال واسعا لخيال الشعراء في شتى الأبواب.

اشتدت المناخسة السياسية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كل فريق ينضحون عن رأيهم ويؤيدون مذهبهم، وألف العلماء في الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نظم الفقه والأخلاق والكلام، وهكذا تعددت أغراض الشعر وتنوعت ألوانه.

وتحضر الناس في بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية، فرقت
 طبائعهم، ولانت أخلاقهم، ونبت عن الحراشية أذواقهم، فرق شعراء أهل الحواضر
 وسلسلت ألفاظه وبعدت من الحوشية وترجمت العلوم اليونانية وغير اليونانية
 من فلسفة ومنطق، فكان لهذه العلوم أثرها في تنظيم أفكار الشعراء ودقة
 خيالاتهم (١).

وإثنا نحيلك على آثار شعراء هذا العصر، كآبي نواس في الخمر وكووسها
 وأوقات شربها وسقاتها والغزل بالغلان، والصيد والطرد ووصف مظاهر
 الحضارة العباسية، وكرد علي الخزاعي والسيد الحميري في النزاع السياسي بين
 العلويين والعباسيين، وكآبي العنابية في الأخلاق والزهد، وأبان بن عبد الحميد
 في نظم العلوم كالفقه وغير الفقه، وجماعة موية يعتد بها في هذا العصر، كانت
 تميل إلى إثارة الشعر القديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال
 الشعر الجديد. وليس معنى ذلك أن شعر المحدثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القدم
 بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة في النفوس.

واشتهر في هذا الباب في العصر العباسي هم: بشير بن برد، وأبو العنابية، و
 أبو نواس، وأبو تمام، والبحتري، والمتنبي والبغراس، وعبد الله بن المعتز وغيرهم.

٢- النشر.

أصبح الأدب في هذا العصر شاملاً لجميع المعارف التي يتحلى بها الإنسان
 وأصبح الأديب خزانة للعلم والثقافة، ولهذا اتجه التأليف شطر المجالات الشعرية

والنثرية، والنظريات في الفنون والعلوم والأبحاث في الكتابة والنقد والتاريخ وما إلى ذلك.
 وإن النثر قد تطور أيضا بفضل العوامل وهي احتكاك الثقافتين العربية
 والفارسية وبما ترجم عن الفارسية من آثار أدبية، وما نقل عن اليونانية من المسائل
 العقلية المنطقية. وكان لتطور الإدارة أثر كبير في تطور النثر، ومن مظاهر ذلك
 نشوء الأسلوب السهل المرسل بعد أن كان الأسلوب المتعبد هو أسلوب الإيجاز البليغ
 وسبب ذلك أن هذا الأخير لم يعد يليق بمتطلبات الحياة الواسعة الشاملة.^(١)
 وقد تأثر النثر العربي بالنثر الأجنبي، ويمثل هذا التأثير الظاهر ابن المقفع
 الذي يعتبر إمام النثر في زمنه، وكتابه المشهور كليله ودمنة خير دليل على التفاعل
 الثقافي بين العرب وسواهم.

ومامت الكتابة في ذلك العصر على نوعين: الكتابة الأدبية أو كتابة الرسائل
 وهي التي كانت تصدر عن ديوان الرسائل في الدولة، وتدعى بالرسائل السلطانية
 والرسائل الإخوانية التي كانت تتبادل بين الأصدقاء في المناسبات، وقد ظهرت أولا في
 العصر الأموي، ثم الرسائل الأدبية وهي التي كان يكتبها البلاغ في الأخبار والسير
 والنقص، أو في أي شأن من شؤون الدولة أو في المنهج والتوجيه والإرشاد،
 كرسالة الصحابة لابن المقفع ورسائل الجاحظ ومولفاته الكثيرة ككتاب الجلاء و
 كتاب الحيوان. وقد اشتهر في باب النثر الأدبي هم: عبد الله بن المقفع صاحب كليله
 ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير. والجاحظ مؤسس المدرسة الثانية في النثر العربي^(٢)

وله كتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب البيان والتبيين. وأبو الفرج الأصبهاني صاحب
 "الأغاني" وابن قتيبة صاحب "عيون الأخبار" وكتاب أدب الكاتب، والمبرد صاحب "الكامل"
 والثعالبي صاحب "يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر".

وهذه الكتابة الأدبية أدخلت بادئ الأمر على دواوين الدولة في أواخر
 العهد الأموي على يد عبد الحميد الكاتب، ثم انتقلت إلى العصر العباسي، ونمت ونضجت
 ونبغ فيها كثيرون. أشهرهم: يحيى بن خالد، والصاحب بن عباد، وابن العميد.
 وكذلك أدخل في هذا الدور التسجيل في المراسلات، ثم أدخلت المقامات
 في أواخر القرن الرابع الهجري على يد بدیع الزمان المهداني، ثم الحريري.

ونذكر هنا في القصة والمقامة، والترسل اختصاراً.

القصة : اهتم العرب بالقصة إهتماماً شديداً حتى إذا كان العهد العباسي

وشعر الناس في مختلف طبقاتهم بحاجة إلى التسلية أو بحاجة إلى إيقاظ الهمم
 فام لهم من يروى على مسامعهم قصص التسلية أو قصص البطولة.

وراح الناس يتنافسون في وضع الأخبار وجمع الأسرار^(١)، وإذا الأقصوصة تنشأ
 عن المثل، وإذا الحكاية تنشأ عن الأقصوصة، وإذا القصة تنشأ عن الحكاية، وإذا
 السمر حكاية السمرات، وإذا الفكاهة حكاية المضحكات أو أقصوصة المهازيل.

والعرفاء ميدان واسع للحكاية التي يرويها بلغاء الكتاب لعظماء الناس في
 أسلوب الروعة والفن والإيجاز وفي ثوب عربي النزعة^(٢)، من أشهر الكتب في هذا
 العصر عند العرب كتابان وهما: "سيرة عنترة" و"ألف ليلة وليلة"، والسيرة وهي حاملة

بالحوادث التاريخية والحياة الصحراوية، وألف ليلة وليلة، وهو مجموعة حكايات وأسعار.
المقامة : وتدرجت القصة شيئاً فشيئاً فجدلت في هذا العهد مركباً لإظهار البراعة
 والمهارة في اللغة وما إليها من علوم، وقد اطلق عليها إز ذلك بديع الزمان المهنداني
 اسم مقامة وعنى بها، فالمقامة حديث قصير أجرى على أسلوب قصصى وضمن مجاميع
 من أساليب اللغة العربية قصد التعليم^(١)

فليست المقامة قصة بالمعنى الدقيق وإنما هي حديث لغوى حاول واضعه أن
 يجعله شيئاً ما دخل فيه الحمار والقصص الخيلة، وكان هم صاحبها أن ينشر معلوماته اللغوية
 والبديعية. وقد اشتهر من أصحاب المقامات لهذا العهد، بديع الزمان المهنداني، أبو محمد الحريري.

الترسل : راحت الرسالة في هذا العهد تتطور أيضاً، وقد خرجت شيئاً فشيئاً
 عن كونها حديثاً يهدف إلى التفريج عن القلوب أو التوسية أو ما يرا ذلك.

وانزلقت في تيار الزخرفة والتضع، حتى أصبحت ميداناً لإظهار البراعة، وصنعاً من
 التطريز والتوشية وبساتاناً زاهى الألوان سحر النواظر وما أخذ بمجاميع القلوب^(٢). وقد
 اشتهر في هذا الباب: ابن الحميد والقاضى الفاضل، فكانا زعيمين مدرستين كبيرتين انضم
 إليهما عدد من الكتاب من أمثال أبي بكر الخزازي، والصاحب بن عباد وبديع الزمان المهنداني
 وكانوا أئمة البلاغة العربية في أزهى عصور العرب.

الخطابة : أما الخطابة فقد كان لها الصدارة في العهد العباسي لأنها كانت إحدى الدعائم التي
 ساعدت على تثبيت حكم العباسيين وسلطانهم. وقد ازدهرت في العصر العباسي الأول^(٣)، ولكنها عادت و
 تقهقرت بعد ذلك وأشتهر خطباء العهد الأول: السفاح، المنصور، والرشد، جعفر الصادق، والنفق الزكية.

٣- اللغة :

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا إلى ضبط معاني ألفاظه و
تفهم أساليب عباراته ، فخرجهم ذلك إلى البحث في أساليب العرب وأحوالهم وأشعارهم
وأمثالهم ولا يكون ذلك سالماً من العجبة أو الفساد إلا إذا أخذ عن عرب البادية الذين
كانت قرينتهم في الجاهلية تتخير من ألفاظهم وأساليبهم . فعنى جماعة كبيرة من المسلمين
في الرحلة إلى بادية العرب والتقاط الأشعار والأمثال والسؤال من أمواه العرب
عن معاني الألفاظ وأساليب التعبير وسهموا في إشغال بذلك من ما يتبعه من صرف
ونحو وبلغة بعلم الأدب .

والقبائل التي نقلوا عنها العربية : قيس و " تميم " و " أسد " وعن هذه القبائل
الثلاث أكثر ما أخذ من اللغة وعليها عمل الناطلون في الغريب والإعراب والتصريف .
وكان أكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لما جلبتهم إلى ذلك أكثر من العرب .
ومن أقدم المشتغلين في جمع اللغة والأدب وأوسعهم حفظاً ورواية في العصر
العباسي . هو أبو عمرو بن العلاء النخعي (٢١٥٤هـ) . ونبغ في العراق جماعة كبيرة من
طلاب الأدب واللغة في القرن الثاني للهجرة أشهرهم أربعة في عصر واحد وهم :
أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي والخليل ، وكان العلم كله عندهم ، والثلاثة الأول
أخذوا عن أبي عمرو بن العلاء اللغة والنحو والفن والقراءة .

فأبو زيد (٢١٤هـ) كان من رواة الحديث ثقة في اللغة وأخذ عنه سيبويه ، وأبو عبيدة
(٢٠٩هـ) كان أعلم الجميع بأيام العرب وأخبارهم وأجمعهم لعلومهم ، والأصمعي (٢١٣هـ)

غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده (١).

وأما الخليل بن أحمد (٢١٧٠هـ) فإنه أسبقهم جميعاً وقد لقبوه بسيد علم الأدب لأنه أول من دون اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور "بكتاب العين" سواه بذلك لأنه رتب على الحروف باعتبار مخارجها من الحلق، فاللسان، فالأسنان، فالشفقتين (٢)، وكان من عادات العرب أن يسووا الكتاب بأول لفظ من الفاظه لكتاب المعجم للمهروس، وكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني (٣)، ومن هذا القبيل كتاب العين في الحروف وكتاب اليم ونحوها.

وكان الحفاظ والرواة يرقعون فيما يأخذونه عن العرب من شعراً أو غير ذلك وما يسبحونه من معانيها لأن عليها يتوقف تفسير القرآن ولذلك فإنهم تحدوا في نقل اللغة طريقة الإسناد المتسلسل، كما كانوا يفعلون في رواية الحديث وعنى الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه لإعتبارهم أن ناسل اللغة يجب أن يكون عدلاً كما يشترط في نقل الحديث لأنها واسطة تفسيره وتأويله. على أنهم لم يستطيعوا ذلك تماماً.

وزها القرن الثاني وبعض الثالث في البصرة والكوفة، ونبغ فيها النخاة والرواة والحفاظ والأدباء والشعراء، والبصرة متقدمة في ذلك وأهل الكوفة يأخذون عن أهل البصرة، وما زال هذان المصران مصدر العلوم الإسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم إليهما، وأشهر علماء الكوفة الكسائي (٢١١٢هـ) وتلميذه

ابن خلدان

٣٤٤/٢

(١) وفيات الأعيان.

زيران

١٤١/٢

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية

السيوطي

٩١/٢

(٣) المزهر

الغراء (٢٧٠) (١) وعلي الإحمر الحياتي وغيره، كما اشتهر في البصرة سيبويه، واشتهر
الذين تركوا الأصول واعتدوا على الفروع منهم في عصر الغراء عبد الله بن سعيد الأسدي
وأبو الحسن الأحمشي الكوفي، وأبو عكرمة الضبي، وأبو عمرو الشيباني وغيرهم.
وآل الأمر بعد لفتح علم الأدب واللغة في العصر العباسي إلى أربعة هم
أركانهم وعمدته دونوا علمهم في كتب شهيرة هي: "أدب الكاتب" لابن قتيبة،
"الكامل" للبرد، و"البيان والتبيين" للجاحظ، و"كتاب النوادر" للقي، وهذه
الكتب مصادر علم الأدب عند العرب إلى الآن وأكثر ما ألف بعدها نقل عنها.
ولما قدم العباسيون أهل الكوفة ارتفعوا في عين أنفسهم وأرادوا
مسابقة أهل البصرة ومفاخرتهم، فعادت الجادات بين البلدين في مسائل
كثيرة في النحو والأدب واللغة، أشهرها مسألة الزنبور والتملة التي انتشرت
نارها بين سيبويه من البصرة والكسائي من الكوفة، ويدل ذلك على عناية
أهل الدولة بالمسائل الأدبية وإن كانت في الواقع لا تخلو من غرض سياسي،
على أنهم كانوا يهتمون بالأدب من أيام بن أمية خاصة في أيام عبد الملك بن مروان (٢)
وكانت علوم اللغة في أول أمرها مشتركة مختلطة ثم تميزت وتشعبت
فصارت علوما عديدة كل منها مستقل عن الآخر كالنحو والصرف واللغة والعاني والبيان
والاشتقاق والعروض والقوافي وأخبار العرب وأمثالهم والمجول وغيرها، وقد
يطلقون عليها علم الأدب ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ أدب اللغة.

٤- النحو :

حفل العصر العباسي الأول بأئمة النحو الذين شيدوا أركانه وأماموا دعائمه في مدرسته العظيمة : البصرة والكوفة ، فمن عاش في هذا العصر من أئمة النحاة البصريين عيسى بن عمر الشقفي (١٤٩هـ) وأبو عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) والخليل بن أحمد (١٧٥هـ) والأخفش (١٧٧هـ) وسيبويه (١٨٠هـ) ويونس بن حبيب (١٨٢هـ) ، ومن الأئمة الكوفيين أبو جعفر الرواسي ، والكسائي (١٨٩هـ) والغراء (٢٠٧هـ) . ولانزاع أن من يطلع على هذه الأسفار يدرك أننا حتى الآن نعتمد في الدراسات النحوية على النتائج والأفكار التي ظهرت في هذا العصر الزاهر .

وكانت مدرسة البصرة تختلف اختلافاً بيناً عن مدرسة الكوفة ، فالأولى كانت تعنى بوضع قواعد أساسية للغة العربية تبعاً لأغلب ما ورد عن العرب ، فإذا ظهر ما يخالف هذا الغالب عدوه شاذاً ، فإذا ثبتت صحته قالوا يحفظ ولا يقاس عليه ، وربما ضعفوا قائله أو خطئوه^(١) ، وقد ترجم ابن خلكان لعيسى بن عمر الشقفي أحد زعماء هذه المدرسة وأول من ألف في النحو بعد أبي الأسود الدؤلي (٢٦٧هـ) ، وتتضح من هذه الترجمة قيمة النتائج العلمية الذي وضع في هذا العصر ، كما تتضح منها الأسس التي قامت عليها مدرسة البصرة ، قال ابن خلكان ولعيسى بن عمر كتاب في النحو سماه "الجامع" ، يقال إن سيبويه أخذه وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل البحث والتحشية نسب إلى سيبويه

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية . ٢٢٢/٣

وهو كتاب سيبويه المشهور والذي يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل بن أحمد، سأله الخليل عن مصنفات عيسى، فقال سيبويه: صنف نيفا وسبعين مصنفًا في النحو، ولم يبق منها في الوجود سوى كتابين أحدهما: "الإكمال" والآخر "الجامع". ويقال إن أبا الأسود الدؤلي لم يضع في النحور إلا باب الفاعل والمفعول فقط، وأن عيسى بن عمر وضع كتابا على الأكثر.

وقد بدأت مدرسة الكوفة متأخرة عن مدرسة البصرة، بل إنهما تفرعت عنها، ومنشأها أبو جعفر الرؤاسي. وقد احتضنها الخلفاء العباسيون وقربوا زعمائها وكان التناحس على أشده في عهد الرشيد بين سيبويه والكسائي اللذين اتهمتا إليهما رئاسة المدرستين في ذلك الحين. ويذكر ابن خلكان قصة المناظرة التي حدثت في مجلس الرشيد بين سيبويه والكسائي بشأن النحلة والزنبور، وهي أشهر من أن تذكر.

ولانت الأسس التي راعتها مدرسة الكوفة أكيسر كثيرا من تلك التي تمسكت بها مدرسة البصرة، فقد كان الكوفيون يقبلون كل ما فطن به عربي ويتخذونه على اتجاه عربي يجوز تقليده ويرتبون عليه القواعد. روى لهم قول الشاعر:

يا ليت عدة حولي كله رجب

فأجازوا لذلك أن تؤكد النكرة بالمعرفة إذا كانت النكرة مؤقتة، وقاسوا على ذلك جواز قولك: سميت شهرا كله وتمجدت ليلة كلها، أما البصريون فطعنوا

(١) وفيات الأعيان. ١٥٥/٣

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية. ١٣٠/٢

(٣) تاريخ الإسلام والخصارة. ٢٢٤/٣

أولاً في نسبة الشطر، وثانياً قالوا: إذا صححت نسبة هذا الشطر إلى عربي فهو شاذ لا يقاس عليه^(١) وهكذا نشأت مسألي خلافة بين البصريين والكوفيين، جمع كثير منها الأنباري في كتابه "الإيضاح في مسائل الخلاف".

الكتب المشهورة في علم النحو.

"الكتاب" لسيبويه، وألف المكسائي عدة كتب في النحو والقراءات ولم يصلنا منها إلا رسالة في لحن العامة منها نسخة في مكتبة برلين^(٢)، كتاب معاني القرآن، و"كتاب المذكر والمؤنث" لفراء، كتاب "إصلاح المنطق" لابن السكيت، كتاب "الفصح" كتاب قواعد الشعر، و"كتاب الأمالي" لأبي العباس ثعلب، كتاب "سر النحو" كتاب الإبانة والتفهم عن معنى بسم الله الرحمن الرحيم، لأبي إسحق الزجاج، كتاب (الأضداد في النحو)، و"كتاب المهاديات في كتاب اللام" لابن الأنباري، كتاب "إعراب القرآن"، كتاب معاني القرآن لأبي جعفر الخاس. كتاب الجمل في النحو، "الأمالي في اللغة" لأبي القاسم الزجاجي، رسالة في إعراب ثلاثين سورة، لابن خالويه، كتاب العروض للمع في النحو، لابن جني.

٥ - النقد :

إذا وصلنا إلى النقد في العصر العباسي رأينا إسماعيلاً في الحضارة وإسماعيلاً في الترف ورأينا الشعر والأدب يتحولان إلى فن وصناعة بعد أن كانا يصدران عن طبع وسليقة حتى نرى كثيراً من الكتاب والشعراء من الموالي الذين عدوا عرباً بالمهرج. ورأينا الثقافة تعظم وتوسع وتشمل فروع المعرفة

كلها لا تقتصر على الثقافة الدينية والأدبية، ورأينا الثقات الأجبية تدفق
على المملكة الإسلامية من فارسية وهندية ويونانية، ورأينا كل مجموعة من المعارف
تتحول إلى علم حتى اللغة والأدب والفن، فكان طبيعياً أن يتحول الذوق الفطري
إلى ذوق مثقف ثقافة علمية واسعة وأن يتأثر النقد الأدبي بهذه الثروة
العلمية والأدبية الواسعة^(١).

ولو تتبعنا ما روى لنا من النقد في هذا العصر لرأيناه يتجهماً تجاهين
أوساكر على نمطين: نمط منه هو إمتداد النقد الجاهلي أو الإسلامي مع
اتساق البيئة من تحول؛ من ذلك أن العلماء باللغة والأدب من العبّاسيين
أشكال الخليل، المكسائي، والأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء كانوا يستعرضون الشعراء
السابقين من جاهليين وإسلاميين ويتذقون شعرهم ويبدون فيه رأيهم.
أما النمط الآخر الذي كان جديراً لم يسبق إليه فهو النمط العلمي في النقد،
نمط التأليف ووضع الكتب لا تعرض إلا للنقد وما يتصل به.

ولابأس أن نذكر هنا ظاهرة حدثت في أوائل العصر العبّاسي خاصة بالنقد
وهي إنقسام الناس إلى معسكرين يصح أن نسميها: حزب الأحرار وحزب
المحافظين، وكان لكل من المحافظين والأحرار أثر بين في الأدب، فأثر الأحرار ميل بعض
الشعراء إلى التحرر من القديم والتقليد، وأثر المحافظين تخوف كثير من الشعراء
أن يخرجوا على التقاليد القديمة، فيثيروا سخطهم ونقدهم^(٢).

على كل حال كان النقد مستنداً على الذوق وحده في العصر الجاهلي والأموي، فلما جاء العصر العباسي تحول النقد من اعتماد على الذوق إلى علم بقواعد وأصول. فلقد تطور النقد في هذا العهد تطوراً ملحوظاً لا تسامح لطاق الشفاعة وشيوع روح الجدل والعلم، فلم يعد مجرد أحكام عامة ومقالات وجيزة، بل نزع نزعة التحليل والتقنين، وراح النقاد ينظرون في العالي والمبالي، وفي الصلة بين الأدب وأدبه، ويعتبرون الموازنات بين الأدباء ويجعلونهم مراتب وطبقات، ونسبت حرب شديدة بين أرباب الحديث وأرباب القديم، كان لها دوى وأصداء، وكان اللغويون بنوع خاص ينتصرون للقديم لأنهم رأوه أمتن عبارة وأدق لفظاً وأروع أسلوباً وأشدّ خلوصاً من شوائب العجبة. ولكن هذا النقد في أكثره بقي سطحياً يعتوره الأوهام ويفتقر إلى الحجج القوية الراهنة^(١).

وقد اشتهر في هذا الباب محمد بن سلام (٢٣٢هـ) صاحب "طبقات الشعراء" الذي نظر في الشعر الموضوع وصحة نسبته إلى أصحابه من الجاهلية، وأقام مفاضلة بين الشعراء على أساس يعتوره كثير من الضعف، وأبو القاسم الأندلسي (٣٧١هـ) صاحب "الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري في الشعر" وهو ذو روح منهجية وآراء ناضجة في النقد، ومقدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) صاحب "نقد النثر" وقد كان نظرياً في نقده أكثر مما كان عملياً، والقاضي الجرجاني (٣٩٢هـ) صاحب "الوساطة بين المشتبهين خصوصاً" وأبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) صاحب "كتاب الصنائع في النظم والنثر"، وقد تحول معه النقد إلى البادئة.

الباب الثالث

رواد الشعر الاسلامي في العصر العباسي

مع اشعارهم الدينية

وكما عرفنا في الصفحات السابقة أن العصر العباسي كان مليئاً بالشعر الإسلامي، وهنا ندرس نبذة من حياة الشعراء الذين قالوا فيه، ففي الفترة العباسية المبكرة ظهر شعر الزهد والتصوف والذين رغبوا علم شمس الزهد في هذه الفترة، هم: عبد الله بن المبارك والإمام الشافعي رحمهم الله وأبو العتاهية وأبو نواس ومحمود الوراق وغيرهم.

وظهر أيضاً في العصر العباسي شعر الجهاد والحماسة بسبب الحروب التي دارت بين المسلمين والروم، ومن الشعراء الذين عبروا عن الحماسة الإسلامية والجهاد الإسلامي أبو تمام والبحتري والمتنبي وأبو فراس الحمداني، فهنا نعرض نبذة من حياة رواد الشعر الإسلامي ومازجاً من أشعارهم الدينية.

١- عبد الله بن المبارك : (١١٨ - ١٨١ هـ)

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمي ولد سنة ١١٨ هـ، ورحل في طلب الحديث والعلم في سنة إحدى وأربعين ومائة، تلقى الحديثين والتابعين، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلافتك لا تحصى، وأكثر الترحال في طلب العلم، وتفقه بأبي حنيفة رحمهم الله^(١)، وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقه على مذهب أبي حنيفة، والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة، واشتهر شهرة

مدوية لنفسه وزهده، حتى قال سفيان الثوري « لو جهدت جهدي أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر » وكان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد في سبيل الله من جهة، ومن جهة أخرى يعطى الجنود و يحبسهم للقتال، ويُلقي على الناس الحديث في الثغور من مثل طرسوس، وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هي أنهم كانوا سلبين لا يشاركون في الوجبات الوطنية، وهي إحدى الأفكار التي أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على أشكالة زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين - خاصة الأولين - لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها ليكسبوا قوتهم، ويعيشوا من كسبهم، وكذلك نجدهم يتجرون ويحترفون حرفاً كثيرة على نحو ما سنرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النحاسية وبيع الجوارى والإماء، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه^(١) وكانوا يلبيون نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة للملأ^(٢) للإستشهاد في سبيل الله، وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساء، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريقة توضح ذلك أتم توضيح. قال محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه: أُملي على ابن المبارك بطرسوس وودعته والفضها معي (يعني الورقة) إلى الفضل بن عياض^(٣) في سنة سبع وسبعين ومائة. وكان مجاوراً بمكة. هذه الآيات.

(١) تاريخ الأدب العربي، الطبع الأول، ١٣٠٣

١٣/٢

(٢) الفجوة الزاهرة

يا عابد الحرمين لو أبصرنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جفده بدعوه	فخوراً بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصيحة تتعب
ريح العبير لكم وغن غيرنا	وهج السنايد والغبار الأطيب
ولقد آتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا تستوى أغبار خيل الله في	أنف امرئ ودخان نار تلعب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب (١)

وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات

حتى ليدعوها بالقياس إليه ضرباً من اللعب، وهو يصور الهوة التي تفصل بينهما
فالناسك يقدم لربه دموعه والجهاد يقدم دماؤه، فتخذ الخيل العاديات
لا في لهو وإنما في التضحية والاستشهاد طلباً لرضوان الله، متطعياً بطيب أكثر
شذى وعطراً من الطيب الحقيقي، طيب غبار الحرب وسنايد الخيل وهي تقدر
الأرض قدحاً. ويقول أن الإسلام أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً
إلى قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: «لا يجمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في
جوف عبد أبداً» (٢)، وكما جاء في القرآن الكريم: «أن شهيد الجهاد لا يموت، بل يظل
حيّاً عند ربه حياة خالدة»: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند
ربهم يرزقون» (٣) وفي موضع آخر «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياء و

(١) شعر الدعوة الإسلامية «العبدي الأول» ١٤٧

(٢) سنن النسائي -

شرح جلال الدين السيوطي.

١٣/٤

آية. ١٧٩

(٣) آل عمران .

لكن لا تشعرون^(١) وهي خضع بها الله سبحانه المستشهدين في سبيله دون سائر المؤمنين من نساء وغير نساء، إذ جعلهم يحبون في قبورهم حياة برزخية خاصة لا يعلم حقيقتها سواه^(٢).

والإبن المبارك موقف ثانٍ يصور كيف كان الزهاد من العلماء والحدثين يتعففون في مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من تغرهم الدنيا فيخرفوا عن الجادة.

وهو كثير التنفير من الدنيا ومناجها الذي يزول وتبقى تبعاته، بل إنه ليحمل بين طياته من السهم ما يجعل العاقل يرى فيه حياة ليناً مستها مماثل سبها:

حلاوة دنياك مسومة فما تأكل الشهد إلا لبسم

وهي خداعة غرارة لا يكاد يطن شخص فيها إلى سرور حتى يهجم عليه حزن مفرج أو مصيبة موجهة، فمن جرعة يوم حلاوتها جرعة أياما مرارتها. وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصى هوى نفسه، فإنها أمارة بالسوء وإن هو أطاعها حملته ما لا يطيق من الذنوب والآثام، عاصفة منه بسلطان العقل موردة له موارد الهلاك.

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم في الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها

لأتمس أحداً بفرج حتى تملأه بترح، والحازم من تزود من يومه لغده ومن
حياته لآخرته. وقد لبى نداء ربه سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة.

شعره الديني :

خوف الله

إذا ما الليل اظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع
لهم تحت الظلام وهم سجود أنين منه تنفرج الضلوع
وخرس بالنهار طول صمت عليهم من سكينتهم خشوع (١)

غصص المعاصي

أيضن لي فتى "ترك المعاصي وارهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوس فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصي (٢)

الذنوب تميت القلوب

رأيت الذنوب تميت القلوب ونخرس العقل إذا ما نحا
يبس الفتى لنفسه في رده وأسلم للنفس عصيانها (٣)

خاسر التجارة

يا جاعل الدين له بازيا يبطأ أموال المساكين

(١) شعر الدعوة الإسلامية "العبيد الأول". ٩٢

(٢) المصدر السابق. ١١٤

(٣) نفس المصدر. ١١٧

لا تتبع الدين بالدنيا كما يفعل ضلال الراهبين
احتلت للدنيا ولذاتها بحيلة تذهب بالدين (١)

وعى ما وعى القرآن

صوت إذا ما الصمت زين أهله وفتاق أبقار الكلام تختم
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ونيطت له الآداب بالحم والدم (٢)

لذة العبادة

تنعم قوم بالعبادة والتقوى أذ النعيم لا الذاذة بالخمر
فقرت بهم طول الحياة عيونهم وكانت لهم - واللم - زاد إلى القبر
على برهة نالوا بها العز والتقوى أذ ولذت العيش بالبر والصبر (٣)

٢- أبي نواس :

(١٤٤ - ١٩١ م)

تعتبر شخصية أبي نواس من أشهر شخصيات الفترة
العباسية المبكرة لما أحاط بها من أطوار أخبار وقصص ضرب بعضها في آفاق الخيال
بحيث جعلت من صاحبها شخصية أسطورية.

وقد اختلف في مولده، فإن الراسي الذي يقول بأن أبا نواس ولد في
الأهواز، أقرب إلى الصحة من ذلك الذي يقول إنه ولد في البصرة، فأبو نواس ولد (٤)

(١) شعر الدعوة الإسلامية "العباسيون" ١٩٩

(٢) الصدر السابق ٢٣١. (٣) أيضا ٧١

(٤) تاريخ بغداد ٤٣٦/٧ ٤٣٦/٧ (٥) وفيات الأعيان ٩٥/٢

بالأهواز على أرجح الروايات.

نشأ في البصرة وثرى على الكتاب صغيراً ثم الحقته أمه بكان عطار
كان يبري في أعماد البخور نهاراً ويتردد على حلقات الدرس في المساجد مساءً، وكان
به طموح إلى العلم والأدب، والبصرة آنذاك عاصمة الأدب واللغة وعلوم الدين.
لقد كان لأبي نواس ثمانية دينية واسعة في أول حياته، فقد طلب
الحديث وسدحه من حماد بن زيد البصري ومعتز بن سليمان محدث البصرة كما سمع من
يحيى بن سعيد القطان البصري وأزهري بن سعد السعدان المتوفى ٢٠٣ هـ. هذا ما كان من
أمر أبي نواس في تلقيه الحديث، وأما القرآن فقد قرأه على إمام البصرة وعالم القراءات
يعقوب بن إسحاق الحضرمي^(١)، وأما النحو فقد أخذه عن أبي زيد النحوي.

ولم يكن بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قال
ابن المعتز ثمانية أبي نواس الدينية ومقدرته في العلوم الإسلامية «كان عالماً فقيهاً
عارفاً بالأحكام والفقهاء بصيراً بالإختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث
يعرف تاريخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومشايجهم، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمختصرين
وأوائل الإسلاميين والمحدثين»^(٢).

عاش أبو نواس حياته كلها شاعراً، وترك مجموعة كبيرة من القصيد والرجز
ضمنها ديوان كبير الحجم مترج بالشعر الذي يتأرجح بين الجيد المعجب والرودي المسف.
لقد أكثر من شعره المجون والشعوبية والزندقة والخمر والغزل والمدح

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي. ٢٧٣ مطلق الشكوة

(٢) طبقات الشعراء. ٢٠١ ابن المعتز

والهجاء والوصف وأخير الزهد، وكانت آخر أبيات قالها تلك التي عشر عليها تحت
وسادته :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
مالي إليك وسيلة إلا الرجاء وجيل عفوك ثم إلي مسلم (١)

بين رحلة الشعر النواصي التي بدأت بـ «حامل الهوى تعب» وانتهت
بـ «يارب إن عظمت ذنوبي كثرة» قال أبو نواس آلاف الأبيات في كل موضوعات الشعر
التي أضمهرها «الخمريات» وهي الفن الذي عرف به أبو نواس (٢) وهو أستاذ فن الخمرية
في الشعر العربي غير مدافع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية، فقد عاش الخمرية
بها مجاهداً بالفسوق والمجون، فلا حياة في رأيه سوى حياة الخمر والمجون في بيوت القيان
وفي الحانات .

على أن أبا نواس وهو في غمرة عصبانته، كانت مضات طارئة من الإيمان
تمس قلبه سريعاً ثم لا تلبث أن تهرب من واقعها الأليم، ومع ذلك فإنها كانت
تدفع بشاعريته إلى الحكمة البالغة المستفادة من حياة الإغتراف والعصيان (٣) و
حين علت سن أبي نواس وخطه الشيب أخذ يفتق أحيانا من سكره مفكراً في
الحياة وعواقبها وفي البعث والنشور والموت والفناء، وكان من حين إلى حين
ينيب إلى ربه مما جعله يردد أنغاماً مختلفة في الزهد والدعوة إلى الانصراف عن

(١) ديوان أبي نواس . ١٩٩

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي . ٢٨١

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي . ٩٣

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي . ٢١٠

الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقوى والعمل الصالح من مثل قوله :

والقصد أحسن ما عملت له فاسلك سبيل الخير واجتهد

واحمل لدار أنت جاعلها دار المقامة آخر الأبد (١)

وكان يدعو الله ويستجلى له استهالات كثيرة، وأن أبانواس يؤوب

أخيرا من رحلة العصيان الطويلة إلى رحاب الله، فيؤدي فريضة الحج ويكبر مع المكبرين

ويبني مع المكبين وهو يطوف بالبيت العتيق.

شعره الديني :

إلهنا ما أعدك مليك كل من ملك

لبيك قد لبيت لك

لبيك إن الحمد لك والملا لا شريك لك

ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك

لولاك يارب هلك

لبيك إن الحمد لك والملا لا شريك لك

كل نبي وملك وكل من أهل لك

وكل عبد سألك سبج أو لبى ملك

لبيك إن الحمد لك والملا لا شريك لك

اعمل وبادر أجلك واختم بخير عمرك

لبيك إن الحمد لك والملا لا شريك لك (٢)

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
 إن كان لا يرجوك إلا محسن فبين يلوذ ويستجير المجرم
 أوعوك رب كما أمرت قضا فماذا ردت يدي من ذاك رحم
 مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجعل عفوك ثمري مسلم (١)

ارغب إلى الله

يا سائل الله فزت بالظفر وبالنوال المهني لا الكدر
 فارغب إلى الله لا إلى البشر منتقل في البلي وفي الغير
 مالك بالترهات مشغلا أنفي يدك الأمان من سقر (٢)

بعفوك استجير

أيامن ليس لي منه مجير بعفوك من عذابك استجير
 أنا العبد المقر بكل ذنب وأنت السيد المولى الغفور
 فإن عذبتني فنبسوء فعلي وإن تغفر فأنف به جدير
 أفر إليك منك وأين إلا إليك يفر منك المستجير (٣)

يوم الحساب

أفنت عمرك والذنوب تزيد والكاتب المحصي عليك شهيد
 كم قلت: لست بعائد في سؤة ونذرت فيها ثم صرت تعود
 حتى متى لا ترعوى عن لذة وحسابها يوم الحساب شديد (٤)

(١) ديوان . ١٩٩ (٢) نفس المصدر . ١٩٩

(٣) أيضا . ٢٠٣ (٤) أيضا . ١٩٩

٣- الإمام الشافعي رحمه الله : (١٥٠ - ٢٠٤هـ)

هو محمد بن إدريس الشافعي، قرشي من جهة الأب ولد بغزة فلسطين سنة ١٥٠هـ، وهي السنة التي فقد الدنيا الإمام أبو حنيفة رحمه الله، ثم مات أبوه فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين.

والشافعي وإن كان قد ولد من نسب شريف^(١) ولكنه عاش يتيمًا عيشة الفقر إلى أن استقام عوده، وقد حرصت والدته على تثقيفه، فحفظ القرآن الكريم بسهولة نادرة، ثم اتجه إلى حفظ الأحاديث، فاستمع المحدثين وحفظ الحديث بالسمع^(٢)، ثم كتبه على الخرف أحيانًا وعلى الجلود أحيانًا أخرى.

وقد كان مع حفظه أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يحيل إلى تعلم الفقه فخرج إلى البادية ودرس هذا، قال الشافعي "وخرجت من مكة فلتزمت هذا بالبادية أتعلم كلامها وأخذ اللغة وكانت أفصح العرب"^(٣) ثم اتجه الحديث والفقه فأخذ في مكة عن سفیان بن عیینة ومسلم بن خالد الزنجي، ثم رحل إلى مالط في الديانة وسمع منه الموطأ وحفظ وأخذ عنه فقهه، يقول عبد العزيز سيد الأهل، إنه لم يكن فقيهاً فحسب، بل جمع إلى علومه في الدين علومًا أخرى كثيرة. جمع القرآن والحديث وكان استاذ القياس والإجماع وإنكار البدع، وجمع اللغة والشعر والآداب، وجمع الطب والفقه والفراصة ولا سيما فراسة الناس والإبل، والأنساب ولا سيما

(١) الفهرست.

٣٠٨

(٢) ديران الشافعي

٨

زهدى يكن

(٣) صفى الاسلام

٢١٩/٢

أكتساب قرئش وبنى هاشم وأخبار السلف والمغازى ومجائب الدنيا. (١)

وصلة الشافعى بالشعر بدأت قوية فى بدعياته ومازال يتعالى فيه.

حتى بعد أن انصرف إلى فقهه - وصار فى مكنته أن يرتجل فى المعنى الذى يريد.

بيتاً أو بيتين أو قطعة يعجز غير من الشعراء أن يأتوا بأمثالها، قال ابن شيق،

كان الشافعى من أحسن الناس إقتنائاً فى الشعر. (٢)

ومع علم لغة الشافعى فى كل أقواله، فإن شعره سهل متبع، و

لعلك إذا قسمت قطعة من نثره بمقطعة من شعره بدالك الفرق بين اللغتين،

فإنه فى النثر يختار أجزل الألفاظ ويميل إلى الغريب الصعب.

أما أناطه فى الشعر فلن تعثر فيها على غريب ولا صعب بل ستجده

كله مريباً، ولكن لن تضع من معانيه هذه السهولة ولا سلوكة سبيل الخير.

والشافعى يلتقى فى معظم شعره من الصوفيين ومعانيهم ولا زهو

بشعره حيناً، وضيق نفسه بالفقر حيناً، حتى تكاد تتعارض معانيه مع طرق الصوفية و

أهل القناعة - لولا ذلك لعدت شعره كله صوفياً.

ثم إن شعره كله جاء مقطعات، فلم ينظم قصائد طويلاً، ولذا سهل

الإقتباس منه والإستدلال به فأخذ كل ما يوافق له ويشتهيه (٣) ويبدو أن ميله إلى

المقطعات كان صادراً عن طبعه الذى اختار الإيجاز فى كل ما يكتب.

ولما كان الشافعى قد قصد فى شعره إلى السهولة والوضوح وسلك

في أكثره سبيل الإرتجال، نانه لم يقل في كل الصوائف، بل غادر الصوائف الصعبة فلم
يسلكها واكتفى بالقل في الحروف الجديدة التي لا تقف أمام العذوبة والرقّة
والسرعة والإرتجال -

شعره الديني :

أمر الله

أفكر في نوى الفى وصبرى وأحمد همتى وأزم دهرى
وما قصرت في طلب ولكن لرب الناس أمر فوق أمرى (١)

عفو الله

إن كنت تغدو في الذنوب جليداً وتخاف في يوم المعاد وعيدا
فلقد أتاك من المهيمن عفوهُ وأتاك من نعم عليك فريداً
لا تيأس من لطف ربك في الحشا في بطن أمك مضغة ووليداً
لو شأ أن تصلى جهنم خالداً ما كان ألهم قلبك التوحيداً (٢)

تعليم الله

شكوت إلى وكيح سوء حفظى فأرشدني إلى ترك المعاصى
وقال : اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتى عاصى (٣)

وقال :

فضاضة الدهر قد ضلوا فقد بانّت خسارتهم
ضبا عرا الدين بالدنيا ضاربحت تجارتهم (٤)

(١) ديوان الشافعى. سيد الأهل : ٣٥ (٢) المصدر السابق. ٢٧
دع أيضاً. ٤١ (٤) أيضاً : ١٩

إن لله عبداً فطنا
تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا
انها ليست لحي وطننا
جعلوها لجةً واتخذوا
صالح الأعمال فيها سفناً (١)
وقال .

تعاظمني ذنبي فلما قرنته
بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ولما قسا قلبي وضاعت مذاهي
جعلت رجائي نحو عفوك سلما
وما زلت ذاعفوك عن الذنب لم تزل
تجود وتعفو منه وتكرما (٢)
وقال .

صبرا جميلا ما أقرب الفرجا
من راتب الله في الأمور نجبا
من صدق الله لم ينله أذى
ومن رجاه يكون حيث رجا (٣)

٤ - محمد بن كناسة : (١٥٣-٢٠٧هـ)

هو محمد بن كناسة وأرسله عبد الله بن عبد الأعلى بن
عبيد الله بن أبي أسد، شاعر من شعراء الدولة العباسية.
وقد ولد ونشأ بالكوفة في بيت صلاح وتقوى، قد حصل عنه
شيء من الحديث (٤) وكان إبراهيم بن أدهم خاله وهو أحد من تذكروا أسماؤهم في نشأة

(١) ديوان الشاعر . ٦٤
(٢) أيضا :
(٣) أيضا . ٢٤
(٤) الأعرابي . ٣٦٣ / ١٣

التصوف، وهو يختلف إلى حلقات المحشين اختلافاً كثيراً له أن يحل الحديث عنه، وأن
يُعد في رجاله. ويظهر أن موصيته الشريفة تفتحت مبكرة، غير أنه كان - كما في الأغاني -
أمراً صالحاً لا يقصدى له ولا ليجاء، بل قصر شعره على الزهد وما يتصل به
من رياضة النفس على ترك الهوى والاتعاظ بالدنيا وفناء لذاتها وبفناء تبعاتها
فمنها دائماً زائلة ونقصها نازلة، ومنها طال عمر الإنسان فيها، فإن البلى و
فناء وإلى الكوارث وفواجع. فكلنا يجرى إلى غاية ينتهي عندها أجله، وكان
حرياً به أن يقهرها ويرفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه. يقول:

ومن يحب الدنيا تبقيك للبلى وأنت فيها للبقاء مرید
وأى بنى الأيام إلا وعنده من الدهر ذنب طارف وتليد
ومن يأمن الأيام أما الساعيا فخطر وأما فجعها فعتيد
إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى فإن نظام النفس عنه شديد (١)

وهو يكرر الحديث عن نظام النفس من الشهوات والذات و
أنه ثقيل وأن السعيد من عص هواه في طاعة ربه، فاجتنب المحارم والآثام،
ويلاحظ أن من الناس من يلون الزهاد في عواقب اتباع الهوى (٢) أو كأنه يقول
بفعله ما ليس له ظل في قلبه، أو كأنه يعظ ولا يتعظ، وفي ذلك يقول:

ما من روى أدباً ولم يعمل به وكيف عن زيغ الهوى بأدب
حتى يكون بما تعلم عاماً من صالح فيكون غير معيب

ولعلما تخشى إصابته قائل
أفعاله أفعال غير مصيب

وكان ينصح لإبنه في اختيار الأصدقاء، فيقول:

ينبئك عن عيب الفتى
ترى الصلاة أو الخدين

فإذا اتهموا بالصلاة
فأله في الناس دين

ويزن ذو الحديث المر... يرب بما يزن به القرين

إن العفيف إذا تكلفه
المريب هو الظنين (١)

وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتكلمون على فعوده

عن أبواب الحكام والأمرار، بينما هو يحسن نظم الشعر، ونظراؤه يكسبون

به الألقاب المرفعة، وهو يعيش في كفاف وبلغ وصباة، فكان يردهم ردا

منكرا، إذا عرض عن الدنيا مصيها، غير راغب في متاعها، فحسبه متاع الآخرة

الذي ينتظره والذي يحفظ على نفسه من أجله ما وجهه ويصون كرامته،

فلا يبتذلها لخلق فضلا عن أن يمدحه ويدهنه ويطلب منه ما ينبغي أن

لا يتجاوز في طلبه ربه (٢) إنه إن فعل طعن وجهه وحياته طعنة بخلاء، بل طعن

زهد وثقواه، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة، ومن يؤثرون

نعيم العاجلة على نعيم الباقية، يقول مجيبا بعض لائمه:

يقولون لو غنضت لأزودت رقة
فقلت لهم إلى إذن الحريص

أظلم وجهي - لا أبأ لأبيكم
مطامع عنها للكرام محيص

عاشى دوين القوت والعرض وفر ويطنى عن جدوى اللئام فخص (١)
ولانت له حارية شاعرة مغنية تسى ونا غير وكان ذوو المرأة من
أهل الأدب يقصدونها للمحاوثة والمساجلة فى الشعر، وقد اختطفها منه القوت
فحزن حزنا شديدا، صوره فى قوله يرثيها، وقد استسلم لأمر ربه :

الحمد لله لأشريك له يا ليت ما كان منك لم يكن
إن يكن القول قلّ منك فما انجنى غير شدة الحزن (٢)

وله مرثية طريفة فى خاله إبراهيم بن أدحم، وهى ترسم صورة العابد النلس
فى العصر العباسي الأول، وكيف كان يعيش على الكفاف قانعاً به، مقبلاً على
عبادة ربه، قانعاً لدواشى الهوى فى نفسه، متحلياً بالنضال الرقيقة، لا يعرف
الغضب ولا الطيش، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا يعيش صامتا
مفكراً فى ملكوت ربه الأعلى.

وفى ذلك كله يقول مخاطباً بعض من لا يزالون يستزيدون من

الغنى والشراء.

أيتك ما يكفيك مادونه الغنى وقد كان يكفى دون ذاك ابن أدحم
وكان يرى الدنيا صغيراً عظيمها وكان لحق الله فيها معظماً
أما الهوى حتى تجنّب الهوى كما اجتنب الجاني الدرع الطالب الدما
والحلم سلطان على الجهل عنده فما يستطيع الجهل أن يترمرما

(١) الأغاني . ١٣ / ٣٦٤

(٢) المصدر السابق . ١٣ / ٣٧١

(٣) الفهرست . ١١١

(٤) تاريخ الأدب العربى (المعاصر الأول) . ٤٠٨

يُرى مستكيناً خاضعاً متواضعاً وليثاً إذا لاقى المكتبة ضيفاً
على الجدث الغريب من آل وأئى سلامٌ وبرٌّ ما أبرُّ وأكرم ما (١)
ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كناسة يُصفي قلبه وعقله
للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه، وكيف كان يعيش له وبه يؤمن بأنه الغاية
العليا التي ينبغي أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته، حتى يفوز
برضوان ربه، وقد لبى نداءه لسنة سبع وما تين للهجرة -

٥. أبا العتاهية : (١٣٠ - ٢١٣ هـ)

ولد الأديب الأريب، والشاعر اللبيب، أبو العتاهية
إسماعيل بن القاسم في عين التمر بالقرب الأنبار، هو العارف المشهور والشاعر المأثور
المعروف في زهدياته بالترجمة والرفاهية، وهو في الزهد والمواعظ والأمثال والحكم
ورواة النوادر والأشعار (٢)

نشأ بالكوفة، ولما خرج أحترف مع أخيه زيد بيع الحزف، ولم تلبث
مواهبه الشعرية أن استيقظت في نفسه، فكان ينشد من يشترون منه الجرار شعوه (٣)،
واشتهر أمر أبي العتاهية في الكوفة، وأخذ يختلف إلى أعلام العلماء
والتكلمين في مساجد الكوفة مما اتاح له إتيان العربية والوقوف على مذاهب
أصحاب المقالات -

-
- (١) الأغاني . ٣٦١ / ١٣
(٢) أبا العتاهية . أشعاره وأخباره . ٢٤
(٣) الأغاني ١١ / ٤
شكرى نيل

ولانت بغداد لعهد المهدي قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة
والبصرة، قصد المعاش والتكسب، وخرج إليها من خريجو جامعة الحجاز من أمثال
طليح بن أبياس ووالبة وأبي فزاس، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبّ بهم من
كنوس الخمر والمهر في دور الضيافة والمجانية^(١)، ويفسد الأمر بينه وبين والبة، فيصليه
ناراً حامية من هجائه، وما زال به حتى فضحه فعاد إلى الكوفة.

يقول المهدي فيخلفه الهادي، ويلزمه أبو العتاهية لينشده مدحاً
في كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر، ولا يلبث أن يعتلي الرشيد
أركية الخلافة، وكان منقطعاً إليه ملازماً له أيام أبيه المهدي، فارتحل^(٢) انقطع في
مدة الهادي القصيرة.

غير أنه ظل يقرب منه، وتبعه الهادي والرشيد لسيار معاش
السيرة، ويقال إنه لم يكن يفارق الرشيد في سفر ولا حضر.
ولا غنى طويلاً في عصر الرشيد، حتى نرى أبا العتاهية يتسكع ويلبس
الصوف ويذهب ويترك حضور المأدبة والقول في الغزل ويحضره الرشيد وأمره
أن يعود إلا ما كان عليه، فيمتنع، فيضربه ويأمر بحبسه^(٣)، وينظم أشعاراً كثيرة، وتنتقل
إلى الرشيد كما ما نظم قوله:

أما والله إن الظلم لوم
وما زال المسىء هو الظلم
إلى ديّان يوم الدين نضى
وعند الله تجتمع الخصوم^(٤)

(١) الفن ومزاهبه في الشعر. ٩٢

(٢) تاريخ الأدب العربي، العبد الأول. ٢٤٠

(٣) ديوان أبي العتاهية. ٢٤٤

ويُرسل أبو العاصية في استعطافه بثل قوله:

إِنَّمَا أَنْتَ رَحْمَةٌ وَسَلَامَةٌ زَادَكَ اللَّهُ غَبْطَةً وَكِرَامَةً

لَوْ تَوَجَّعْتَ لِي فَرَوْحَتِ عَنِّي رَوْحُ اللَّهِ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١)

فحطف عليه الرشيد واطلق سراحه، ويأخذ منذ هذا التاريخ في الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق، قال ابن عبد البر في مقدمة الكتاب في أشعاره: "كأنها مأخوذة من الكتاب والسنة وما جرى من الحكم على السفة سلف هذه الأمة، وكانت طبقة الأولى تعيبه حسداً له وبغضا، حتى قالوا إنه لا يؤمن بالبعث وإنه زنديق، وإن شعره ومواعظه إنما هي في ذكر الموت" (٢).

ومن هنا نشأت على الموقف على من يقرأ أشعار أبي العاصية الزاهدة وخاصة أنه استقى فيها كثيرا من آراء النضر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقول ابن المعتز في ترجمته إنه "يرمى بالزندقة مع كثرة أشعاره في الزهد والموعظة وذكر الموت والحشر والنار والجنة، والذي يصح لي أنه كان شفوياً" (٣) ولا يشك من يقرأها في أن فكرة الموت ومصير الإنسان في حياته كانت هي شغله الأول، فقد دار عليها أكثر نثر الزهديات (٤) وفي الأغاني عن أحمد بن حرب يقول فيه: "كان مذهب أبي العاصية القول بالقرصيد، وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء، شيء إنه بنى العالم

(١) ديوان أبي العاصية. ٣٢٨

(٢) أبو العاصية "أشعاره وأخباره". ٣٧

(٣) طبقات الشعراء ٢٢٨ ابن المعتز

(٤) الفتن ومذاهبه في الشعر. ١٧٧

هذه البنية منها، وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجهر بين المتضادين قبل أن
تفنى الأعيان جميعاً... وكان مجبراً: "وكانه حاول بذلك أن يوفق بين نظرية الإسلام
في التوحيد ونظرية المانوية، في أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة، ومن
النور نفث كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر.

ونجد في شعره القليل الذي وصلنا ما يؤكد أنه كان حقا يرى هذه

النظرية، ويعتقد بها.

شعره الديني:

و يمرض أبو العتاهية مرضه الذي مات فيه، فيقول إلى

ربه ويناجيه ويستغفره ويطلب عفوه ويعترف بذنبه مناجاة صادقة واعترافا
أميناً. وحسن ظن عبد آمن بالمغفرة ممن يملك المغفرة وهو يقول:

إلهي لا تعذبني خالي	مقر بالذي قد كان مني
ومالي حليمة إلا رجالي	وعفوك إن عفوت وحسن ظني
فكم من زلة لي في البرايا	وأنت على ذو فضل ومنّ
إذا فكرت في ندمي عليها	عرضت أنا ملي وقرعت سني
يظن الناس بي خيراً وإلى	لشر الناس إن لم تعف عني
أجن بزهرة الدنيا جنونا	وأفنى العمر فيها بالتني
وبين يدي محتبس طويل	كأنني قد دعيت له كائن
ولو ألقى صدقت الزهد فيها	قلبت لأهلها ظهر المجن ^(٢)

(١) الأغاني.

١/٤

(٢) ديوان.

يقتبس أبو العاصية قوله تعالى "ولم عاقبة الأمور" ويجريها مجرى الترغيب والترهيب
على ذكر الله وعبادته وشكرانه فيقول:

للم عاقبة الأمور	طوبى لمعتبر ذكور
طوبى لكل مراقب	ولكل أوّاب شكور (١)
ويقتبس الآية الكريمة "ألا إلى الله تصير الأمور" ويقول:	
ألا إلى الله تصير الأمور	ما أنت يا دنياى إلا غرور
إن امرئاً يصفو له عيشه	لغافل عما تجن القبور (٢)

وقال:

أيا عجبا كيف يعصى الإله	أتم كيف يحجده الجاهد
ولم فى كل تحريكة	وتسكينة أبدا شاهد
وفى كل شيء له آية	تدل على أنه واحد (٣)

وقال:

كل يوم يأتي برزق جديد	من ملىح لنا غني حميد
فادر قاهر قوى لطيف	ظاهر باطن قريب بعيد
حجبته الغيوب عن كل عين	وهو فينا أنيس كل وحيد
حسبنا الله ربنا هو مولى	خير مولى ونحن شر عبید (٤)

(١) ديوان . ١١٣

(٢) نفس المصدر . ١١٧

(٣) المصدر نفسه . ٧٠

(٤) المصدر نفسه . ٨٥

الموت باب وكل الناس داخله خلعت شعوى بعد الباب ما الدار
الدار حنة خلد إن عملت بما يرضى الإله وإن قصرت فانار (١)

إندك الساتر

سبحان من ألهمني صبره ومن هو الأول والآخر
ومن هو الدائم في ملكه ومن هو الباطن والظاهر
يارب إني لك في كل ما قدرت عبد آمل شاكر
فاغفر ذنوبي إن الحاجة واستر خطيئتي إندك الساتر (٢)

٤- محور الوراق : (٢٢٥ -)

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود بن الحسن الوراق، إنه كان نخاسا ببغداد يبيع الرقيق، ويبدو أنه كان في حاجة حياته يأخذ بحظ من اللهو، ثم كف نفسه وردد عما، وأخلص وجهه لربه. ولعل العصر العباسي الأول لم يعرف شاعرا أكثر من الحديث عن الزهد واعظا مذكرا كما أكثر محمود الوراق، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة، منها موقف وجوب الطاعة لله والأوامر والنواهي، فالمسلم الصحيح ينبغي أن لا يقترف إثما ولا يرتكب معصية، وإلا أوثقت ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده، وحري بمن ألهمته الدنيا وترملت عليه الذنوب أن لا يؤمل في جنة ولا ثواب،

(١) ديوان. ٩٦

(٢) أيضا. ١٢٠

فقد استحق العقاب يقول:

يا ناظرًا يرفو بعيني راقد ومشاهدًا للأمر غير مشاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درك الجنان بما وفوز العابد

ولست أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحد (١)

وموقف ثان هو موقف الرضا بقضائ الله، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمانينة

وراحة، بل تغالًا وأمنًا، فلا يخشى شيئًا إذ لا يتمنى غير ما يحدث وكل ما ينزل به

يتقبله بنفس راضية يقول:

قدر الله كمائن حين يقضى وروده

قد مضى منك علمه وانتهى ما يريده

وموقفه ثالث هو التوكل على الله والثقة به، والإعتماد عليه دون سواه من

الناس، فهو الكامل والضا من، وهو الذي يقدر ما يصيب الإنسان (٢)، ولن

يستطيع الوصول إليه قبل مواعده المقدور ولعل طلبه بقوة السماء والأرض يقول:

أطلب رزق الله من عند غيره وتصبح من خوف العواقب آمنًا

وترضى بعرافي وإن كاشركا ضيئنا ولا ترضى بربك ضامنًا (٣)

ويواجه ابن الوراق جمهرة العصاة الذين يتظاهرون بحب الله ويبعدون الزهد

والإيمان قولاً لا يقرنون المعاصي عملاً (٤)، فيسفه أفعالهم وأقوالهم في بيتيه البارعين:

(١) شعر الدعوة الإسلامية . العباسي الأول . ١٢٤

(٢) تاريخ الأدب العربي . العباسي الأول . ٤١٠

(٣) شعر الدعوة الإسلامية . ١٢٦

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي . ٢٢٢

تعصى الإله وأنت تظهر حبة هذا حال في القياس بديح

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع (١)

وموقفه رابع هو القناعة، أو بعبارة أخرى أن يقنع الإنسان بما عند الله وما أدخره له في يومه وغده، وأن يقلع عن الطمع والإلحاح ما يكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بهذا خيرها، بل إن شدة الطمع تؤدي بصاحبها إلى أن يصبح أشد ضيقا من الفقير المحتاج والغنى الحقيقي هو غنى النفس القانع لا غنى الشراء الجشع، وفي ذلك يقول: ^(٢)

من كان ذا مال كثير ولم يقنع فذاك المفسر المحسر

وكل من كان قنوعا وإن كان مقلدا فهو المكسر

الفقر في النفس وفيها الغنى وفي غنى النفس الغنى الأكبر

وموقف خامس هو العفو عن الظلم، فهو لا يلحق الأساءة بالأساءة إذ يجد في ذلك وقودا تهيجها، وإنما يلحقها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئا نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفيح. وهي خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حدث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله تعالى: «وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوبتكم به ولئن ضربتم لهم خير للصابرين» وقوله: «من عطا وأصلح فأجره على الله» وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البر والمحبة في قلوب المسلمين بعفو بعضهم عن بعض، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والثواب الحسن. ^(٣) وعن كل ذلك صور محمود في تصوير عفوهم عن بعض

(١) شعر الدعوة الإسلامية "العباي الأول" ١٢٥

(٢) تاريخ الأدب العربي . ٤١١

(٣) المصدر السابق . ٤١٣

ظالميه تأملا:

إني وهبت لظالمى ظلمى
رجعت أسأته عليه و
وغدوت ذا الجبر ومحمدة
ما زال يظلمنى وأرحمه
وغفرت ذاك له على علم
إحسانى إلى مضاعف الغنم
وغدا بكسب الظلم والإثم
حتى رشيت له من الظلم (١)

وابن العرواق غير مكتر قول الشعر في الزهد، ولكنه حين يعالجه يعترف على قيثارة نائمة الجرس بدبيعة الإلحان، فهو يلبس معانيه ألفاظا نبيقة رقيقة، ربما كانت في نغماتها ورفقتها أكثر عطاء لوجدان المرء إلى ناحية التفكير المهادى في هذه الدنيا من تلك المعاني العارية (٢).

هذه المواقف الزهدية المختلفة لعرواق توضح غزارة فكره وأنه كان يستعد من بعين عقل وروحي لا ينصب، فهو تارة يرغب في محاسن الأخلاق والشيخ وتارة يعط ويذكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حاثاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفانى والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقاءه.

شعره الدينى :

إلهي لك الحمد الذى أنت أهلهم على نعمة ما كنت منذ لها أهلها
متى أزدوت تقصيرا تزدنى تفضلاً كأنى بالتقصير استوجب الفضلاً (٣)

(١)

(٢) الشعر والشعر في العصر العباسي. ٢٢٣

(٣) شعر الدعوة الإسلامية "العبيد الأول". ٢٩

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبديك بنعمة منه وأنت لشكر ذاك نضيع (١)
ألا ترضى بربك

أطلب رزق الله من عند غيره وتصبح من خوف العواقب آسنا
وترضى بعرف وإن كان مشركاً ضئيلاً، ولا ترضى بربك ضامناً (٢)
وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة على له في مثلهما يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلله وإن طالت الأيام وأصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منها إلا له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والبر والبحر (٣)

٧- أبو تمام : (١٩٠ - ٢٣١ هـ)

كان أبو تمام زعيم الحركة المعاكسة في العصر العباسي، ولد
سنة ١٩٠ هـ في قرية جاسم بالشام.

أجمعت المصادر على أنه إسمه حبيب بن أوس الطائي، رضى حياته الإبداعية
في العسرة، ولكن حينما انتقل من دمشق إلى حصص، فبدأ حياته الشعبية بمدح أسرة

(١) شعر الدعوة الإلهية - دراسة "العقبي الأول" - ١٢٥

(٢) المصدر نفسه - ١٢٦

(٣) أيضاً - ٢١ (٤) وفيات الأعيان - ١ / ٣٣٩

عتبة بن أبي الكريم الطائي^(١)، وفي حصص صادف الشاعر ديد الجني الذي عالج في أدب
شاعرها تأثيراً يذكر، فأخذ عنه وتأثر به إلى حد بعيد ولا سيما في ما يتعلق بالصناعة
اللفظية، وسار بها شوطاً بعيداً، ثم غادر حصص إلى مصر وهو لا يزال يافعاً نحو السابعة
عشرة من سنه^(٢)، والأرجح أنه قصد لها في انتجاع الرزق، فكان يستقى المأوى في الجامع
الذي كان مثابة العلماء والطلابين فيواظب إلى جانب مهنته على تتبع حلقات
العلم التي صقلت مواهبه وغدت عقله حتى تضلع من الأدب العربي والشعر،
فترك السقاية وحاول حينئذ أن يبرز مقدراته الشعرية، فجعل يطوف في ما بين
النهرين، وفي أرمينية وفي شمال سورية، ولكنه قضى معظم أوقاته في الموصل^(٣)،
وكانت حالته المالية نيفة في أثناء هذا العصر. ولكن لم ينقطع أبوتام في كل تلك
الأثناء عن تدل الشعر، وكانت شهرته تتسع شيئاً فشيئاً ومقامه في الشعر ليس هو
نبيخ واشتهر فجعل يطوف قاصداً كبار الرجال في العالم الإسلامي حتى بلغ ذكره المعظم
ما تقدمه وأكرم مثواه واتخذه شاعراً له يمدحه ورفيقاً يمشي معه في غزواته
وليف ملاحظته، فتغيرت أحواله، فصار غنياً وبلغ سرامه أن يحصل مكاناً مرموقاً
بين الناس.

كان أبوتام شاعراً بليغاً ترك خلفه ذخيرة شعرية ومختارات شعرية
منها ديوانه جمعه الصولي ورتبه على حروف الحجم ورتبه علي بن حمزة الأصبهاني حسب

(١) أبوتام .	١٢	عمر فروخ
(٢) أمراء الشعر العربي .	١٨٦	ابن المقدسي
(٣) أبوتام .	١٧	

الموضوعات، شرحه أبو بكر الصولي والآمدى والمعري والتبريزي وغيرهم^(١)، فكان له فيما عدا ديوانه الخاص تسع مجموعات شعرية، ولكن لم يصل إلينا من جميع هذه المجموعات سوى الخامسة واختيار المقطوعات - وهو يسمى كتاب الوحشيات أو الخامسة الصغرى أيضا - والنقائض ولكن ما اشتهر وخلص إليه من مجموعات وهو كتاب الخامسة.

بعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت إليه معاني المتقدمين والمتأخرين، وكان أول من استكثر من الحكم والأمثال في القصائد الاستدلال على الأمور بالأدلة العقلية والكنائيات الخفية ولو افترضنا به ذلك إلى التعقيد أحيانا حينما نرجع إلى ديوانه نجد آثارا دينيا في أشعاره مع ذلك أنه لم يكن رجلا دينيا، ففي شعره من التعصب الديني عند ذكره للروح بالخصوص^(٢)، وتحمسا شديدا بفروض الدين، كما توجد آثار ديني في المراثي أيضا. قال أبو تمام أشعارا في الزهد أيضا لكن حينما رأيناه فليس معنى ذلك أنه تزهد، فهو لم يبلغ السن التي يلجأ فيها الإنسان ليحاسب نفسه على أعماله السابقة في أوائل كهولته أو في أواسطها على أكبر تقدير، ولم نعلم عارضا اتفق لأبي تمام يدنعه إلى الزهد كما كان شأن أبي نواس وليس لأبي تمام في هذا الباب جيد ولا جدي بقول الفاقوري "لم يقل أبو تمام في الزهد شعرا كثيرا إلا أن زهدياته على قلتها تصور بأمانة نفس الشاعر الكثرة الآمال والمطامع. وفي الزهد تتجلى نفس أبي تمام عميقة الإحساس بالحياة شديدة التأثر بالحالات النفسية الجديدة المخزنة^(٣)، ويقول:

(١) ديوان أبي تمام	٢٢-٢٠/١	تحقيق محمد عبده عزام
(٢) أبو تمام الطائي	٣٧	خضر الطائي
(٣) تاريخ الأدب العربي	٤٩٠	عنا الفاقوري

وأخلص لدين الله صدرا ونية فإن الذي تخفيه يوما سيظهر
 فلا بد يوما أن تصير لحضرة بأثنائها تطوى إلى يوم تنتشر (١)
 كما ذكرنا أنه لم يكن رجلا دينيا لكن مع ذلك يتعصب لدينه فقال أشعار
 من الجهاد والحروب مع الروم حتى اشتهر بوصف المعارك ومن أروع ما قاله في
 ذلك بأبيته الشهيرة في فتح عمورية: «هو مثال للشعر الملحمي بتصويره الواسع لأحداث
 خطيرة وخياله الرحب يعتمد الواقع التاريخي ويفضه في أسلوب جزل هذا الألفاظ
 كثير الصناعة، قال في فتح عمورية:

حتى إذا انخفض الله السنين لها فحضر البخيلة كانت زبدة الحقب
 كم بين حيطانها من فارس بطل قاتلي الذوائب من آلي دم سرب
 بسنة السيف والجناء من دمه لا سنة الدين والإسلام مختفب
 تدبير معتصم بالله مستقيم لله مرتقب في الله مرتغب
 ويطعم النصر لم تكلم أسننه يوما ولا تجبت عن روح تحجب
 لم يغزو قوما ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب
 رمى بك الله برجمها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم يصب
 خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام المحصب (٢)

من قبل هذا قال عن حرب المأمون مع الروم، خاضها المأمون في بلاد الروم
 غازيا فاتحا ومؤمننا للحدود وبانيا للحصون. ولقد أراد أن ينشد قصيدته هذه بين

يدري المأمون، وهو في طريقه إلى بلاد الروم، ولكنه لم يستطيع الوصول إليه، فكان
أبو تمام قد بنى قصيدته هذه على سبيل التخييل والتفاؤل بنصر الخليفة^(١). ووصف
أبو تمام في هذه القصيدة وصفاً دقيقاً وما قد وقع على الأعداء من هزيمة وإستسلام
وهو يقول:

ما كان للإشراك فورة مشهد واللم فيه وأنت والإسلام
لما أتيهم تساق ملوكهم حزننا إليك كأنهم أنعام^(٢)
يتجلى الشجر الإسلامي لأبي تمام في حراشيه، وهو يقول في مرثية محمد بن
بن حميد الطاهري الطائي.

ألا في سبيل الله من عظمت له فبأج سبيل الله واشتغل الشجر
غدا غداة والحمد نسج رداءه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حرافاً إلى لها الليل إلا وهي من سندس خضر^(٣)

١- البحتري: (٢٠٦ - ٢٨٤هـ)

لا يكاد ينفاد الطائي أبو تمام دنيا الشعر وهو في شرح
الرجولة حتى يتسلم منه علم الشعر طائي آخر، شامي مثله، إسمه الوليد بن عبيد بن
يحيى ولقبه البحتري، ولد سنة ٢٠٦هـ في منبج المدينة القريبة من حلب غير البعيدة
عن الفرات، وقضى فيها طفولته وصباه يحصل العلم ويكتنى ثمار المعرفة حتى شب

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي.

طوقه في دنيا الشعر.

إن المرخين يذهبون حول هذه الرحلة من سيرة حياة الجعري مذهبين
مذهبا روى أنه قيل أن يتجه إلى العراق اتجه إلى الحمص حيث كان أبو تمام قريبه و
أمير شعراء زمانه فبقيا بعض الوقت، فعرض عليه شعره بين جمع الشعراء الذين كانوا
يعرضون أشعارهم عليه^(١)، ويكشف أبو تمام في الشاعر الفتى نبوغا وأصاله فيقبل
عليه ويترك سائر الناس ويقول له: انت أشعر من أنشدني^(٢)، ومذهبا آخر
يحكيه على بن العباس النوبختي نفسه، وقد ذكر كيف التقى بأبي تمام لأول مرة
عند ما دخل على أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري - وكان طبيعيا أن يبدأ الجعري
بمدح أعيان قومه - فتوثقت صلة الجعري بأبي تمام بعد ذلك وأخذ أبو تمام يمدحه
بنصائح ولا يخل عليه بما يدفع به إلى امرأتي النبوغ خاصة وأن الجعري يتملك
شاعرية أصيلة وملكة شريفة العطاء، واستعدادا لم يتوفر عند كثيرين من شباب
الشعراء المعاصرين له.

إن أبا تمام يقول الجعري ويتعهدده تعهد البستاني الحاذق للنبته
الطيبة حتى تترك ثمرتها سوية جنية ويعبد له طريق الشعر ويرسم له مناخه.
وكان أبو تمام يلقنه صناعة الشعر، والجعري يلتزم نصائحه التزاما أميناً حتى
لرأى به ذكراً إلى مواطن المواجهة^(٣).

ليس من شك في أن الوفاء صفة جميلة، ولقد كان الجعري بالنسبة إلى

(١) تاريخ الأدب العربي. ٥٠٥

الناخوري

١٣

(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام.

٢٩٤

(٣) الشعراء والشعراء.

أستاذة أبي تمام وفيما الوفاء كله، ولكن الوفاء واحد من الصفات الكثيرة التي يتصف المرء بها عادة والتي يكون بعضها حسنا والآخر قبيحا. وكان الجحترى متقلبا مثل الوفاء لمن أحسن إليه بإستثناء وفائه لأبي تمام، وفيما عدا ذلك فلم يكن له مبدأ يلتزمه في تقييم علاقاته بالناس والوفاء لمن أحسن إليه منهم.

ومن تقلبات الجحترى الغالية في النفاق أنه كان معتزليا في أيام الواثق يقول بخلق القرآن في سياق قصيدته التي مدح بها أبا سعيد الشغري ومن خلالها هجا الشراة:

يرمون خالقهم بأببح نعلم ويحرفون قرآنه المنسوقا (١)

ولقد سأله بعض أصدقائه في ذلك: أصررت قدريا معتزليا، فأجاب: كان هذا ديني أيام الواثق ثم نزلت عنه في أيام المتوكل (٢)، وهذا صحيح فإنه لما غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد الذي قُطر في الاعتزال، وأمره بالعودة إلى السنة انبرس الجحترى لهجاء ابن أبي دؤاد ومهاجمة المعتزلة. فالجحترى معتزلي في أيام الواثق سني في أيام المتوكل، شيعي في أيام المنتصر، ولا شك أنه ما كان يجد حرجا في أن يتحول إلى المذهب آخر لو اقتضت الظروف أن يفعل، وليس ما كان يفعل.

على أن أفعال الجحترى لم تكن كلها سيئات، إذ لو كان الأمر كذلك لما نال إحترام بعض فضلا زمانه، كما كان الجحترى ذا غيرة تدعوه في بعض الأوقات إلى التدخل في أمور الدولة.

إن أباسعيد الثغرى كان قد طولب بحال بعد غزوته المشهورة، و
سلم إلى أبي الخير النصارى، يستخرج المال منه فجعل يعذبه، فنشق ذلك على المسلمين^(١)
فقال البجرى في ذلك أبياتاً لينبه الحكام ويرجم عن مشاعر الناس.

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين وضيعة الإسلام
طلبت ذحول الشر في أرض الهوى بين المداد والسُن الأَقلام
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يحزى على الأيام بالأيام^(٢)

ظل أبو سعيد الثغرى هو البطل المهيمن على الثغور وهو الحارس الجبار للحدود
الإسلامية بين ديار الروم وملك الإسلام، وكان حتماً لزاماً على شاعر مثل البجرى
أن يحذو حذوه في امتداح أسد الثغور. ويمدح أباسعيد في هذه القصيدة فيقول:

ثبت الله وطأة لك أمست جبلاً راسياً على المشرق كينا
ربما وقعت شملت بها الروم منبأوا أذلة خاضعيننا
بعض بغضائكم ليس مفيقا أو يرد الأديان بالسيف دينا
غير وان في طاعة الله حتى يطمن الإسلام في طيننا^(٣)

وقال في إحدى قصائده :

وما زالت الأعداء تعلم أنه يجاهدها في الله حق جهادها
ولما طغت في دارها الروم اعتدت سفاهاً رماها جعفر بصاصها
كتائب نصر الله أمض سلاحها وعاجل تقوى الله أكثر زادها
فلا تكثر الروم التشكى فإنه يراوحها بالخيال إن لم يعادها^(٤)

(١) الشعر والنحو . ٧٠٠ (٢) ديوان . ٢٨١/٢

(٣) المصدر نفسه ٢٨١/١ (٤) المصدر السابق . ١٢٧/١

٩- الشبلي : (التوفى ٢٣٢٤هـ)

كنيته أبو بكر واسمه دلف بن محمد^(١)، وقيل جعفر بن يونس
- وهذا هو المكتوب على قبره - الزاهد المشهور صاحب الأحوال والصفوف^(٢)، وأصل
أهله من «أشروسنة» جنوبي طشقند الحالية، فهو تركي العرق، رقي أبوّه في قصر
الخلافة حتى أصبح حاجب الحجاب، إذ يزعم بعض من تحدّثوا عنه أنّه كان مصرياً
وأنّه ورد بغداد من مصر، وقد تركت مصر والأسكندرية فيه بعض طوبعها.
قرأ في أول أمره الفقه وبرع في مذهب مالك رحمة الله عليه، ثم عاد إلى العراق
فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النساج تلميذ السري السقطي
وآل حمزة البغدادي وعلى يديه تاب وأتاب، ولم يلبث أن لحق بالجنيد أستاذ الصوفاة
ببغداد حينئذ^(٣)، ويقال إنه عاد إلى ولايته ليستريح الناس ويطلب منهم العفو
إن كان قد أساء إلى أحد منهم وقسم أمواله في الفقرار، ورجع إلى الجنيد فأخذه
برياضات وبجاهدات عنيفة.

ومضى الشبلي يجاهد ويفضي في جهاده ولبشقى طوال حياة شيخه
الجنيد، حتى توفى شيخه سنة ٢٢٩٧هـ، صاحب الحلاج^(٤) وكان يزوره في السجن ولكنه
لم يعتنق مذهبه، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشرعية
متابعاً أستاذه الجنيد في إتباع الكتاب والسنة، بل التفقه ورواية الحديث النبوي

(١) التصوف في الإسلام. ٩٧ عمر فروخ

(٢) شذرات الذهب. ١٣٨/٢

(٣) تاريخ الأدب العربي، العبد الأول. ٤٨٣

(٤) التصوف في الإسلام. ٩٧

وبذلك لم يترك الحلاج فيه أى أثر. قال شيخه الجنيد "لا تنظروا إلى الشبلى
بالعين التى ينظر بعينكم إلى بعض خاينه عين من عيون الله". وكان الشبلى فقيها
عالما كتب الحديث الكثير، وقال محمد بن الحسن البغدادى سمعت الشبلى يقول،
أعرف من لم يدخل فى هذا الشأن حتى انفق جميع ماله وغرق فى هذه الدجلة
التي ترون سبعين قطرا مكتوبا بخطه وحفظ الموطأ وقرأ بالكذا وكذا قراءة عنى
به نفسه وقال كتبت الحديث عشرين سنة جالست الفقهاء عشرين سنة^(١)، و
صحب الجنيد ومن فى عصره وصار أوحد العصر حالاً وعلماً.

كان الشبلى ينعقد له مجلس أيام الجمع، يحضره الناس على
تفاوت طبقاتهم، وكان يحضره علي بن عيسى وزير المقتدر، وذاع صيته، فكان
يقتصد الطلاب والمتصوفة من كل فجٍّ. وما زال يحتل ببغداد هذا^(٢) حتى
فى ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ. ودفن بالخيزرانية ببغداد بقرب الإمام الأعظم
وله سبع وثمانون عامًا.

شعره الدينى :

وكان يؤمن بالفناء الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد كقوله:
تسرمد وقتى منك فهو سرمد وأُفئيتنى غنى فعدت محددا
وكلّى بكلّ الحلال وصل محقق حقائق حق فى دوام تخلدا

قبور الورى تحت التراب وللهمى رجال لهم تحت الشيا ب قبور
وعندى دموع لربكيت بعضها لغاضت بحور بعدهن بحور

وقال :

تغنى العود فاشتقنا إلى الأحباب إذ غنى
وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا (١)

وقوله :

جرى حبك فى قلبى كجرى الماء فى العود
الم واجب الوجود وخالق العالم شئ والعالم بكل ما فيه من مخلوقات
شئ آخر يخاطب ولكن لا يرى ولا يشاهد يقول :

ذكرتك لا أنى لستك لمح وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أنوت من الهوى وهام على القاب بالخفقان
فلما أرى الوجود اندى حاضرى شهدت موجودا بكل مكان
وظا طبت موجودا بغير تعلم ولا حفظ معلوما بغير عيان (٢)

وقال أيضا :

الوجد عندى محمود ما لم يكن عن شهودى
وشاهد الحق عندى يفنى شهود الوجود (٣)

١- المتنبى : (٢٠٣-٣٥٤هـ)

في حدود سنة ٣٠٣ للهجرة، وفي حملة كندة من الكوفة، ولد أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي^(١) في بيت فقرو بؤس.

نشأ محبا للعلم راغبا فيه، فالتحق أول أمره بكتاب للعلويين في الكوفة يدرس اللغة والشعر، وكان قوس الذاكرة، طموحا، فاختلف إلى مجالس العلم ومكاتب الوراقين يحفظ أشعار العرب وأخبارهم ويعنى ببعض المذاهب قراءة وسامعا، جاز في يثيمة الدهر، فلم يزل ينقله من باديتها إلى أحضرها ومن مدرها إلى أوبرها، ويسلمه إلى المكاتب ويردده في القبائل حتى توفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع.

صبت نفس الشاعر الناشئ إلى ما ليسد طموحه إلى المجد والعالي، ولم لا ينهد للرتب وهو جرس القلب بارح اللسان، والعصرعون على تحقيق أي مطلب يشد إليه صاحبه بعزم وإقدام. وهو لا يزال دون العشرين من سنه، ولكن روحه المتوقفة ألفت أن تشغل عن الجليل من الأعمال.

وكانت الدعاوى كثيرة والنفوس تنهية لها، فأقدم الشاعر على دعوة علمية لاقت من القبائل إرتياحا وسندا، وكاد يعظم خطرها لو لم يوقع به أمير حص فيعتقله زمنا ثم يطلقه بعد قوبة واستكانة، وشفاعة من الناس، وفي ذلك يقول الكاتب المتمرد، معتذرا بعدم بلوغه الحلم.

دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجلي ثقل الحديد

محمود شاكر

١٣٧

(١) المتنبى

١١٢/١

(٢) يثيمة الدهر -

تجمل في وجوب الحدود وحدي قبيل وجوب السجود

جاء في تاريخ البغدادى : « ادعى أنه علوى حسني ثم ادعى بعد ذلك النبوة فنجس دهرًا طويلاً وأشرف على القتل ، ثم استتيب وأشهد عليه بالنبوة فاطلق .. وفي رواية آخر .. ثم كتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها بطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام وأطلقه ^(١) وكانت هذه الرواية نقطة انطلاق لتبرير لقب المتنبى الذى لزم الشاعر والذى يفهم منه أنه حامل النبوة فأخفق .

بيد أن الآراء لا تلتقى عند هذه القضية ، إذ نجد جماعة من معاصري أبي الطيب وملازميه ودارسيه ، يذكرون سجنه لدعوة الإمامة والخروج على السلطان ، ولكنهم لا يعرضون لنبوته ^(٢) .

وشعر المتنبى لا يدل على محاولة النبوة ، بل يشكو في قصيدة الاستغفار من «الاشجين» ومن محبى اليهود» ومن اتقاه «العدوان على العالمين» عدوان أخذ فيه بالنية فعوقب والإرادة غير الفعل والتنفيذ :

وكن فارقابن دعوى اردت ودعوى فعلت بشأ وبعيد ^(٣)

وقد ظل على تنصله طيلة حياته ، ولو كان الأمر صريحاً لما استطاع له إنكاراً .

أما لقب «المتنبى» فقد لزمه على الأرجح لأنه شبه نفسه بالأنبياء في قصيدته .

أنا في أمة تداركها الله عزيز كصالح في ثمود

ما مقامى بأرض نخلة إلا كقام المسيح بين اليهود ^(٤)

(١) المتنبى	٢٠٨	نمود شاكر
(٢) أبو الطيب المتنبى .	١٨	جوزف الهاشم
(٣) ديوان المتنبى .	٤٩	(٤) المصدر السابق .

صحب المتنبي سيف الدولة، فأقام لديه تسع سنوات، منقطعا إليه
مرافقا إياه في حروبه،^(١) غانما من إعطياته ما جعله ينحل أفراسه عسجدا ويرك السرى
خلفه لمن قل ماله. فقد كان المتنبي شاعره المفضل حتى اتحد أسماها فإذا ما ذكر الواحد
في محافل التاريخ والأدب، قرن به الآخر بيسر وطبيعة.

وكان الكبير أبا الطيب، رتعا إليه على رجال البلاط وشعرائه وإثارة
سيف الدولة له، أن يؤلب عليه الحساد ليوقعوا بينه وبين أميره، فترك حلب
مغاضبا بعد أن استأذن في السير إلى أقطاع له. ووصل دمشق ثم سار منها إلى
الرملة، فحمل إليه أميرها الحسن بن طنجي هدايا وخلع عليه وأصل بالكافور الأخضر.
ومكث المتنبي في مصر عند كافور أربع سنوات ونصف، يطبع بولاية
ويلج في طلبها، وكانت فترات غام فيها ما بينه وبين الأمير، فانقطع عن مدحه،
وشعر أن كافورا يريد به شرا ففر من مصر ليستره الليل ويجاونه بعض الأنصار
إلى الكوفة.^(٢)

إن المتنبي في كل حياته يتجول من مصر إلى مصر آخر ومن أسير إلى
أسير آخر حتى قتل في طريق عودته إلى الكوفة.

وأروع ما يطالعنا به في مدائحه وصفه المواقف التي خاضها، أمير
حلب سيف الدولة، ضد الروم، فكانت جهارا ينفض به أمير قطر صغير في وجه
أعظم وحدة دولية آنذاك. وشهد المتنبي جانبا من هذه الوقائع، فترك عنها صورة

(١) ذكرى أبي الطيب بعد الف عام - ١٠١ عزام
(٢) أبو الطيب المتنبي ٢٢ جوزن العاشم

هي تجسيد البطولة بنفس ملحمي مخلق أقرب منها إلى اندح ما جُور لا يحس به صاحبه
إلا بمقدار ما ينتظر عليه من اثابة. وفي هذه المقاطع تتجلى عبقرية المتنبي لوحات
خاصة ومن لحات صافية من الشعر تنطق بأنه لو انصرف إلى اتو سيعها وتركيزها
موضوعيا لسد بذلك ثمة الفخر الملحمي في أدب العرب^(١)

يمتاز شعر المتنبي بالجودة والكثرة والتنوع، ولقد تفوق أبو الطيب
في شعر الحماسة والحرب وفي وصف الجهاد بين المسلمين والروم، وفي وصف القتال
بين سيف الدولة والقبائل العربية التي تجاوزه، وكان الشاعر محبا للأمير
وأخلص له وأشد بانتصاراته، فكان يحضر معه الغزوات والحروب ثم يعود
لينشده الشعر في مجلسه بحلب^(٢)

صحب المتنبي سيف الدولة نحو فتح سفات، فكانت أول نصيرة
له فيه عند لقائه في حربه للروم، وآخر نصيرة له عند خراجه في حربه للروم
وأكثر شعره خلالها قد ماله في هذا الحرب. ومن أجود قصائده في هذا الباب
اثنان في قلعة الحدث وثالثة في وصف الانتصار على دمشق الروم، ونظهر
فيها مؤرخا حربيا يسجل مستلزمات الحرب وما يرافقها وينتج عنها من الناجاتين
المادية والمعنوية وفي حالتي الظفر والازمية.

وقد قال في معركة خرسنة بعد الانتصار، أول مطلعها:

لهذا اليوم بعد غد أرتج ونار في العدو لها أحيج

فلا زالت عدائك حيث كانت فرأس أيتها الأسد المهيج
عرفتك والصفوف معيَّات وأنت بغير سيفك لا تعيج (١)
ومن هنا نذكر من شعره الجهاد الإسلامي، والقصيدة الالامية التي قالها أبو الطيب في
مطلعها:

رمى الدهر بالجرد الجياد إلى العدى وما علموا أن السهام خير
فما شعروا حتى رأوها مغيرة قباها وأما خلقها فخبيل
سحاب يطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف غسيل (٢)
والقصيدة التهنئة فيها هنا لسيف الدولة بالعيد وبالنصر أول مطلعها:
لكل امرئ من دهر ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا
ومستكبر لم يعرف الله ساعة رأى سيفه في كفه فتشهدا
هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده وعيد لمن سبى وضى وعيدا (٣)
وقال في القصيدة الأخرى:

وأشقى بلاد الله ما أروم أهلها بهذا وما فيها لجور جاحد
شنت بها الغارات حتى تركتها وجفن الذي فوق الفرجة ساهد
مخضبة والقوم صرعى كأنها وإن لم يكونوا ساجدين مساجد
أخو غزوات ما تغب سيفه رقابهم إلا وسجنان جامد
فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد (٤)

(١) ديوان . ٢٩١ (٢) المصدر السابق . ٣٤٩

(٣) نفس المصدر . ٣٥٩ (٤) أيضا . ٣١٤

وقال:

صل الحدث الحمراء تعرف لو نجا وتعلم أي الساقين الغنائم
 فلام وقت ذوب الغش ناره فلم يبق إلا صارم أو ضارم
 ومن طلب الفتح الجليل فإنا دفاتحه البهين الخفاف الصرام
 ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم
 ألا أيها السيف الذي لست مغداً ولا فيك مرتاب ولا منك عاصم
 ضيقاً لضرب المهام والمجد العلى وراجيك والإسلام أنك سالم
 ولم لا يعنى الرحمن حديث ما وقي وتغليقه هام العدى بك دائم (١)

وهذه القصيدة تعد من أعظم قصائد الحماسة في الشعر العربي.

١١- أبو فراس الحمداني: (٣٢٠ - ٣٥٧هـ)

شاعر قريب إلى القلب تحبه وإن لم تعجب به، بخلاف المتنبي تعجب به وإن لم تحبه. أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون، من أسرة أمراء كانوا في أوج عزهم ومجدهم، ولد سنة ٣٢٠هـ (٢) وكان جده حمدان قد اشتهر بالبأس في القتال والكرم وحسن السياسة، وغرس هذه الصفات في أولاده، فشبوا على حب المجد والاستخفاف بالمعارك. ووافق ظهورهم بدخول العصر العربي في الخلافة العباسية، ومناخسة قواد الشعوبيين، من فرس وترك

في بسط سلطتهم عليها، فاغتبنوا تلك الفرصة وباشروا الحروب^(١)، فاحتل عبد الله أبو سيف الدولة وعم شاعرنا، بلاد الموصل وأورشليم ابنه ناصر الدولة. وكان أبناء عمه قد تفرقوا في مقاطعات سوريا الشمالية، فملكوها فعلا.

وقد كان من حظ سيف الدولة أن أسبق كلهم إلى التمدد، فنصار أمير حمص، ثم انتزع حلب من يد أميرها أحمد بن سعيد الطلابي، فملك فيها وأنشأ حوله بلاطاً جمع الكثير من الأدباء والفجاء واللغويين^(٢)، فعاونوه أبناء عمه على إقرار هذا الملك، وكانوا له من أفضل القواد وأخلص المساعدين.

في أيام هذا الملك الكريم، الأديب، الشجاع، ترعرع أبو فراس، فنشأ على الفخر بجدته وأبيه وأعمامه، وخاصة ابن عمه سيف الدولة أمير البلاد فأتخذه في مجلسه، وكان يأنس بجدته، وهو نقي بعد ويتوسم فيه الخلال الطيبة في الشجاعة والأدب.

وما بلغ أبو فراس أشده حتى حقق آمال ابن عمه، فانخرط في سكره يزود عن البلاد هجمات الروم المتعددة^(٣)، ويحارب المستق ما تدعوهم في آسيا الصغرى، حتى إذا توقف القتال، عاد شاعرنا إلى مجلس مليكه فآخذ بمذاكرة الشعراء. وكان سيف الدولة يقدر شاعرية أبي فراس حق قدرها، ويحبه لكرم أخلاقه وشجاعته. وقد أقطعه على أكثر مساجلة شعرية، ضيقة بأعمال منبج^(٤). ولم يلبث أبو فراس أن صار والياً على كل تلك المقاطعة، فعاد إلى

(١) أبو فراس «نارس بن حمدان وشاعرهم» ٣٤ عمر فروخ

(٢) تاريخ الأدب العربي. ٦٤٧ النخوري

(٣) نيمية الدهر. ٩١/١

(٤) وفيات الأعيان. ٣٥٠/١

مخاربة الروم والذود عن حماه وحى ابن عمه، ولكنه لم يكن ليفارق سيف الدولة
بسرور، إذ أن البلاط وملاهيته ومجالسة الضيوف والأدباء كانت تستهويه، فظهر
ذلك كثيرا في شعره.

كانت أيام هذا الأمير الشباب حروبا متوالية، كما ذكرنا، وكان من طبيعة
الحال أن ينتهز رومة وينكسر أخرى. وهكذا ظلت الحرب سجالات حتى أسرى في مغارة الكحل
فجعله الروم إلى خرشفنة، وهي بلدة على الفرات، كان فيها لروم حصن حصين يطل
على النهر، ويظهر أن هذه البلدة كانت تتداولها أيدي العرب والروم، فتكون
تارة ليهولاء وطورا لأولئك، كما نستنتج من قول أبي فراس لنفسه في أسره:

إن زرت خرشفنة أسيرا فلقد حللت بها مغيرا

صبرا لعل الله يفتح هذه فتحا يسيرا (١)

إن أكثر شعر أبي فراس في الحروب والحماسة، والقصيدة المشهورة (الرائية)
التي قالها في أسره عندما قال له الروم اعتدادا عليه إنه لم يؤسر أحد فبقى
عليه ثيابه وفرسه وسلاحه غيره فقال:

أرأيت لعضد مع شيتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر

وإني لجبار لكل كتيبة بعودة أن لا يخل بها النصر

فاصدى إلى أن ترقوى البيض والقنا واسغب حتى يشبع الذئب والنسر (٢)

(١) أبو فراس الحمداني «سلسلة الروائع» ٢٢٦-٢ غزوات أنوار

(٢) ديوان أبي فراس. ١٥٩

(٣) المصدر السابق. ١٥٩

وهذه القصيدة من روائع الشعر الحماسي التي قالها في أسره مشيداً فيها
بقوة عزيمته وبأسه في قتال الروم.

ونرجع إلى القصيدة، فنجد أن مطلعها غير ملحمي إذ أنه بدأها بالغزل
على عادة شعراء العرب القدماء، ثم افتخر بفروسيته وبجد قومه ذاكرًا أسواق
الحامد لعبومته وأهليه^(١) حتى بلغ سيف الدولة وناصر الدولة فقال فيهما:

لنشد كما شادوا وبنى كما بنوا لنا شرف ماضٍ وآخر حاضر
فغنيا لدين الله عزّ ومنعة ومنا لدين الله سيف وناصر
وأوطأ حصن ورتينس خيوله ومبالحها لم يقرّخ النجم حافر^(٢)

وشعر أبي فراس في أسره ليسيل عذوبة ورقّة ويعبر عن وجدانه في صدق، وقد
كثرت أشعاره إلى سيف الدولة وهي في الاستعطاف والعتاب والنصح الحربي يقول في الأسر:

قد عذب الموت بأفواهنا والموت خير من مقام الذليل
إنا إلى الله لما نأبنا وفي سبيل الله خير السبيل^(٣)

والقصيدة الطويلة كتبها إلى سيف الدولة، وهي من القصائد الحماسية الموجهة قال:

إني أغار على مكاني أن أرى فيه رجال لا تسد مكاني
أول أن تكون وقبعة أو غارة مالي بها أثر مع الفتيان
سيف الهدى من حدّ سيفك يرتجى يوم يذل الكفر للإيمان
هذه الجيوش تجيش نحو بلادكم محفوفة بالكفر والصلبان^(٤)

الباب الرابع

تطور الشعر الديني في العصر العباسي

الفصل الاول

شعر الزهد والتصوف

الفصل الثاني

شعر الحماسة والجهاد

ومها قيل في العصر العباسي - بل في القرن الثاني الهجري - وإنه
كان عصر مجنون، لا سيما وقد شهد أبانواس ومجرد وغيرهما من الشعراء الماجنين، كما
شهد اضطرابات سياسية وثقن خلقية واجتماعية، فقد كانت الظاهرة الإسلامية
جلية مشرقة.

لقد علا القوم في تلك الفترة الباكورة العباسية وبالفوا في طلب الدنيا واللذات، و
أسرفوا في الرقص ورائ الشهورات، فكان من البهامة أن يظهر تيار آخر على نقض تيار
اللذة وطلب العيش والمتعة والإقبال على الدنيا، ولهذا نجد في كثير من هذا العصر
من عزوف عما في مجتمعاتهم من الصرف ومحاولة تصدي الفكري لمثل هذه التيارات
المضادة كما ظهر في شعر الزهد والنصوف.

وفي جانب آخر اشتعلت الحروب بين العرب والروم في عصر هارون الرشيد
ثم في عصر المعتمد - في الفترة العباسية الثانية - فقد اهتم الشعراء بتلك المعارك فوصفوا
مآدأ فيها في شعر حماسي بديع رائع، وقد استمرت هذه الحروب، فتحدث عنها الشعراء
وأجادوا في تصوير ومآلها وفرحة المسلمين بهذا النصر، كالمثني وأبي خراس وأبي تمام
وخلاصة القول أن شعر الجهاد وشعر الزهد - كلا الصنفين - موجودان في العصر العباسي،
وهذان الصنفان هما شروة الشعر الإسلامي في هذا العصر، وهذا ما سوف نعرض لهما
بالتفصيل في الصفحات التالية.

الزهد والتصوف.

ومن الأمور الطبيعية أن الغلو والتطرف في جانب من جوانب السلوك عند بعض الناس يقابله غلو وتطرف عند الجانب الآخر منهم، لقد غلا القوم في تلك الفترة الباكورة العباسية واشتطوا في طلب الدنيا والغنى في طلب الميزات، وأسرفوا في الركن وراء الشهوات، ولم يقف بهم الأمر عند ذلك بل اندفعوا إلى الزندقة والخروج عن رتبة الإيمان، فكان من البداهة أن يظهر ثيار آخر على تيفض ثيار اللذة وطلب المتعة والإقبال على الحياة، إنه ثيار الزهد والإبتعاد عن مباحي الحياة والدعوة إلى التحقير من شأنها والتفكير في الموت والنظرة إلى الحساب والعقاب والعودة إلى التقى والإيمان.

كانت المساجد في بغداد عامرة بالعباد والسناء وأهل التقوى والصالح، وكان في كل ركن منها حلقة لوعاظ يذكر بالهم واليوسم الآخر وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب المحيم. وكان من الوعاظ من يقيم نصر الخلافة ليعظ الخلفاء على نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد في وعظه للنصور وصالح بن عبد الجليل في وعظه للمهدي^(١) وابن السماك في وعظه لمهارون الرشيد^(٢).

وكان الوعظ في هذا العصر يلتم بالقصص للعظة والعبرة، وقد ازدهر هذا الوعظ القصص في عصر بني أمية عند الحسن البصري واضرابه، وتكامل ازدهاره في هذا العصر وقد كثر قصاص الوعظ الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض

المناج الديني وسلك السبيل الواضحة إلى نعيم الآخرة كثرة مفرطة.^(١)

ومن محبة أن الذين أمثلوا على الزهد وسعوا إليه وقالوا فيه شعرهم هم أنفسهم الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم إثمًا ومعصية وإلحادًا، أبو علي وجه أدق هم بعض أولئك الذين انغمسوا في طلب اللذة المحرمة حتى جبرضهم تباها وغمرهم عباها (١) إن منهم أبا نواس، وأبا العاصية وصالح بن عبد القدوس وكما كان هناك محمود الوراق الذي لم يكن من فروع العصاة، ولذلك فإن شعره في الزهد والحكمة أنقى منهم روحًا وأصفى محتوى وكذلك أكثر منهم من المحدثين.

أما أبو نواس فلم يقل ما قال من شعر الزهد إلا بعد أن تعدت به الصحة عن أن يستمر فيها ظل يخوض فيه من وحل وما يتركبه من إثم ورجس طوال حياته. على أن أبا نواس وهو في نخرة عصيانه، كانه ومضات طارئة من الإيمان تسلمه سريعًا، ثم لا تلبث أن تهرب من واقعه الأليم، ومع ذلك فإنها كانه تدفع بشأه عريته إلى الحكمة البالغة المستفادة من حياة الإلحاد والعصيان.

إن أبا نواس يؤوب أخيرًا من رحلة العصيان الطويلة إلى رحاب المنيوي فريضة الحج ويكبر مع المكبرين ويلبي مع الملبين وهو يطوف بالبيت العتيق! يقول:

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

الحمل وبادر أجلك واقتم بخير عمالك

لبيك قد لبيت لك

شوقي خفيف

٨٤

(١) تاريخ الأدب العربي «العباسي الأول»

صطفى الشكعة

٢١٠

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي

و يلجأ أبو نواس إلى الحسن الرحيم بكل رجائه و يتوسل العترة بخطبه و فراعته
النادم خير الناس من رحمته الم، جبراً عن صديق إسلامه ما تلا آخر شعر صدر عنه :

يارب إن عظمت دنوبي كثرة فلتقد علمت بأن عفوك أعظم

أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فاذا ردت يدي فمن ذا يرهم (١)

على أن أشهر شعراء الزهد في تلك الفترة العباسية على الإطلاق هو الشاعر

إسماعيل بن القاسم المشهور بأبي العتاهية . و أبو العتاهية نفسه لم ينح من الإتهام

بالزندقة ، وأنه لم يلتزم الزهد والتشكك إلا بعد أن أشتج نفسه من ملذات الدنيا وبعد

الجرى في حلبة أبي نواس و والبة و دعبيل و جماعتهم التي اتخذت المجون شعاراً و مذهباً

بل إنه لم يتشكك و يتوجه إلى الزهد إلا بعد أن أخفق في حبه .

غير أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن أبا العتاهية أكثر من شعر الزهد كثرة

شديداً بحيث يعبر في هذا الميدان نظيراً لأبي نواس في ميدان الخمر (٢) يقول :

وما فاز أهل الفضل إلا بصبرهم عن الشهوات واحتمال المكاره

و أبو العتاهية دائم التوكل على الله ، كثير الحمد ، راضٍ بالحاضر إذا قورن بالمستقبل

متخذ من أحداث الزمان عبداً و كثر الأيام موعظاً ، وهو في ذلك يقول :

أنا بالله وحده وإليه إنما الخير كله في يديه

أحمد الله وهو الهنيء الحمد على المن و الزيد لديه

كم زمان بكيت منه قدماً ثم لها مضى بكيت عليه (٣)

ويقول:

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار
الدارجنة خلد إن علمت بما يرضى الإله وإن قصرت خالدار (١)
ومن الشعراء الجيدين المقلين الذين شاهدوا ما في العصر من فساد وانحراف
ومقابلة نعمة الله بالمحور، وكرمه بالذنوب، محمد بن الحسين الوراق. إنه يرى
في تصرف أهل العصر عقوقاً، وقد كانوا خليقين بالشكر، يقول:

أمرني إذا ما ازددت مالا وشره وخيراً إلى الخير تزيدت في الشر
مكيف بشكر الله إن كنت إنما أقوم مقام الشكر لم بالكفر

ويواجه ابن الوراق جملة العصاة الذين يتظاهرون بحب الله ويبدون الزهد
والإيمان قولاً ويفترقون المعاصي عملاً فيسفه أفعالهم وأقوالهم في بيتيه البارعين: (٢)

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بدع
لو كان حبه صادراً لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع

ويبدو أن كثيرين من العصاة والعواظ كانوا ما يزعمون لينشدون في وعظهم
وقصصهم أبياتاً وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقهم، ومنها
ينشؤنه إنشأء، فمن ذلك ما يروى عن صالح المري القاص العابد من أنه كان كثيراً ما
لينشد في قصصه ومواظفه.

-
- | | | |
|-----|-------------------|-------|
| (١) | ديوان أبي العاصية | ٩٤ |
| (٢) | زهر الآداب . | ١٤٠/١ |
| (٣) | نفس المصدر | ١٣٩/١ |

إبراهيم بن علي القيرواني

وكان مالك بن دينار يحدث الناس لا يزال يتحدث في مجالسه عن الموت حتى
 لتكاد تخنقه العبرات، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه
 أجل محدود ونفس معدود،^(١) وعما قليل يصبح الإنسان تراباً في تراب كمن سبقوه
 فأولى له أن يتعظ ويعتبر، يقول:

أتيت القبور فناديتهم... ن آين العظم والحقير
 وآين المدل بسلطانه وآين المزكى إذا ما افتخر
 تفاؤوا جميعاً هذا مخبر وما تواجبهوا وما الخبر
 تروح وتغدو بناج الشرى فتحو محاسن تلك الصور
 فيا سائل عن أناس مضوا أمالك فيما ترى معتبر

ومن كان يكثر من الشهاد الشعر في مواعظه سفيان بن عيينه وسفيان
 الثوري، وكان الوعاظ بذلك قد عوا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كي
 يصوغوا على نطمها مواعظ تذكى الزهد والعمل الصالح في نفوس الناس، وقد
 أقبل كثيرون ينظفون دقات الزهد حتى بين الجبان حين كانوا يتحولون إلى
 أنفسهم على نحو ما عرّبنا عند أبي نواس، وكما يلقانا عند محمد بن يسير^(٢)، وكان ما جئنا
 هجاء خبيثاً، فقد ألم يوماً بمجلس أبي محمد الزاهد صاحب الفضل بن عياض، فأنشد:

ويل لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مشواه
 واغفلنا في كل يوم مضى يذكرك في الموت والنساء

من طال في الدنيا به عمره وعاش فالمرت قصاره
كأنه قد قيل في مجلس قد كنت آتية وأغشاه
محمد صار إلى ربه يرحمنا الله وإيا ه (١)

ومن اتهموا بالزندقة وتركوا شحوا جيدا في الزهد والإيمان والعزف عن
الدنيا والندم على الزنوب، صالح بن عبد القدوس، بل إن صالحا قد ضربت رأسه نتيجة
إلتهامه بالزندقة. إن ابن المعتز بعد أن يورد له العديد من الآيات والقصائد في
الزهد في الدنيا والترغيب في الجنة، والحث على طاعة الله عز وجل، وذكر الموت والقبر
يقول: نيا محببا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول (٢)

يقول صالح بن عبد القدوس في الدعوة إلى الإيمان والاستقامة:
فَوَحَقَّ مِنْ سَهْلِ السَّمَاءِ بِقُدْرَةٍ وَالْأَرْضِ صَيْرَ لِلْعِبَادِ مَهَادَا
إِنْ الْمَصْرَ عَلَى الزَّنَدِ لِيَهْلِكْ صَدَقْتَ قَوْلِي أَوْ أَرَدْتَ عُنَادَا (٣)
وكان من أشعر الخلقاء الجبان من يطلع إغلاعا عن غيبه، فيكثر من أشعاره
الزهد مفكرا عما قدمت يراه من مجون وخلاعة، ومن خير من يمثل ذلك محمد بن حازم
وكان ينغمس في اللحم والمجون، حتى إذا بلغ الخمسين من سنه آلى على نفسه أن لا
يشرب كأسا ولا يسير في طريق غواية، وأخذ يكثر من شعر الزهد حاضا على القناعة
ونطح الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الغالي بمثل قوله:

ومنظر الموت في كل ساعة يشيد ويبني داما ويحصن

(١) الأغاني . ٣٩/١٤

(٢) طبقات الشجر . ٩٢

(٣) شعر الدعوة الإسلامية العبيد الثالث . ١١٤

له حين تبلو حقيقة موطن وأفعاله أنعال من ليس يوتن (١)

ويقول أيضا.

أضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس وأمتنع بياأس فإن العز في اليأس

واستغن عن كل ذي قرى ذي رحم إن الغنى من استغن عن الناس (٢)

وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهرة حقيقية، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء، بل يكسفون من العيش بالكفاف. ومن اشتهروا في هذا الباب الخليل بن أحمد واضح النحو والعروض، وله أبيات كثيرة في الزهد والعظة من مثل قوله:

عش ما بدالك قصر الموت لا مهرب منه ولا موت

بيننا غنى بيت وبهجته زال الغنى ولقوض البيت

واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوى الجاه لما فى أيديهم من الدنيا، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب، وكان واليا على السند، وجه إليه يستزيه فكتب إليه:

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محال

والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذلك الغنى في النفس لا المال

وفي كل مكان يلقاها كثيرون يفرغون للنفس والتبذل والعبادة، مما دفع لظهور

مقدمات التصوف في هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهي الذي يتجرد عن كل مادة وحسّ والذي يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية، وما ترسله على الكون من أنوار الحق والخير والجمال المطلق ومن أروع ما يصور ذلك أبيات أربعة العدوية المشهورة: (١)

أحبك حُبِّين: حب الهوى	وحبا لأنك أهل لذا
فأما الذي هو حب الهوى	فمشغلي بذكرك عن سوا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك لي المحب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذا

وهي تميز بين حُبِّين: حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان في دنياه، وحبه لجماله وجلاله القدسي الذي رفعت المحب والأستار بينها وبينه، و هو الحب الصوفي المجرد الذي يفتنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة. على أن هذا الزهد الإسلامي وما يرتبط به من مقدمات التصوف كانت تجري بجانب أسراب من زهد فاسد وهو زهد الزنادقة الذين اعتنقوا تعاليم المانوية على نحو ما يلقانا في أشعار صالح بن عبد القدوس المصنوع المانويته وهي تزخر بالترغيب عن متاع الدنيا الزائل.

ومعنى ذلك أن العصر العباسي الأول شهد لعنين من الزهد: زهداً إسلامياً خالصاً أعد للنسك والتصوف، وزهداً مانوياً مارقاً. ومن الحق أن التصوف

لا يزدهر في هذا العصر، إنما يزدهر الزهد.

وأخذت لتسع في هذا العصر موجة المتصوف، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثاني الهجري عند إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي صاحب اليد الطولى في مبدأ التوكل وإشاعته بين أوائل المتصوفة^(١)، ومعروف الكرخي الذي أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وهدى لا النجاة من عذاب الآخرة.

في كل مكان نجد بينهم قصاصها يقصون على الناس من سير الأنبياء والأئمة الدائرة ما يدفعهم دفعا إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجماتهم هؤلاء القصاص والوعاظ، فنقص فيهم إيمانا صادقا وورعا مخلصا، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملا أو منصبا رفضه في إصرار، مؤثرا حياته الخشنة على اللباس اللين والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد وإحتقار لمناج الدنيا في جانب ما أمل من منافع الآخرة.

وبعرض القشيري في رسالته أقوالا مختلفة في اشتقاق كلمة صوفي، وهل هي من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرفة والتنعيم، أو هي من الصفاء أو هي من الصفة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢)، ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف^(٣) لأن كثيرين من الزهاد في القرن الثاني الهجري كانوا يلبسونه، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك.

(١) الفجر الزاهرة ٢١/٢ المحاسن

(٢) تاريخ الأدب العربي «العباسي الثاني» ١٠٦

(٣) المتصوف الإسلامي . ٥٣

إذن فالصوف الإسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره، وهو الرأى
العلمي الصحيح، ولكن تصور الصوف في دقة في أثناء هذا العصر، يحسن أن نستعرض
أئمتهم الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته في نفوس العصور التالية، وأولهم
الحارث بن أسد المحاسبي^(١) المتوفى سنة ٢٣٤ هـ، وقد نشر له رسائل مختلفة، وهي تدل
بوضوح على أنه جهد في ربط الصوف بالشرعية على طريقة أهل السنة، وكان يعتقد
مذهب المشافعي، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه
وجعله من الأحوال التي لا تكتسب على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات.
وفي ديوان ابن المعتز الضویری وابن الرومي زهد كثير، وبطل أحمد الميرسم
صورة الزاهد في هذا العصر كما رسمها ابن الرومي في قصيدة بديعة من قصائده، نكتفي منها
بالآيات التالية:

بات يدعو الواحد الصدا	في ظلام الليل منفردا
في حشاه من مخافته	حرقاً تملذع المكبدا
كلما مرّ العيد به	سبحّ ومع العين فاطردا
تأمل: يا منتهى أملی	نجنى ما أخاف غدا
رخطياً أتى سلفت	لست أحصى بعضها عددا
وبح عيني ساء ما نظرت	وبح قلبي ساء ما اعتقدت (٢)

وهذه المعجزة الحاة من الزهد أخذت تلتقي بها منذ أواخر القرن الثاني الهجري موجة صوفية

ونحن في العصر وليعلمنا أبو الفيض ذو النون المصري^(١) الذي يعد الأب الحقيقي للصوف، وهو أول من تكلم في مصر في الأقوال والمقامات عن المعرفة الصوفية نازلاً بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التي تقوم على الفكر والمنطق على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة، فهي معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدسي، ولها أقوال ومقامات، ومن قوله يخاطب ربه :

أمرت وماتت إليك صابقي ولا قضيت من صدق حبك أوطاري
تحمل قلبي إليك ما لا أبتغي وإن طال سقينيك أو أضراري

ويصح ذلك نيكلسون، فيجعله لا أستاذ الصريين وعدم في التصوف بل أستاذ المشاهدة أيضاً. ويخلفه أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي^(٢) المتوفى سنة ٢٧١ هـ. وهو الذي أدخل فيه فكرة الفناء في الذات الإلهية، وليصل بها مجرد النفس عن رغباتها وتبعها لشهواتها وانحار إرادتها في الإرادة الإلهية. وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله: «خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح مني في: يا من أنت أنا! فقد تحققت بتمام الفناء في الله». وروى من أمثاله التي تنعكس عليها آثار وحدة الوجود قوله: «سبحاني ما عظم شأنى». تلك الفكرة التي أخذت مكاناً مهماً في التصوف الإسلامي^(٣).

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت في الوضوح منذ أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، حتى لتتشأ طبقة تحاضر فيه مثل يحيى بن معاذ ومثل أبي حمزة الصوفي

المقنن سنة ٢٢٦٩ هـ، وهو أول من تكلم على رؤس المنابر ببغداد في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع المهمة والعشق والعزب والأنس^(١)؛

ونحن حتى نلتقى بالجنييد البغدادي^(٢) المقنن سنة ٢٢٩٧ هـ، رأس الطبقة الثانية من المصوفين وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية. ونراه يعبر عن فناء الذات الربانية بمثل قوله:

أفنيته عن جميعي فكيف أرى الخلا

وهو الذي عمل على ترسيخ نظام الطرق المريدين في الصوف، وكان يكثّر من العبارات والشطحات الموصفة في مواظبه. وكان يعاشره أبو الحسن النوري وكان شاعراً، ويكثر في أشعاره من التعبير عن الحب الإلهي ونكرة الفناء في الذات العلية بمثل قوله^(٣):

تأس بعين الحق إن كنت ناظراً إلى صفة فيها بدائع فاطر

ولا تعوط حظ النفس سخطاً لاجها وكن ناظراً بالحق قدرة قادر

ولياناً أبو الحسين سحنون الخواص، وله أشعار في المحبة الربانية، وكذلك في نكرة انقضاء المطلق في الله بحيث لا يصبح في المصوف. ومن تلاميذ الجنييد، أبو علي الروزباري^(٤) وكان أطرف المشائخ وأعلمهم بالطريقة، وكان يقول: المريد الذي لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له، يريد أنه هو الذي تغنى إرادته في الإرادة الإلهية بحيث لا يحس المريد أو المصوف شيئاً في الكون سوى الله، وكان شاعراً ومن شعره في فكرة الفناء وغيباب روحه عن حسن

أي شيء من الأشياء الكون :

روحى إيلدك بلكها قد أجمعت لو أن فيها ضلكها ما اتلعت

تبكى عليك بلكها عن كلها حتى يقال بن البكا، تقطعت

والبيتان يحلان فكرة الفناء، ومكرة المحبة التي تخلص النفس لربها. والفكرتان تتداخلان في التصوف. وأشهر تلاميذ الجنييد البغدادي، هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاج، وله أشعار كثيرة في التصوف^(١)، وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول بمثل قوله:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فاذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وقد رشح الرسول صلى الله عليه وسلم مراتب فوق جميع الخلق، ويبدو أنه أول من أعد لفكرة الحقيقة المحمدية، وأن محمداً بذلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يعد مبدأ العالم، إذ هو النور الذي تفجرت من ينابيعه جميع أنوار النبوة^(٢)، ومن أهم الصوفيين المتأخرين في العصر، الحكيم الترمذي محمد بن علي بن الحسن بن بشر^(٣) المتوفى سنة ٣٢٠هـ، وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتباً كثيرة، ويقال إنه هو الذي

أدخل بقوة نظرية الولاية في البيئات الصوفية وكل ما جرت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أوليائهم وصفوته في خلقه.

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجري تلقانا ظاهرة جديدة في بيئات الصوفية فقد كان السابقون منهم لا ينظفون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين، وهم في أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد، أما منذ أبي الحسين النوري فإن صوفيين كثيرين ينظفون الشعر عبرين به عن الشياخ قلوبهم في الحب آمليين في الشهود مستعطفين متضرعين، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم إشتاراً مطلقاً^(١) كأبي الحسين الفواص وأبي علي الروزباري والشبلي وجميعهم من تلامذة الجنيد.

وموضح مما تقدم أن العصر العباسي الثاني لم يكدر ينقضي حتى تأصلت في الصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أوليائهم.

الحماسة والجهاد .

مع أن عصر الأحزاب السياسية قد انتهى بانتهاء حكم الأمويين إلا أن البقية الباقية من ثلول الخوارج والشيعة كانت تقاى في هذا العصر في حروب داخلية للدفاع عن مبادئها وأفكارها السياسية والدينية، ثم لم يلبث أن أخذت حروب الدخلية بين هذه العناصر، وكان ذلك أحد الأسباب في ضعف الشعر الحماسي الديني في هذا العصر، وعاون على هذا الضعف أيضا توقف الفقه الإسلامي حينئذ من الزمن في أوائل هذا العصر، وذلك لإشتغال العبّاسيين بتوطيد ملكهم وتأسيس دولتهم.

ثم اشتعلت الحروب بين العرب والروم في عصر هارون الرشيد، ثم في عصر العتصم، وسواء أكانت هذه الحروب على البر أو في البحر، فقد اهتم الشعراء أيضا بالمعارك فوصفوا ما دار فيها في شعر حماسي جديد ورائع.

فليس للأدب أن يعنى في السياسة بحسبه أن يعرض للحوادث والفتن التي أثارت شعرا حماسيا ذا أثر فني. فإذا استطعت أن أتبع بالدراسة والتحليل هذه القصائد والمقطوعات من شعر الجهاد والحماسة التي قالها زعماء الشعراء الحماسي أبو تمام والبحتري، فقد بلغت هذه الغاية الفنية في أدب العصر العبّاسي التي قصدت إليها:

قبل أن نذكر الشعراء الآخرين، ذكرت أشجع السلمي، وهو شاعر قصص الخلافة في

عصر هارون الرشيد، وانه قدم بغداد في أواخر عهد المنصور، مهدج ابنه جعفر ولم يكمل
 يبرز عصر هارون حتى وصلته به زوجته زبيدة بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه، و
 تؤكد بعض الروايات أن أول اتصاله به إنما كان في الرقة حين انتقل إليها من بغداد
 لينفر منها سريعا إلى حرب الروم حين يدعوا الداعي ومن أجل ذلك استقر لها مدة، وظن
 أن اتصاله بالرشيد يسبق هذا التاريخ.

ولعله لم يكثر من مدح صاحب لهم كما أكثر من مدح محمد بن منصور بن زياد
 ومضى بعد نكبتهم بجاول العربى من الرشيد وأوصله له حاجبه ووزيره الفضل بن الربيع
 تامله: هذا شعر شراى أهل العصور وقد اقتطعته عند البرامكة تأمر بإيصاله مع الشعر^(١)
 وقد تغنى بأنتصاراته على تقفور وجندوه ونحه لهم قلة غناء حاراً من مثل قوله:

يشنى على أيامك الإسلام والشاهدان: الحل والإحرام

برقت سداؤك في العدو وطرت هاما لها ظل السيوف غمام

وعلا عدوك يا بنى عم محمد رصان: ضوء الصبح والأظلام

فاذا تنبه رعته واذا غفا سلمت عليه سيفك الأعلام^(٢)

فلما بلغ هذا البيت في القصيدة اهتز الرشيد، وأمر بأن ينشر عليه الدرر

إحجابا واستحسانا. وكان الرشيد يكثر من تجه إلى البيت الحرام ومن جهاده العنيف

لروم قاسها سنيه بين حج وغزو، فصور ذلك أشجع تصويرا بدعيا في قصيدته:

ألف الحج والجهاد فما ينفك من سفرين في كل عام

(١) تاريخ الأدب العربى، المجلد الأول، ٣٣٩

(٢) شعر الدعوة الإسلامية، المجلد الأول، ١٥١

سفر الجهاد نحو عمرو والمطايا لسفرة الإحرام
 طلب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم
 نبيه يد بمكة تدعو وأخرى في دعوة الإسلام (١)
 ويقول من تصيدة أخرى وقد جلس لشعراء عقب هذا الفتح هزلة، في يوم

عيد :

لازلت تلتفت أعياداً وطعماً
 تمضي بها لك أيام وتمضيها
 وليهتك الفتح والآيات مقبلة
 بالنصر والعزم معقود الوصايا
 أمست هزلة تهوى من جانبا
 وما صرنا والإسلام يرميها
 إن الخليفة سيف لا يجرد
 إلا الذي يملك الدنيا وما فيها (٢)
 وله مدائح مختلفة، وكان يجيد الرثاء كما يجيد الدبح إذ كان يعرف
 كيف يمس القلوب وكيف يستثير الحزن في الصدور.

وأظهر ميالاً للحرب في شعر أبي تمام تصانده في الحروب التي وقعت زمنه
 في شرق العراق وغربه. أما حروب الشرق فكانت فتناً، كبرها حرب الأنشيين قائد
 المعظم لبابك (٣) الذي خلع الطاعة واعتم بصحبه في أرض "البز" وأملح أذربيجان
 مقاتله الأنشيين. وكان بابك الخرمي كغيره ممن نهضوا بالفتن يبدون ثرائهم "بدعوة روحية".

(١) شعر الدعوة الإسلامية، العباس الأول، ٢١٦

(٢) المصدر نفسه، ١٥٢

(٣) إن بابك أفسد مدناً كثيرة في مدة عهده وأخرب عدة حصون وأباد العالم وعجزت
 الخلافة والمروء عنه لفراره وطالت أيامه نحو عشرين سنة أو أكثر.

نقد تحرك بالشقرة منذ عهد المأمون.

ولما صارت الخلافة بعد المأمون إلى المعظم تبهر فرأى أنه محاط من جانبيه

بما أحيط به أخوه المأمون من فتنة الشرق وحرب الغرب.

وأراه قد ثقف السياسة الحربية فلم يتعرض لما تعرض له أخوه من

النهوض لحرب عدوية في آني واحد، فاملى لروم، وجعل حربهم مناوشة وصدراً

حتى استطاع أن يأخذ بابك أخذة واحدة بخارج الأتشين مغلول العنق مصفود

اليد بين مكسور الشوكة ومغلول الجمع.

وليس يعني أن يكون الأتشين تارة في رأي التاريخ بطلا وإنما الذي

يجهنا أن نرى إلى صورته في إطار الحاشية العباسية على لسان الشعر، ومن أجدر

من أبي تمام أن يصف لنا حرب الأتشين لبابك، وكان منها قريباً رجلاً عليماً و

عند الخليفة أثيراً.

لأبي تمام شعر كثير في هذه الفتنة ولكن اجتمع له وصف وأوعاه لبيان، هدفه تصديده

الكبرى التي يعني فيها المعظم بعد صلبه بابك في سامرا، قال:

يا يوح أرشق كنت رشح منية للخرمية صائب الأبال

أسرى بنو الإسلام فيه وألجوا بقلوب أسد في صدور رجال

لما آهم بابك دون السن هجر الخوابة بعد طول صيال

تخذ الفرار أخاً وأيقن أنه صرى عزم من أبي سهل (١)

ثم يجعل أبو تمام ملائكة السماء تحارب مع المسلمين، وقد استاز شعر الإسلام
بهذه المعاني الدينية يدعم بها الشعراء إيمان الجنود.

نزلت ملائكة السماء عليهم لها تداعى المسلمون نزال.

كانت ناجعة زبطرة. على أيدي الروم سبياً في فتح عمورية بل كانت جواب
انتقام صاعق رد فيه العتقم على "تيوفيل بن ميشيل" إمبراطور بيزنطة. وكان كل من
الخليفة العباسي أمير المؤمنين، وعاهل الروم يري الآخر الدخوص.

يلخص "ناسيليف" الأديب الفرنسي ناجعة زبطرة مستعينا بمورخي
العرب كالطبري وابن الأثير، فقد روى أن تيوفيل جهز جيشاً في سنة ٨٣٧ م بن مائة
ألف مقاتل بينهم بلغار وروس وفيهم خرس أتباع بابل الخرمي هربوا إلى بلاد الروم
بعد اندحاره، فجار هذا الجيش إلى زبطرة وكان فيها المسلمون، ففتحها تيوفيل و
أهلك أهلها وسبهاها، ثم أحرقها واسترق نساءها وصبيانها، فساقهم إلى
القسطنطينية، فلما بلغ المعتقم الخبر قفز إلى ظهر جواده وأعطى الأمر بالنفرة في ساعته.
وتوارى خنا على ضبه ذلك من الرصف إلا أنها تزيد في هذه الحادثة، فتذكر
إمرأة هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم: وامتصاه! وبلغ الخبر المعتقم
مغضب للإسلام غضباً ملك عليه لبه، فتجهز من ساعته أعظم التجهز، وسأل عن
أعظم مدن الروم، فقيل له "عمورية" فسار إليها بجيش لم يسمح بمثله من
قبل، ففتحها مدينة عمورية. وكان أبو تمام مع المجاهدين، نشاهد كل ذلك

بأثم عينه فأثر فيه أعمق التأثير وخلده في هذه القصيدة الرائعة في "فتح عمورية" التي
صلى من عيون الشعر العربي التي طالعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفايح لاسود الصحائف في	متوحن جلا والشك والريب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به	نظم من الشعر أوثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له	وتبرز الأرض في ألوانها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	منك المني حفرًا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد	والمشركين ودار الشر في صعب
جرى لها الفأل نحسا يوم الفرة	إذ غودرت وحشة الساعات والرجب
لما رأيت أختها بالأسن قد خربت	كان الخراب لها أعدى من الحرب

ونحن نسامح شاعرنا العظيم ، فقد كان قبل حين يتحكم بالمنجمين ويرميهم بالتخمين
ما باله الآن يقول بالفأل وأنه جرى نحسا لعمورية نتهدمت كما تهدمت الفرة !

فإن عمورية أحرقتها أمير المؤمنين بيوم لاهب ، ذليل الصخر والخشب .

لقد تركت أمير المؤمنين بها	لنار يوما ذليل الصخر والخشب
لو يعلم الكفر كم من أعصر كنت	له العوامب بين السدر والقضب
تدبر بعظم باله منتقم	لهم مرلقب في الله مرلقب
لم يغز قوما ولم ينهض إلى بلد	إلا تقدمه جيش من الرعب
لوم لقد حفرها يوم الوغى لغدا	من نفسه وحدها في حفر لجب

وقد تهلل الطائي نأبطاً، نأين صارع عورية؛ وأين البطارقة على أبراجها؟ و
أين عديد الروم وعدتهم منها؟ إن أبا تمام يحل كل هذا فيقول المعصم:

رمى بك الله برصها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما أثنوها واثنين بها والله مفتاح باب المعقل الأثيب

وتحقت المرأة المهاشمية التي صاحت بزبطرة و يبلغ صراها إلى مسامع أبي تمام
فيلبسها بشعره واصفاً أمير المؤمنين.

لبست صوته زبطرة ياهرت له كاس الكرى ورضاب الخرد العوب
حتى تركت عمود الشوك منعراً ولم تخرج على الأوتاد والطنب

خليفة الله جازى الله سعيك عن جوثمة الدين والإسلام والحسب. (١)

ووجدت أشدهم بأساً على الروم وأخطرهم حرباً هو أبو سعيد محمد بن يوسف
الشغري وأرسميه «أسد الشغور» عاملو الله بأسين على أرمينية، فقد سلخ أيامه منذ
ولاه المعصم على أرمينية في سنة ٢٢٠ هـ إلى موته في الخلافة المتوكل سنة ٢٣٧ هـ، فعرف
بذلك الشغور وبني كثير من الحصون التي هدمها الروم وكان الأسد القاتم على أرباض
العواصم.

والذي أجعل هذه القصائد الحماسية مصدر التصوير بطولته أبي سعيد ورسم بأسه
في الشغور وسلطانه على الروم، فمن خلالها يتبين أن أبا سعيد كان البطل العظيم في
حروب عصره. ولعل أبا سعيد بما كان موصوفاً به من الكرم والسماحة والمعروف

قد اجتذب إليه شاعر عصره ، فأكثر فيه المدائح حتى لو احصينا ما قاله أبو تمام والبحراني
في المعظم أو المتوكل لأرربت قصائدهما في أبي سعيد على عدد ذلك ، وهذا فضل الشعر على
التاريخ . كلا الشاعرين ذكر في شعره حروب الروم وأعطاها من أبياته النصيب الأوفى
وملاها نظراً إلى بطولية أبي سعيد .

أما أبو تمام - وهو أكبر شاعر في عصره - فكان عليه ألا يكون في معزل عن حروب العرب
والروم ومنذ ظهرت في شعر الطائي هذه الحوادث الحماسية كانت دليلاً على حياة هذا الشعر .
جعل أبو تمام الشطر الثاني من قصيدته هذه مدحاً لشجاعته أبي سعيد وتصويراً
لمحنته وفضاله النبيلة وأنه كوكب الإسلام ونصير الدين وحامي الثغور فقال :

لولا جلاد أبي سعيد لم يزل	لشغل صدر ما عليه صدر
حتى التقوى من تقع تسلطها على	حيطان مسطظنية إحصار
أوقدت من دون الخليج لأهلها	ناراً لها خلف الخليج شرار
فهناك نار وغى تشبهاها	جيش له لجب وغم مغار
فالمشي همس والنداء إشارة	خوف انتقامك والحيث سرار
لله در أبي سعيد أنه	للضيف محض ليس فيه سمار
هو كوكب الإسلام أية ظلمة	يخرق فليح الكفر نهار
غادرت أرضهم لخيالك في الوغى	وكان أمتعها لها مضار
أيامنا مصقولة أطرافها	بك واللبا إلى كل ما أسجار (١)

ذاك الوصف الحر في المنزوح بالمدح يجعله نظاماً حاسماً وكأنه وحده

فمن يتم أنما ويجه بلون آخر، وهو مدح الكرم والمودة وعون الإسلام.

أكثر حبيب مدح أبي سعيد، وقد أخصيت مدائح فيه فوجدتها أربعاً وعشرين

درجة لم يزل الطائي مثلها لأحد كثرة وتحسيناً. ويدح أباً سعيد ويذكر وقعته بالخرمية يقول:

لله أيامك اللاتي أغرت بها صفر المهدي وقديماً كان قدمها

كانت على الدين لاسامات من قصر وعدّها بآبك من طولها حجبها

عادت كتابه لما قصده لها ضاحياً ولقد كانت ترى لجبا

لما أبوا حجج القنوان واضحة كانت سيرتك في هاماتها حجباً (١)

ويدح أيضاً أباً سعيد الثعري:

يا فارس الإسلام أنت حميته وكفيتها كلب العدو المعدي

ونصرته بكتاب صيرتها نصبا لعورات العدو وبرصده

أصبحت مفتاح الشغور وقفلها وسداد تلمتها التي لم تسدد

أخصيت للإسلام نجدة خالد ونسحت فيه ملتحم ولنجده (٢)

وتصانده أبي تمام في أبي سعيد كثيرة مثبتة في ديوانه، أكثرها في حروبه مع الروم

وبعضها في سائر وقعاته. وابن وقعة، عقر قس، كانت أشهر وقعات أبي سعيد

وأضرها على الروم وأشهرها، ولذلك نرى أن أبا تمام قد ذكرها ثلاث مرات

وأرى أحسن صورة لها عند أبي تمام في قصيدته القافية التي أولها:

ما عهدنا كذا بكاء المشوق كيف والدمع آية المشوق
 في كفاة يكسون نسج السلوقي وتعدو بهم كلاب سلوقي
 يتساقون في الوغى كاس موت هي موصولة بكأس الرحيق
 وقعة زعزعت مدينة تسطنطين حتى ارتجت لبسوق فروق
 كم أسير من سر بهم وقتيل رادع القلوب من دم كالخلاق
 جأر الدين واستغاث بد الإسلام من ذات استغاث الغريق
 إن أياك الحسان من الروم لحر الصبح حر الغبوق (١)

وصف الطائي تلك الغزوة في ديار الروم خلال القرى، وما لقي الروم من وابل بأيدي
 المسلمين. وهي قصيدة كبرى تكاد تكون نشيداً من ملحمة الحرب الرومية قالها في أبي سعيد:
 وسأحر القصائد الحماسية التي قالها أبو تمام في أبي سعيد من هذا الضرب
 تجمع معانيها بين تنكيل بالروم وكسر شوكتهم -
 وتوفي أبو تمام قبل أبي سعيد بسبع سنين، فأورثه في حياته وفي مائة
 ذكر بطولية لا تحيى وخلصه فحاركه مع الروم في شعر كتب له الخلود - وإن
 كان البحترى لم يفته ذلك فوصف بطل الشجر في حياته وبكاه في مماته.
 وطالما كان البحترى متماً لأبي تمام وتلك سنة الفن في بعض الشغوص
 الأدبية، إذ يكون أحد الأدباء في حاجة إلى التكامل، فلا يتم إلا بأديب آخر
 يتقيل ظلاله، فيفيض على غزاره ويعزف على قيثاره (٢)

ظل أبو سعيد الثغري هو البطل المهيمن على الثغور، وهو الحارس الجبار المحدود
الإسلامية بين ديار الروم وملك الإسلام، وكان حتماً لزاماً على شاعر مثل البحرى - و
قد تقيّل ظلال أستاذه أبي تمام - أن يحذو حذوه في امتداح أسد الثغور وأن يجرى
على غراره في صناعة الضن، ويمدح البحرى أبا سعيد في هذه القصيدة فيقول:

نبت الله وطاقة لك أمست جبلا راسيا على المشرقينا
ربما وقعت شملت بجا الروم نباتوا أذلة خاضعيننا
فزعوا بأسك الصبي فعاتت حركات البكاء منه سكونا

والى أرى في هذا البيت وحده غنية عن قصائد في تصوير بطولية أبي سعيد و
بطشه في ديار الروم وحماية حدود المسلمين، وكذلك يفعل منه في مدينة طبرين
وكلمة يطعن في بقية الأبيات التي يصف بها ظفر أبي سعيد بعقر قس، وتخليقة
الهام في قوس الروم فيقول:

ونفيرا إلى عقر قس انفرت فكنت المظفر الميهونا
بعض بغضائكم نليس نفيقا أو يرد الأديان بالسيف دينا
غير وان في طاعة الله حتى يطعن الإسلام في طبرينا (١)

وأعقب الإهتمام بهذه الحروب المتوالية بين الروم والمسلمين أن يتبع البحرى
بشعره ابن أبي سعيد الثغري، فيصف حروبه وصفه لحروب أبيه، وكان يوسف بن
محمد بن أبي سعيد الثغري، كما بيّنه صاعقة منقضة على الروم، ولولا أن عابله منيته

(١) ترتيب وتجميع عبد الرحمن البرقوقي

٢٨٤/٢

(١) ديوان البحرى

(٢) هو ابن أبي سعيد، ولده المتقلل حرب أرمينية وأذربيجان وخارجها بعد وفاة أبيه في شوال سنة ٢٢٣٤هـ.

بأيدي بطارقة أرمنية لأستأصل شامة البيزنطيين من الغرب كله.
وقد عني البحري بحروب الإبن، كما عني أبو تمام بحروب الألب، فكانت له
قصائد غرّ يصف بها غزوات ابن أبي سعيد في حروب الثغور، منها قصيدته التي مدح
بها يوسف بن محمد الثغري. فيقول:

يا يوسف بن محمد ما أحمد الرو..... مع الصلاتك بالحسام المرف
وكانني بك قد أتيت لعرشها والسيف أسرع هبة من آصف
أنزلت بالإنجيل نعم بأهله ذلاً أراهم عز أهل الصحف
منج سبقت به الفتوح فجاؤني ميلاد ملك العاشر المستخلف (١)

وأقرر أن آخر قصيدة قالها البحري يا ابن أبي سعيد - قبيل مقتله - هي
الرائية، فقال يذكر الحادث التي ذكرها، ثم يخجل خالعا عليها كلمة شعره وتزاولني
منه، وناخا في أبياتها روحاً من الحماسة تنطق الحديد بزمجرة وهزيم، وذكر
أسر العرب «لبقراط بن أشوط»^(٢) بعد أن شاغب الإسلام بالتحريب فحسين عاماً
يعيش بالتحريب أيام لواناه ولا زاجر، فقال مادحاً:

رأيت أبا يعقوب^(٣) والناس ذو حجيّ يؤمله أو ذو ضلال يحاذره
هو الملك المرجو للدين والعلل مله تقواه وللمجد سائر
ولا عز للإشراك من بعد ما التقت على السفح من عليا طرون عساكره

وما كان يقرأ ابن أشوط عنده بأول عبد أو بقية جرأه
وقد شاع غلب الإسلام خمسين حجة فلا الخوف ناهيه ولا الحلم زاجره
ولما التقى الجعان لم تجتمع له يراه ولم يثبت على البيض ناظره (١)
وقف البحرى كثيرا من شعره على الروم في حروبهم مع المسلمين حتى
صحت به حوادث من التاريخ ووضحتها، ولو اقتصر المحقق على التاريخ وحده
لم رأى عصر المتوكل عصر تخاذل على الثغور وانكفاء أمام الروم. وقد وصف
البحرى في إحدى قصائده في المتوكل ومجده:

وما زالت الأعداء تعلم أنه يجاهدونها في الملقى جهادها
ولا طغت في دارها الروم وأعدت سفاهارها جعفر بصادها
أعد لها فرسان جيش عرمرم عداد حصى البطحاء دون عدادها
كتاب نصر الله أمضى سلاحها وعاجل تقوى الله أكثر زادها
فلا تكثر الروم التشكى فإنه يراوهم بالخيل إن لم يعادها (٢)
ومن كل ذلك يتبين أن العرب والروم في العصر العباسي كانوا متشابهين
في أمور الحرب وقوام الحكومة وطريقة العقاب.

كذلك كانت الحروب بين العرب والروم زمن العباسيين لم تكن على الدوام
وإنما كانت تنقطع حيناً، نبحث بين الملكيتين صدامات، وألفه سفارات. وفي هذه
القصيدة يمدح بها أبا الحسين إسحاق بن إبراهيم حارب الخرميين^(٣) وفض جبهتهم فيقول:

(١) ديوان
(٢) المصدر نفسه
(٣) شعر الدعوة الإسلامية «العباسيون الثاني» ١٢٨

وعلى الأمير أبي الحسين سكينته في الروح يسكنها المهنر الأغلّب
 وللحربة الإسلام حين يهزها هول يراع له انفتاح ويهذب
 تلك المحمرة الذين تمهاقوا فمشق في غيّه و مغرّب
 الله أيديكم وأعلى ذكركم بالنصر يعزّاء في السماء ويكتب
 والسابقون إلى أوائل دعوة يرض لها رب السماء ويغضب
 ونظفرون إذا استقلّ لؤدّهم بالعزّ أدرك ربّه ما يطلب (١)

وقد استمرت الحروب بين العرب والروم في العصر العباسي الثاني
 وتحدث عنها وأجاد في تصوير وتأنّعها الشعراء العظماء . أبو الطيب المتنبي و
 أبو فراس الحمداني في ظل سيف الدولة ، وهذا ما سوف نعرض له فيما يأتي من صفحات .
 يمتاز شعر المتنبي بالجودة والكثرة والتنوع ، ولقد تفوق أبو الطيب
 المتنبي في شعر الحماسة والحرب ، وفي وصف الجهاد بين المسلمين والروم وفي وصف
 قتال بين سيف الدولة والقبائل العربية التي تجاوزته ، وكان الشاعر محباً لأبيه
 وأخلص له وأشدّ باً انتصاراته ، فكان يحضر معه الغزوات والحروب ثم يعود ليشره
 الشعر في مجلسه بجلب ، وما أسهم في إجادة المتنبي لشعر الحماسة أنه كان فارساً
 ومقاتلاً ومحبه للدم العرب وشقراً لبني جلدته .

وإذا كانت السيفيات قد زادت عن الثمانين قصيدة ومقطوعاته ، فإن شعر
 الحماسة فيها يبلغ أربع عشرة قصيدة ومقطوعتين في وصف سيف الدولة مع الروم

وكل هذه القصيدة الحماسية تفيض بالقوة والشجاعة والبسالة^(١).

صحب المتنبي سيف الدولة نحو تسع سنين فكانت أول قصيدة له فيه عند لقاءه (في حربه للروم) وآخر قصيدة له عند فراقه (في حربه للروم) وأكثر شعوره خلالها قد قاله في هذا الحرب. وإن لهذه المصائد بقي الدهر تشدا يردد ذكر سيف الدولة على خلود المتنبي، وكان من حظ أمير حلب أن ينظم فيه شاعره المتنبي أحسن قصائده وأروعها في كل عمره الشعري، فيعترن خلوده بخلوده ومجده الأدبي بمجده الحربى.

وكانت المعارك بين العرب وسجلا في عهد سيف الدولة، يكتب فيها الظفر حيناً للمسلمين وحيناً للبيزنطيين. وفي معركة خرشنة أو معركة جبل اللقان سار سيف الدولة وبعه المتنبي لأول مرة وتوغل في أرض الروم وعبر نهر آلس^(٢) "HALYS" الذى ذكره أبو تمام في روميائه وهو نهر عظيم. ثم نزل في مدينة "ضارحة" DHARIJA. وفي قصيدة المتنبي "ضارحة" (٣)، فأحرق بعضها وكنا نسميها وأرباض خرشنة وما حذر السيل. وقد قال أبو الطيب في هذه المعركة قصيدتين الأولى بعد الانتصار في جبل اللقان:

لهذا اليوم بعد غد أرتكح ونار في العدو لها أجيح
نلازلت عدائكم حيث كانت فرأس أبحا الأسد المهيح
عزنتك والصفوف معجبات وأنت بغير سيفك لا تعج

- | | | |
|-----|---------------|---------|
| (١) | شعر الحماسة | ١٤ |
| (٢) | عجم البلدان | ٣٥٩ / ٢ |
| (٣) | المصدر السابق | ٥٥ / ١ |
| (٤) | نفس المصدر | ٣١١ / ٣ |

ووجه البحر يعرف من بعيد إذا يسجد فكيف إذا يحوج
 بأرض تملك الأشواط فيها إذا ملئت من الركن الفروج
 تحاول نفس ملك الروم فيها فتفديه رعيته العلوج
 أب الغمرات توعدنا النصارى ونحن نجومها وهي البروج (١)

وهي قصيده لا تزيد عن اثني عشر بيتاً، إذ أن ساحة القتال ليست مكاناً
 ملائماً للإطالة في قرض الشعر، وهي لا تعدو أن تكون إرشادة لسيف الدولة وإنزالاً
 للأعداء وتحريضاً للجيش المسلمين وتعبيراً عن آمال المتنبئ وثقته في الفوز العظيم
 على الروم -

والقصيدة الثانية: قالها في حلب وألحدها في قلعة سيف الدولة ومنها يشيد
 بحماسة ويذكر إتياله على العدو، وإلقائه معه، ثم يعيب على الأسرى الذين وقعوا
 في قبضة الروم. ثم انتقل بعد ذلك إلى سيف الدولة فذكر أنه الفارس الشجاع الذي
 يشب على الخيل ويوقرها إذا أرادت الفرار، وهو شجاع وإن كان وحيداً، وعليم في
 ساعة الغضب. وذكر أن الملوك تحسب بجيوشهم، لكن ابن أبي الهيثم (٢) هو الذي يحمي
 جيشه ويعود للقضاء العدو، وهو لا يقنع بالانتصارات الملمت الذي لا يرتوي ولا
 يشبع يقول:

وفارس الخيل من خفت فوقها في الدرب والدم في اعطافه دمع
 بالجيش تمتنع السادات كلهم والجيش بابن أبي الهيثم تمتنع

تاد المناقب أمضى شربجانزل على الشكيم وأدنى سيرها سرع
لا يعفى بلدا مسراه عن بلد كالمث ليس له رى ولا شبع
حتى أماس على أرباض خرشنة تشقى به الروم والصلبان والبسج

وإذا فعل سيف الدولة ذلك بحدن الروم وأسرى البيزنطيين، فإنما
هو يكيل لهم بمثل ما كالموا به، إذ كانت الحرب سجالات بين المسلمين والروم منذ فتوح
الخلافة الراشدين إلى آخر الحروب الصليبية يغزو الروم تغور العرب فيجرتونها و
ينهبونها ويسبون نساءها ويسترقون الرجال ويقفلون بالأسرى والغنائم كما
كما نعلوا (بزيطوة). فيغزوهم العرب للإنتقام أو للفتح وينتقون منهم مسأمتهم
التي أسلفوها ويصلونهم النار التي أصلوها كما نعلوا (بعمورية).

ثم يواصل حديثه في هذه القصيدة الرائعة عن انتصار سيف الدولة على
الروم في بلادهم، فيذكر أن الرياح السهر تفرق بين صلوهم وتمزق أعلاهم
ويصف ابن المستق بالجبن والخور، ثم انتقل إلى وصف البطارقة المقيدين بالأغلال
كي يقتلوا إذا دعت الحاجة إلى قتلهم فقال:

إذا دعا العليج على جبال بينها أظلى تفارق منه اختها الضلع
أجل من ولد الفعاس منكتف إذ ماتهن وأمضى منه منصرع
كم من حشاشة بطريق تضمنها للبا ترات أسين ماله ورع
يقاقي الخطو عنه حين يطلبه ويطرد النوس عنه حين يضطجع (أ)

وقد أنشدها المتنبي في حلب، وليس في ميدان المعركة، كما كان يفعل في بعض
الأوقات عندما تطول الإقامة مع الأسير في أرض القتال، ويصف ما وقع في معركة
الشغور سنة ٣٤٣هـ. ووصف الشاعر سيف الدولة كيف فر منه برداس وكيف بقي
إبنة قسطنطين مملى القلب^(١) ثم يجعل المتنبي يتكلم بطول جيوش الروم وعرضها ويعد
عليها الأمير - وهو سيف الدولة - أكل تلك الجيوش وشروبها، فقال:

لعلك يوماً يا دستق عائد نكح هارباً مما إليه يؤول
أنتسلم للخطية أبند هارباً ويسكن في الدنيا إليك خليل
أنزلك طول الجيوش وعرضها على شروب للجيش أكل (٢)

ولم يدع أبو الطيب ذكرى هذه المعركة الكبرى التي وقعت في بلاد كثيرة من
الشغور، فقد رد هذه الذكرى حين هنا سيف الدولة بعيد الأضي إذا أنشده في
ميدان حلب، وهي القصيدة التهنئة بالعيد والنصر. فوصف الدستق وهو القائد
الرومي العظيم، فينذره، وليسخر منه لأنه آثر نفسه، وترك إبنة يفتح في الأسر،
وبهذه السخرية قال أبو الطيب في قصيدة أخرى، قيلت عن هذا الانتصار أول مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا
ومستكبر لم يعرف له ساعة رأس سيفه في كفه فتشهدا
لذلك سبى ابن الدستق يومه مما تارساه الدستق مولدا
فولّى وأعطان إبنة وجيوشه جميعاً ولم يعط الجميع ليجدا

(١) شعر الحرب

(٢) ديوان

وبعد هذه الأبيات التي أشاد فيها المتنبي بانتصارات سيف الدولة، يبقى من هذه القصيدة عشرون بيتاً - كما ذكر الديوان - تحدث في العشرة الأولى، منها عن هزيمة سيف الدولة وانكسار جيشه في طريق العودة إلى حلب، ولا يصح بذكر الهزيمة بل يكفى بالإجمال وسرد الدلائل وإبراز العلامات وتحديد الملامح.

وقد رأينا كيف كان أبو الطيب بارعاً في حديثه عن الهزيمة والذي يحول بقدراته البيانية الهزائم إلى الانتصارات، ويرفع أعلام النصر بدلاً من رايات الإستسلام -

شهد أبو الطيب هذه المعركة، ورأى سيف الدولة وهو يجاهد الأعداء بسيفه ولقد حمده في هذا الممول بعد أن جربه عندما كان يقاتل بينا جفوده يلغزون بالفرار^(١) ولم تكن الحرب بين المسلمين والروم تنتهى حتى تبدأ من جديد في شكل معارك كبيرة أو سرايا صغيرة يقع بها أحد الفريقين، ويرد عليه الآخر، وقد جهداً الطرفان لمدة بسيطة يتبادلان فيها الأسرى، يأخذان الأصبه بالسلاح والرجال ثم يواصلان الحرب من جديد.

والقصيدة التي بين يدي الآن هي اللامية التي يقول أبو الطيب في مطلعها:

رمى الدهر بالجرو الجياد إلى العدى	وما علموا أن السهام خيول
وخيل براها الركض في كل بلدة	إذا عرست فيها فليس تقيل
ما شعر وحتي رأوها مغيرة	قبائنا وأما خلقها فخيول
سحاب يبطون الحديد عليهم	فكل مكان بالسيف غسيل

ويعيش به العكاز في الدير ثاباً ، وما كان يرضى مشى أشقر أجرداً
 هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده وعيد لمن سهى وضجى وعيداً
 هو الجرحى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيداً (١)
 ريزكر المتنبى غزو سيف الدولة لسهندو في عام ٣٤٤ هـ وهي التي تقع في وسط
 بلاد الروم ، وقد حيل بين سيف الدولة والوصول إلى آخر شقة بسبب الثلج وهجوم
 الشتاء قال :

وأشقى بلاد الروم أهلها بهذا وما فيها لجود جاهد
 شنت بها الغارات حتى تركتها وجفن الذي فوق الفرجة ساهد
 مخضبة والقوم صرعى كأنها وإن لم يكونوا ساجدين مساجد
 تنكسهم والسابقات جبالهم وتطعن ضيهم والرياح المكائد
 أخو غزوات ما تغيب سيفه رقا بهم إلا وسيحان جامد
 نأنت حسام الملك والدم ضارب وأنت لواء الدين والدم عاقد (٢)

كان العرب قد أقاموا مدينة الحدث في أرض الروم سنة ١٩٩ هـ. واتخذوا
 منها قلعة يحمون بها ثغرىهم وأطراف دولتهم في أقصى الشام (٣)، وعلى أرضها دارت
 معارك كثيرة بين الروم والعرب ، ولا كانت سنة ٣٣٧ هـ. التقى الجيشان على هذا
 الحصن وانتصر الروم في هذه المعركة واستولوا عليها وهدموا قلعتها ، وقد ألى
 سيف الدولة إلا أن يعيد هذا البناء وليستولى على هذه القلعة ، وتحمياً لذلك

خرج في جيش قوامه خمسة آلاف مقاتل بين فارس وراجل ونعيم خمسمائة فارس من أخلص
الرجال لسيف الدولة واستشعر الروم خطراً، فجع الدستق جيشاً ضخماً، عدد رجاله خمسون
ألف مقاتل وهو عدد كبير بالنسبة للجيش العربي^(١)، فلما التقى الجيشان وتضعف المسلمون
شيئاً، وكادوا ينحزمون لولا أن الأثير ربه خلاصاً له مضوا يشتون الصفوف، فانحزم
الروم هزيمة نكراء ومثل منهم ثلاثة آلاف، ثم هرب الدستق بعد أن قتل ابنه وصهره
ولم يقف البناء عن البناء وبقى المبنى في أرض الحدث حتى اكتمل البناء. ولهذا وصف
المتنبي «الحدث» بالحرار لكثرة قتلائه عليهما من دماء البيزنطيين، وأقام سيف الدولة
في ذلك اليوم حفلاً مهيباً تخليداً لهذا الانتصار العظيم. وفي هذا الحفل أُنشد
أبو الطيب قصيدته أولها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها	وتصغر في عين العظيم العظام
هل الحدث الحرار تعرف لو نحا	وتعلم أي الساقين الغنائم
نظم وقت ذوب الغش ناره	فلم يبق إلا صارم أو ضارم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما	منا تجم البيض الخفاف الصوام
إذا زلقت مشيتها ببطونها	كما تنهش في الصعيد الأراقم
ولست مليكاً هازماً لنظيره	ولكنك الشوهد للشرك هازم
ألا أيها السيف الذي لست مغداً	ولانيك مرثاب ولا عند عاصم

هنيئاً لضرب الهام والجدر العلى . وراجيدك والإسلام أنك سالم

ولم لا يعنى الرحن حديد ماوى . وتقليقه هام العدى بك دائم (١)

وتعد هذه القصيدة من أعظم قصائد الحماسة فى الشعر العربى، فقد كان

الشاعر حاضراً لهذه الواقعة، وشهد بعينه إنتصار المسلمين وهزيمة الروم، وكان

أول من هذه الحروب مع البيزنطيين بأنها ليست حروباً خاصة بين ملك الروم و

ملوك العرب ولكنها حرب بين الإسلام والشر.

لم يعتن مؤرخو العرب بتفصيل وماتع سيف الدولة الفخيرة التى غيرت

تاريخ الإسلام برمته فى غربى العراق زمن الدولة العباسية، حتى إن شراح قصائد

أبى الطيب جميعاً كانوا يقدمون على القصائد نتفاً تبين بعض معالمها التاريخية غير

أن ذلك غير وافٍ بغرض التاريخ السياسى الذى ينبغي أن يفهم فى نوره مثل هذا

التاريخ الأدبى، ليفهم النص، على وجهه الإسمي -

كان أبو الطيب وأبو فراس يلتقيان فى مجالس سيف الدولة بجلب وملتقيان

أيضاً فى ساحة القتال مع الروم أو مع القبائل وذاتاً بها من حلاوة ومرارة، وكلاهما

قد وصف هذه الحروب، وأشاد بحماسة سيف الدولة وتغنى بانتصار العرب فى شعر

موسى مطبوع غير متكلف مما جعلهما ليسداً من سداً من النسيان على من عاشرهما من الشعراء.

نكيف لا نذكر أبا فراس الحمداني، وهو ابن عم سيف الدولة، وكان يصحب سيف الدولة

فى حروبه منذ صباه، فقد قال: «غزونا مع سيف الدولة وقتلنا همن العيون سنة ٣٣٩هـ،

وسنن إذ ذاك تسع عشرة سنة^(١) ويقول الثعالبي عند تعداد هذه الحروب: "كان فرد دهره مجداً وبلاغة وفروسية وشجاعة^(٢) فنجح الثعالبي في كلمة واحدة أعرق أبي فراس وسدوشعره إلى حماسته وحربه.

ومع تقدم السن بأبي فراس واشتراكه في الحروب والتحاميه بجيوش الأعداء، اضطر للوقوع في الأسر مرتين، الأولى: عندما غزم سيف الدولة على ضرب الروم في بلادهم سنة ٨٣٤٨، وكان أبو فراس قائداً للقسم الأعظم من الجيش، فوقع في الأسر فحبسوه في حصن خرشنة وهرب من الأسر بعد طرح نفسه من فوق قلعة خرشنة في نهر آلس.

أما المرة الثانية، التي أسر فيها عندما زحف الروم إلى مملكة الحمدانيين، واحتلوها عن آخرها سنة ٨٣٥١، وكان أبو فراس يرافقه عن منبج، واستسلم للأعداء ونقلوه أسيراً إلى خرشنة فقال:

إن زرت خرشنة أسيراً	نلكم أعطت بها غيراً
ولقد رأيت النار	تنهب المنازل والقصور
صبراً لعل الله	يفتح هذه فتحاً يسيراً
من كان مثلي لم يبت	إلا أسيراً أو أميراً ^(٣)

فقد ذكر أنه انتقل بالأسر إلى خرشنة والتي دخلها كثير من أسرى

- | | | |
|--------------------|------|--------------------|
| (١) شعر الحرب | ٣١٠ | |
| (٢) يتيمة الدهر | ٥٧/١ | ابن منصور الثعالبي |
| (٣) ديوان أبي فراس | ١٥٤ | |

ومغيراً، ومحرقاً لما زلها ولئن بقي الحزن بها، فقد نعم بالسرور فيها وسوف يصبر على ما نزل من الأحداث، وسعل الله يبدل الأحوال فتفتح خرشفة، ومن كان مثله في العزة والشرف والمكانة لم يبت إلا أسيراً في قصره أو أسيراً في حربه.
إن أكثر شعر أبي فراس في الحروب والمجاسسة، والقصيدة المشهورة (الرائية)، التي قالها في أسره عندما قال له الروم إعتدداً عليه، إنه لم يؤسر أحد فبقى عليه ثيابه وفرسه وسلاحه غيره فقال:

أراد عصى الدرع شبتك الصبر أما للمهوى نهي عليك ولا أمر
وإني لنزال بكل مخوفة كثير إلى نزالها النظر الشر
وإني لجرار لكل كتيبة معودة أن لا يخل بها النصر
فأصدي إلى أن تترى البيض والقنا وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر (١)
وهذه القصيدة من روائع الشعر الحماسي، وقد قالها الشاعر في أسره مشيداً فيها بقوة عزيمته وبأسه في قتال الروم.
وأبو فراس رجل حرب يصبر على النوائب، ويتغنى بالآلام ولا يستسلم للأعداء أو للمواقع الذي يفرض نفسه.

وفي الكتب أنه اشترك في حرب للروم وعمره تسع عشرة سنة، وكان سيف الدولة يوجهه لحرب القبائل العربية، كبنى كلاب وبنى كعب وبنى قشير وقيس عيلان. ولهذا وجدت بالديوان كثيراً من القصائد والمقطوعات عن حروبه مع القبائل العربية.

وقد كان يشتكى في أول حياته الحربية من تَعُوده عن حروب الروم فقال :

أشده ما أراه منك أم كرم تجود بالنفس والأرواح تصطم

تفدى بنفسك أمواصنعتم وكان حقهم أن يفتدوك هم

تضن بالحرب عناضن ذى بخل ومنك في كل حال يعرف الكرم

لا تشغلني بأمر الشام أحرسه إن الشام على من حله حرم (١)

فالشاعر فارس شجاع لم يرد النعيم في الشام وجيش ابن عمه قتال بالروم

ويذكر أن سيف الدولة يفدى الناس وكان حقهم أن يفتدوه ويضن بالحروب ولا

يشاركه فيها مع أنه كريم لم يعرف بالبخل، والشام في ابن بن نزل به (٢)

وكان الروم قد قدموا إلى الشام مع جيش بلغ الثمانين ألفاً بأسلحتهم

وجمع سيف الدولة معه أبو فراس وبقية القواد جيشاً، وزحف الأعداء إلى حلب

وانتشروا في أرجاء الدولة الحداثية، فاشتد الذعر والخوف ونهض أبو فراس

للدفاع عن منبج، وكان يدعو الناس للجهاد، وهو يصيح بالشعر قائلاً :

كيف أرجو الصلاح في أمروهم ضيعوا الخزم فيه أي ضياع

ضطاع المقال غير سديد وسديد المقال غير مطاع (٣)

وقد قال هذيل البطين عندما اختلف التدبير في أمر عسكره، ولم يقبل ما أشار به

قومه، وكان هذا القتال في أرض العرب في المرتعة التي هزم فيها سيف الدولة.

ونرجع إلى القصيدة ، نجد أن مطلعها غير ملحمي إذ أنه يبدأ بالغزل على
 عذرة شعر أبي خراس في عصره ، ثم انتخر بفروسيته وبجد قومه ذاكر أسواق
 المحامد لعدوته وأهليه ، ليختلج بلع سيف الدولة صاحب حلب وناصر الدولة صاحب
 الموصل فقال بينهما :

نشيد كما شادوا ونبي كما بنوا لنا شرف ماضي وآخر حاضر
 نفينا لدين الله عز ومنعة ومنا لدين الله سيف وناصر
 وأوطأ حصن ورتينس خيوله وقبلها لم يقرح النجم حافر (١)
 هذه قصيدة طويلة جدا فيها يشير إلى انتصارات سيف الدولة في أرض فارس
 ثم يعاود الإفتخار بقومه وبجاسة آل حمدان جميعا وانتصارات على الروم و
 العرب جميعا .

وشعر أبي خراس في أسره يسيل عذوبة ورقة ويعبر عن وجدانه في صدق
 وقد كثرت أشعاره إلى سيف الدولة وهي في الاستعطاف والعقاب وطلب المغااة
 والنصح الحربي يقول في الأسر .

قد عذب الموت بأفواهنا والموت خير من مقام الذليل
 إنا إلى الله لنا بنا وفي سبيل الله خير السبل (٢)

وفي قصيدة طويلة كتبها إلى سيف الدولة حينما كان في الأسر لدى
 الروم يعرفه بخروج المستق إلى الشام ويحرضه على الاستعداد وليسأله

تقديم الفداء، ويدعوه إلى التصدي لهم^(١) وهي من القصائد الحاسية المتوجهة قال:

إني أغار على مكاني أن أرى فيه رجال لا تسد مكاني
أو أن تكون وقية أو غارة مالي بها أثر مع الفتيان
"سيف الهدى" من حد سيفك يرتجى يوم يذل الكفر للإيمان
هذه الجيوش تبحث نحو بلادكم مخوفة بالكفر والصلبان
غضباً لدين الله أن لا تغضوا لم يشتهر في نصره سيفان
حتى كأن الوحي فيكم منزل ولكم تخص فضائل القرآن
قد أغضوكم فاغضوا وتأهبوا للحرب أصبة ثائر غضبان (٢)

وهو يرى أن حروب قومه حروب ضد الكفر، حتى ترتفع راية الإسلام، ولهذا يراهم بالإستعداد وأخذ الأهبة ليس منعاً عن بلادهم شر البغى والكفر والعدوان وأشعار أبي فراس إلى سيف الدولة كلها إرشادة بحاسته وانتصاراته على الروم والقبائل في المعارك الكثيرة التي خاضها، وانتصر فيها أو استعطف لفدائه من الأسر أو فخر بقبيلته بن حمدان.

وكذلك نجد كثيراً من شعر الجهاد عند السرى الرغاء الشاعر المشهور، فلما جاد شعره اشتغل من حرفة الرضا إلى حرفة الأدب^(٣) ولم يزل في ضللك من العيش إلى أن خرج إلى حلب واتصل بسيف الدولة، ومدحه وأثام بحضرة فاشتهر.

(١) شعر الدعوة الإسلامية، العبيد الثالث، ٧٣

(٢) ديوان أبي فراس ٣٠٥

(٣) تاريخ الأدب العربي "الأعرابية" ٥٠٩/٢ عمر فروخ

وبعد صيته ونفق سوق شعره عند أمراء بني حمدان ورؤساء الشام والعراق (١)

ويذكر سيف الدولة ويذكر وقعة مع الدستقي وبناء حصن الحدرث قال :

فتي أعزّ به الإسلام صاحبه وردّ ثاقب نور الملك ثاقبه

يوم من النصر مذكور فواضله إلى التناد ومشكور مواهبه

إن لم يكن يومه بدرا من ظفر أعطيت فيه ومن نصر مناقبه

حمية يا صارم الإسلام حوزته بصارم الحد حتى عز جانيه

رفعت بالحدث الحصن الذي خفّضت منه المحوادث حتى زال راتبه

يا ناصر الدين لما عزّ ناصره وخطب الجدل لما قلّ خاطبه

اليوم صان رداء الملك لاه وشملت الحرب يميني من يجاربه

وأصبح الدين قد ذلت لصولته كتاب الشوك إذ عزت كتابه (٢)

ويذكر الأمير سيف الدولة ويذكر بعض غزواته في خرشفة :

وقائع مثلكم بدأت تعود وخيل ما تحط لها لبود

وفتيان تقيتهم دروع مضاعفة وصبرهم عقيد

وأيام على الإسلام بيض وهن على العدا حمر وسود

بيت جلادها شرقا وغربا حديثا تقشعر له الجلود (٣)

وأيا يذكر سيف الدولة ويذكر فتحا كان له في بعض غزواته إلى خرشفة :

أجمل! هو الفتح لا فتح يشاكله أعاد عاجله غزاً وأجله
 تفتحت فيه أبواب السمار على أغر مفتاح باب البشر نائله
 غزوا إذا العام أبقى منه باقية أثارة يزجي لحثف الشجر قابله
 بكاهل اللاد سيف الدولة أطارت قواعد الدين واشتدت كواهله
 مجرد العزم في طامح يقارع عن حرمة الدين أو باغ يناضله
 نليس ينفل من عيشن يقاطعه في طاعة الله أو سير يواصله
 غضبت للدين حتى عاد كوكبه طلقا يضئ على الأفاق أنله (١)

ثم بعد وفاة سيف الدولة قدم الشاعر بغداد ومدح الوزير المصلي
 وغيره، وكان بينه وبين أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد الشاعرين المشهورين معاً^(٢)
 بادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره، ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر.

(١) شعر الدرعة الإسلامية «العبيد الثالث» ٧٩

(٢) النجوم الزاهرة ٦٧/٤

الخاتمة

لقد وصل الباحث من خلال الدراسة الماضية

إلى نتائج عديدة تتلخص في النقاط التالية.

١- كان العصر العباسي الأول عصر ازدهار في تاريخ الأمة الإسلامية ولكن العصر العباسي الثاني كانت فيه الأوضاع السياسية متدهورة حيث لم تعد للخلافة العباسية.

٢- المكانة المركزية في العصر العباسي الثاني واستغلت مناطق العالم الإسلامي مما أنتج وضعاً لعدم الاستقرار السياسي.

٣- كان المجتمع في العصر العباسي يتألف من أربعة عناصر رئيسية، هي العرب و الفرس و المغاربة و الأتراك، وكانت السيادة المرحدة للعرب خرجت من أيديهم من بعد. وبدأ العصر العجبي يزداد قوة يوماً بعد يوم، و اختلط المجتمع العربي بالأقمة العجمية، وتفاعل معه وكان بينهما تأثير متبادل.

٤- هناك في العصر العباسي انقسم المسلمون إلى شيعة وطوائف أن تعرض المجتمع الإسلامي إلى التفتت والتنازع، ولم يحد النزاع بينهم طوال العصر العباسي بل تطور أطواراً مختلفة.

٥- انغمس العباسيون في الترف والبذخ ومجالس الطرب والغناء بزيادة العمران وتدفق الثروة.

✧ - كانت هناك أربع ثقافات التي أثرت فيهم وهي الثقافة الفارسية

والهندية واليونانية والعربية، وامتزجت هذه الثقافات بعضها ببعض
فنتجت عنها النهضة العلمية المتمثل في ثلاثة جوانب .

✧ - حركة الترجمة والنقل تنقسم إلى ثلاثة أدوار . الأول من خلافة النور

إلى وفاة هارون الرشيد، أي من سنة ١٣٢ إلى سنة ١٩٣ م. وهي الطبقة

الأولى من المترجمين ومن مثليها عبد الله بن المقفع و يحيى بن البطريق وغيرها

والثاني من ولاية المأمون إلى سنة ٣٠٠ م وهي الطبقة الثانية منهم يوحنا بن

البطريق وحجاج بن مطر . والثالث من سنة ٣٠٠ م إلى منتصف القرن الرابع

المجهرى ومن ترجمى هذه الطبقة متى بن يونس و سنان بن ثابت و يحيى بن عدي

وغيرهم . وكانت هذه التراجم كلها من مآثر بيت الحكمة الذي الرشيد و

رعاه المأمون .

✧ - تنظمت العلوم الإسلامية في هذا العصر الذهبي كلهم كالتفسير

والحديث والفقه والتاريخ بل وضعت المناهج للكتابة الصحيحة نحو هذه العلوم .

✧ - إن هذا العصر يمتاز عن غيره بتطور العلوم الأدبية واللغوية

والتسعت دائرة المعارف وتشعبت أغراض اللغة وشهر كل ذى فضل في

تدوين العلوم ومراستها .

✧ - والرواد من شعر الدينى كابي العتاهية ، وأبي نواس والمتنبي

ومحمود الرازي ، عبد الله بن المبارك وأبي تمام وغيرهم كانت أشعارهم في

هذا المجال مهلوّة بشعر الزهد والحماسة وحبية الجهاد.

✧ - لقد وصل الباحث إلى أن الشعر الديني في العصر العباسي لم يبلغ إلى الكمال بل كان يتوقف على طبقة مخصوصة كالزهاد والعلماء والمحدثين، وليس من الشعراء المعروفين إلا قليل منهم. قد نظّموا هذا القسم من الشعر وإنّا أفر شعر الجهاد والحماسة على المجتمع.

فهرس المصادر والمراجع

- ١: أبو تمام - عمرفروخ . مطبعة الكشاف بيروت . ١٩٣٥ م
- ٢: أبو تمام الطائي . خضر الطائي . دار الجمهورية بغداد . ١٩٦٦ م
- ٣: أبو الطيب المتني . جوزن الهاشم . الطبعة الأولى . دار الشرق الجديد بيروت . ١٩٥٩ م
- ٤: ابوالعناهية . أشعاره وأخباره تحقيق شكري فيصل دار الملاح دمشق ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م
- ٥: أبو فراس فراس الحمداني (سلسلة الروائع) فؤاد أفرام البستاني المطبعة الكاثوليكية بيروت . ١٩٦١ م
- ٦: أبو فراس نارس بن حمدان وشاعرهم . عمرفروخ . الطبعة الأولى . مكتبة ميمنة بيروت ١٩٥٤ م
- ٧: أحن التقاسيم في معرفة الأقاليم - احمد بن أبو بكر البناء المقدسي . الطبعة الثانية مطبعة بريل ليدن لبنان . ١٩٦٧ م
- ٨: الأغاني . ١٤ و ١٣ و ١٤ . أبو الفرج الأصبهاني . شرحه الدكتور يوسف علي طرلي الطبعة الأولى . دار الفكر بيروت . ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م
- ٩: أمراء الشعر العربي . أنيس المقدسي . دار العلم للملايين بيروت . ١٩٦٣ م
- ١٠: انوار النزاهية في ديوان أبي العناهية . جمعه أحد الأبا اليسوعيين . الطبعة الثانية المطبعة الكاثوليكية بيروت . ١٨٨٨ م
- ١١: تاريخ أدب اللغة العربية . ٢ - برج زيزان . تعليق شوقي ضيف . دار الهلال القاهرة . ١٩٥٧ م

١٢ ÷ تاريخ الأدب العربي . حسن زيات . مطبعة الإحسان مصر . ١٣٤٩ هـ - ١٩٢٠ م

١٣ ÷ تاريخ الأدب العربي . حنا الفاخوري . المطبعة البوليه لبنان . ١٩٥١ م

١٤ ÷ تاريخ الأدب العربي « العصر العباسي » عمر فروخ الطبعة الخامسة . دار العلم للملايين بيروت . ١٩٨٥ م

١٥ ÷ تاريخ الأدب العربي « العصر العباسي الأول » شوقي ضيف . الطبعة السابعة . دار المعارف مصر . ١٩٦٤ م

١٦ ÷ تاريخ الأدب العربي « العصر العباسي الثاني » شوقي ضيف . الطبعة الثالثة . دار المعارف مصر . ١٩٧٣ م

١٧ ÷ تاريخ الإسلام « السياسي والديني والثقافي والاجتماعي » - ٢ - حنا إبراهيم حسن

الطبعة الثالثة مكتبة النهضة المصرية . ١٩٥٣ م و الطبعة التاسعة مكتبة النهضة . ١٩٨٠ م

١٨ ÷ تاريخ الإسلام « السياسي والديني والثقافي والاجتماعي » - ٣ - حنا إبراهيم حسن ، مكتبة

النهضة المصرية القاهرة - ١٩٤٩ م والطبعة التاسعة - ١٩٨٠ م

١٩ ÷ التاريخ الإسلامي العام . علي إبراهيم حسن . الطبعة الثالثة . مكتبة النهضة المصرية

القاهرة - ١٩٦٣ - و ١٩٧١ م .

٢٠ ÷ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - ٣ - أحمد شلبي . مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر القاهرة . ١٩٦٢ .

٢١ ÷ تاريخ بغداد أو مدينة السلام - ١ - ٧ . الخطيب البغدادي . دار الكتب العربي بيروت - ١٩٣١ م

٢٢ ÷ تاريخ التربية الإسلامية . أحمد شلبي . دار المكشاف بيروت - ١٩٥٤ م

٢٣ ÷ تاريخ التمدن الإسلامي - ٣ - ٤ - جرجي زيدان . مطبعة الهلال القاهرة . ١٩٢١ م

٢٤ ÷ تاريخ الخلفاء . جلال الدين السيوطي . مطبعة مجتبى دهل - ١٣٠٩ هـ -

٢٥ ÷ تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري . نجيب البهيتي . دار الكتب المصرية

القاهرة - ١٩٥٠ م

- ٢٦ ÷ تاريخ الطبري أو تاريخ الأمم والملوك. ٤-٥. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
الطبعة الثانية. دار الكتب العلمية بيروت. ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- ٢٧ ÷ التصوف الإسلامي. الدكتور البير نصري نادر. المطبعة الكاثوليكية. بيروت. ١٩٧٠ م
- ٢٨ ÷ التصوف في الإسلام. عمر فروخ. الطبعة الأولى. مكتبة مئينة بيروت. ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م
- ٢٩ ÷ تعقيد العلم. الخطيب البغدادي. تحقيق وتعليق يوسف العش. المعهد الفرنسي
دمشق - ١٩٤٩ م
- ٣٠ ÷ الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة. بليحة رحمة الله
مطبعة الزهراء بغداد - ١٩٧٠ م
- ٣١ ÷ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متر. تعريب محمد عبد الهادي البوريدة
لجنة التأليف والترجمة والنشر. مصر - ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م
- ٣٢ ÷ الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمعثرات الأجنبية. خون كرمير. تعريب مصطفى طه بدر
دار الفكر العربي بيروت - ١٩٤٧ م
- ٣٣ ÷ حضارة الإسلام في دار السلام. جميل نخلة المدور. مطبعة الأمير عبد القادر مصر. ١٩٣٧ م
- ٣٤ ÷ حضارة العرب. في العصور الإسلامية الزاهرة. مصطفى الرافعي. الطبعة الأولى. دار الكتب
الليبية بيروت - ١٩٧٠ م
- ٣٥ ÷ دراسات في التصوف الإسلامي. أحمد عبد الحليم السامح وعائشة يوسف المناعي
دار الثقافة دوحه قطر. ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م
- ٣٦ ÷ ديوان أبي تمام. عيسى أبو سن الطائي. تقديم عبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى
مطبعة حجازي القاهرة - ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م

- ٣٧ ÷ ديوان أبي الطيب المتنبى . عبد الوهاب عزام . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٩٤٤م
- ٣٨ ÷ ديوان أبي فراس . رواية عبد الله الحقيق بن خالد . دار صادر دار بيروت - بيروت . ١٩٣٨م - ١٩٧١م
- ٣٩ ÷ ديوان أبي فراس . شرح . كرم البستاني . دار صادر بيروت . ١٩٨١م
- ٤٠ ÷ ديوان الإمام الشافعي . جمعه وحققه . عبد العزيز سيد الأهل . المجلس الأعلى لشؤون الإسلامية القاهرة - ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م
- ٤١ ÷ ديوان البحري . ١-٢ - ترتيب وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي . الطبعة الأولى مطبعة هندية القاهرة - ١٣٣٩هـ - ١٩١١م
- ٤٢ ÷ ديوان الشافعي . جمعه وحققه زهدى يكن . دار الثقافة بيروت - ١٩٧١م
- ٤٣ ÷ ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام . عبد الوهاب عزام . مطبعة الجزيرة بغداد . ١٩٣٦م
- ٤٤ ÷ رسالة القشيرية . عبد الكريم هارون القشيري . شرح زكريا الأنصاري . مطبعة التقدم العلمية . ١٣٤٤هـ
- ٤٥ ÷ زهر الآداب وثمر الألباب . ١- إبراهيم بن علي القيرواني . شرح زكي مبارك حققه محمد محي الدين عبد الحميد - ^{الطبعة الرابعة} دار الجيل بيروت . ١٩٧٢م
- ٤٦ ÷ سنن النسائي . شرح جلال الدين السيوطي ، حاشية الإمام السدي الطبعة الأولى . مطبعة المصرية بالأزهر مصر - ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م
- ٤٧ ÷ شذرات الذهب - ٢ - أبو الفلاح عبد الحميد بن العباد الخليل . دار المسرة بيروت . ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
- ٤٨ ÷ شرح ديوان الجوامع . تحقيق محمد عبده عزام . دار المعارف مصر . ١٩٥١م
- ٤٩ ÷ شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني . السيد محمد ديب . الطبعة الأولى . ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
- ٥٠ ÷ الشعر والشعراء في العصر العباسي . مصطفى الشكعة الطبعة السادسة . دار العلم للملايين بيروت . ١٩٨٦م

- ٥١ : شعر الحرب في أدب العرب " في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة " زكي المحاسني
الطبعة الثانية دار المعارف مصر - ١٩٧٠ م
- ٥٢ : شعر الدعوة الإسلامية " العصر العباسي الأول " جمعه وحققه عبد الله عبد الرحمن الجعفي
المشرف عبد الرحمن أرنت باشا المطابع الأهلية للأؤنسيت الرياض . ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م
- ٥٣ : شعر الدعوة الإسلامية " العصر العباسي الثاني " جمعه وحققه . عائض بنيه الرّادى
المشرف عبد الرحمن أرنت باشا . الرئاسة العامة للطباعة والمطابع العلمية الرياض . ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م
- ٥٤ : شعر الدعوة الإسلامية " العباسي الثالث " جمع وتحقيق محمد بن علي الصامل وعبد الله بن صالح
العريبي . المشرف عبد الرحمن أرنت باشا . مطابع دار الهلال للأؤنسيت الرياض . ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
- ٥٥ : فصحى الإسلام - ١ - ٢ - أحمد أمين الطبعة الثالثة . لجنة التأليف والترجمة القاهرة - ١٩٥٢ م
١٣٧١ هـ
- ٥٦ : طبقات الضعفاء - ابن العزّز - تحقيق عبد الستار أحمد فراج . دار المعارف مصر - ١٩٥٧ م
- ٥٧ : العالم الإسلامي - ٢ - عمر رضا كحّالة الشركة المتحدة للتوزيع دمشق - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
- ٥٨ : عصر الأمون - ١ - أحمد فريد رفاعي . الطبعة الرابعة . دار الكتب المصرية بالقاهرة - ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م
- ٥٩ : العقد الفريد - ٣ - ابن عبد ربّه . شرح أحمد أمين . أحمد الزين ، ابراهيم الأبياري
الطبعة الثالثة لجنة التأليف والترجمة القاهرة - ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م
- ٦٠ : العدة في محاسن الشعر وآدابه - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الأولى مطبعة
حجازي القاهرة - ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م
- ٦١ : فجر الإسلام - أحمد أمين الطبعة السابعة . مكتبة النهضة المصرية القاهرة - ١٩٥٥ م
- ٦٢ : الفخرى في آداب السلطانية والدولة الإسلامية " محمد بن علي بن طباطبا المعروف
بـابن طططا . دار صادر بيروت - ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م

- ٦٣ ÷ الفن ومذاهبه في الشعر العربي . شوقي ضيف الطبعة الرابعة . دار المعارف مصر . ١٩٦٠ م
- ٦٤ ÷ الفهرست - ابن النديم مطبعة الاستقامة القاهرة . ب . ت
- ٦٥ ÷ في تاريخ المذاهب الفقهية . الشيخ محمد أبو زهرة مطبعة المدنى القاهرة . ب . ت
- ٦٦ ÷ القرآن الكريم - سورة البقرة وآل عمران .
- ٦٧ ÷ الحاصل في التاريخ . ٥ - ٤ - ٧ - ابن الأثير . دار صادر بيروت - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م
- ٦٨ ÷ كتاب الوزراء والكتاب . محمد بن عبدوس الجعفي تعلق نيخايل . ^{الطبعة الأولى} دار الكتابة اللبنانية بيروت . ١٩٤٦ م
- ٦٩ ÷ المتنبي . محمود شاكر - مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- ٧٠ ÷ مختصر تاريخ العرب . سيد امير علي تعريب عفيف البعلبكي الطبعة الأولى - دار العلم للملايين بيروت ١٩٦١ م
- ٧١ ÷ مختصر كتاب الفرق بين الفرق - عبد الفاهر بن طاهر - إختصار عبد الرزاق بن زرق الله مطبعة الهلال مصر - ١٩٢٤ م
- ٧٢ ÷ مذاهب التفسير الإسلامي . اجنتس جولد تسهر - ترجمة عبد الحليم النجار مطبعة المحمدية القاهرة - ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م
- ٧٣ ÷ مروج الذهب - ١ - ٢ - ٤ - المسعودى هاشم ابو الوليد بن الشحنة الطبعة الأولى المطبعة الأزهرية المصرية القاهرة - ١٣٠٣ هـ .
- ٧٤ ÷ المزهر في علوم اللغة وأنواعها . ١ - ٢ - جلال الدين السيوطي . شرح محمد أحمد جاد على محمد التجارى . محمد ابو الفضل ابراهيم الطبعة الثانية . مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر . ب . ت
- ٧٥ ÷ معجم الأدباء - ١١ - ياقوت الحموى الطبعة الثالثة . دار الفكر بيروت - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
- ٧٦ ÷ معجم البلدان . ١ - ٢ - ٣ - ٥ - ياقوت الحموى . دار صادر دار بيروت بيروت . ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م
- ٧٧ ÷ المعجم "في الأدب العربي وتاريخه" ٣ - وضع لجنة من الاساتذة بالأطراف العربية . دار المعارف مصر . ب . ت

٧٨ ÷ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ٢-٣-٤ - جمال الدين الجاسني ، المؤسسة

المصرية العامة بمصر - ١٩٤٣ م

٧٩ ÷ لنساء لعن في التاريخ الإسلامي نصيب ، على إبراهيم بن مكتبة النهضة المصرية القاهرة - ١٩٥٠ م

٨٠ ÷ نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي - على حسن عبد القادر - الطبعة الثالثة

طبعة السعادة مصر - ١٩٤٥ م

٨١ ÷ النظم الإسلامية - حسن إبراهيم بن ، محمد عبد الرحيم مصطفى على إبراهيم حسن

طبعة النهضة المصرية بالقاهرة - ١٩٥٤ م

٨٢ ÷ النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، صبحي صالح - الطبعة الثانية دار العلم

للملايين بيروت - ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م

٨٣ ÷ لفتح الطبيب من غصن الأندلس الرطيب - ١-٤ - أحمد بن محمد المقرئ - تحقيق

محمد رمي الدين عبد الحميد ، طبعة السعادة مصر - ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٩ م

٨٤ ÷ النقد الأدبي - ٢ - أحمد أمين لجنة التأليف والترجمة القاهرة - ١٩٥٢ م

٨٥ ÷ صفة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام - يوسف البدليعي - طبعة العلوم بالسيدة

زينب مصر - ١٩٣٤ م

٨٦ ÷ الوزراء العباسيون - محمد أحمد برانق - المطبعة النفوذجية - ١٣٦٧ هـ - ١٩٤١ م

٨٧ ÷ وفيات الأعيان - ١-٢-٣ - ابن خلدان - تحقيق محمد رمي الدين عبد الحميد - مكتبة

النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤١ م

٨٩ ÷ بيضة الدهر - عبد الممد النعالي - شرح مفيد محمد قميحة - الطبعة الأولى - دار الكتب

العلمية - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٣ م



**DEVELOPMENT OF RELIGIOUS POETRY IN
ABBASID PERIOD FROM SECOND TO
FORTH CENTURY (A.H.)**

THESIS
SUBMITTED FOR THE DEGREE OF
Doctor of Philosophy
in
Arabic Literature
BY
SYED SUHAIL AHMAD

UNDER THE SUPERVISION OF
DR. S.M. UMARI

DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH (INDIA)

1999